مواقف مع أهل العناد

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا
فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ
خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥)
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ
يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨)
لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ
إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ
لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا
بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لا يرجون أى : لا يخافون واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، ولقاءنا اى : لقاء جزائنا واستكبروا فى أنفسهم أى: أوقعوا . الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدها كبيرة الشأن والعتو : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ، ولم يكترثوا بالمعجزات التى أتاهم بها ، وحجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلم بدارهم أى: نسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، وقدمنا أى: عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر ، المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمى بذلك،لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا . (تشقق) تتفتح السماء عن الغمام ، الحق : الثابت الذى لا يزول ، عسيرا : شديدا ، يعض الظالم على يديه : كناية عن الندم ، خليلا : صاحبا وصديقا ، الذكر : القرآن ، خذولا : الخذل الترك من الإعانة ، جملة واحدة أى : دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك ، ورتلناه أى:أتينا ببعضه اثر بعض على تؤدة ومهل من قولهم ثغر مرتل أى : متفلج الأسنان ، بمثل أى : بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقه وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه : تفسيرا أى: ايضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم أى: يسحبون على وجوههم ويجرون إليها . الوزير : قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا:هيأنا وأعددنا ، الرس : البئر غير المبنية ، والجمع رساس . قال ابو عبيدة . والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها:الرس والفلج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتتبير : التفتيت والتكسير ، والقرية : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط . لا يرجون أى : لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حكى سبحانه أباطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد ﷺ ـ بقولهم ﴿ لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم فى هذا الصدد ، فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول ، يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح فى الدنيا ، صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيل ، فى ظل ظليل ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾[1] ولعل فى ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمير الرأى ، ليرشدوا إلى طريق السداد ، ويقلعوا عماهم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع .

وبعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة ـ أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعض الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوه السبيل ، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب وبعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعنتهم الظالم فى الرسول من نحو قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ﴾ وقولهم فى القرآن : ﴿ إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقولهم فيه : ﴿ إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ ـ أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه ، بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم فى دينهم ودنياهم ، ثم سلاه سبحانه على ذلك ، بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقتد بأولئك الأنبياء ، ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى الكتاب الكريم ، كقولهم : إن هو إلا إفك مبين وقولهم : هو أساطير الأولين ـ قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم ، وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى ، والزبور على داود فرد الله عليهم مقالتهم ، وبين لهم فوائد إنزاله منجما ، فذكر منها تثبيت فؤاده ﷺ وتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعدئذ ذكر حال المشركين ، وأنهم حين يحشرون يكونون فى غاية الذل والهوان ، ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال . .

وبعد أن تكلم فى دلائل وحدانيته ، ونفى الأنداد ، وفى النبوة ، وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفى أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى يلقاها الكافرون وفى النعيم الذى يتفضل به على عباده

(١) سورة الزمر آية رقم ٧٤ .

المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم ، الذين كذبوهم ، فحل بهم النكال والوبال ، ليكون فى ذلك عبرة لقومه المشركين ، الذين كذبوا رسوله ، حتى لا يحل بهم من العذاب مثلما حل بمن قبلهم ، إذ هم تمادوا فى تكذيبهم ، وأصروا على بغيهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . . وقصة نوح وقومه ، وقصة هود مع قومه عاد ، وقصة صالح مع قومه ثمود ، وقصة أصحاب الرس .

وبعد أن ذكر مطاعن المشركين فى النبى ﷺ وأورد شبهاتهم فى ذلك ـ أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والحط من قدره ، حتى لقد قال بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ﴾ لقد غالوا فى ذلك فسموا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالهم ، وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء ، يبعد أن يزدجروا عماهم فيه من الغى بنصحك وإرشادك ، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى ان الآية الأولى نزلت فى أبى جهل ومن معه ، فإنه كان إذا مر رسول الله ﷺ ـ مع صحبه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا)

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

هذا بعض ما اقترحوه ولولا هنا بمعنى هلا ، والمعنى أنزلت علينا الملائكة بالوحى . وذلك يفسره قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)[(1)] .

ويحتمل أن يكون المعنى : هلا أنزلت علينا الملائكة فنراها رأى العين ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[(2)] .

فجاء الرد القاطع من الله ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[(3)] . وفى هذا المقام يقول عنهم : ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والكبر غمط الناس وبطر الحق ، والعتو والتمرد عن قبول الحق ، كما قال نوح عن قومه : ﴿ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا[(4)] ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ أى هم

---

(1) سورة الانعام الآية رقم : ١٢٤
(2) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٠ ـ ٩٢
(3) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٣
(4) سورة نوح الآية رقم : ٥ ـ ٧

لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن ، فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ـ أى بالضرب ـ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾[٢] ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين** ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين ، حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات . وحصول المسرات .

قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾[٣] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : « أن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيتها النفس الطيبة فى الجسد الطيب إن كنت تغمرينه ، أخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان »[٤].وقد تقدم الحديث فى سورة إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء** ﴾[٥] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى** ﴾ يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين ، يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، تبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين . (ويقولون حجرا محجورا) أى:وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال:حجر القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف ، إما لفلس أو سفه أو صغر ، أو نحو ذلك ، ومنه سمى الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ، أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل حجر ، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق ، والغرض أن الضمير فى قوله ﴿ **ويقولون** ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير .

٢ ـ وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد الخدرى فى الآية : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون[٦] .

٣ ـ وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج ، أنه قال ذلك من كلام المشركين ﴿ **يوم يرون الملائكة** ﴾ أى

(١) سورة الانفال الآية رقم : ٥٠ (٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٣
(٣) سورة فصلت الآية رقم : ٣٠ ـ ٣٢ (٤) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٧
(٥) الحديث رواه ابن ماجه فى الزهد/ ٣١ ، وأحمد فى مسنده ـ ٢/ ٣٦٤ ، ٤/ ٢٨٧ ، ٦/ ١٤٠ .
(٦) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .

يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزلت بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجرامحجورا)[١] وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبى نجيح عن مجاهد ، أنه قال فى قوله : ﴿ **حجرا محجورا** ﴾ أى عوذا معاذا ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريح ، ولكن فى رواية ابن أبى حاتم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : (حجرا محجورا) عوذا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ قال مجاهد (قدمنا) أى عمدنا .

وقوله تعالى : ﴿ **فجعلناه هباء منثورا** ﴾ قال : سفيان الثورى بسنده عن على رضى الله عنه فى قوله : (هباء منثورا) قال:شعاع الشمس إذا دخل الكوة وقال قتادة فى قوله : ﴿ **هباء منثورا** ﴾ قال أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الريح .

وقال عبد الله بن وهب:أخبرنى عاصم بن حكيم،عن أبى سريع الطائى،عن عبيد بن يعلى قال : إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شىء فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذ أنها لا شىء بالكلية ، وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شىء بالكلية كما قال تعالى : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شى مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾[٥] .

إن الله تعالى لا يقبل العمل ، إلا إذا توافر فيه شرطان ، أن يكون خالصا لله ، وأن يكون صوابا موافقا لشرعه جل فى علاه قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٦]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .
(٢) سورة ابراهيم الآية رقم : ١٨
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ١١٦ ـ ١١٧
(٤) سورة البقرة الآية رقم : ٢٦٤
(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٩ ـ ٤٠
(٦) سورة الكهف الآية رقم : ١١٠

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾[٣] .

وعن أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى ـ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ﴾ متفق على صحته[٤] .

وعن أم المؤمنين أم عبدالله عائشة رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض نخسف بأولهم وآخرهم . قالت قلت : يارسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » متفق عليه . هذا لفظ البخارى[٥] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا)متفق عليه[٦] ومعناه : لا هجرة من مكة ؛لأنها صارت دار إسلام .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى ـ رضى الله عنهما ـ قال : (كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض) وفى رواية (إلا شركوكم فى الأجر) رواه مسلم[٧]

وروى البخارى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : (رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : (إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ؟ حبسهم العذر)[٨] .

(١) سورة البينة الآية رقم : ٥
(٢) سورة الحج الآية رقم : ٣٧
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ٢٩
(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الايمان (فتح البارى ١ / ١٠ ـ ١٩ ط الحلبى) ، وفى العتق / ٦ ، وفى مناقب الأنصار ٤٠ ، وفى النكاح ٥ ، وفى الايمان / ٢٣ وفى الحيل / ١ ـ ورواه مسلم فى الامارة / ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق / ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد / ١٦ ، والنسائى فى أربعة مواضع من سننه (الايمان والطهارة / ٥٩ والعتاق والطلاق / ٢٤ ، وابن ماجه فى الزهد من سننه / ٢٦ وأحمد فى مسنده ١ / ٢٥ ، ٤٣ .
(٥) الحديث رواه البخارى فى الحج / ٤٩ ، وفى البيوع / ٤٩ ، ومسلم فى الفتن / ٤ ، ٦ ـ ٨ ،وأبو داود فى المهدى / ١ ، والترمذى فى الفتن / ١٠ ، ٢١ ، وفى الحج ١١٢ ، وابن ماجه فى الفتن / ٣٠ ، وأحمد فى المسند ٦ / ١٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ وفى المغازى / ٥٣
(٦) الحديث رواه البخارى فى الصبر / ١٠ ، وفى الجهاد ١ ، ٢٧ ، ١٩٤ / وفى الجزية / ٢٢ ومسلم فى الحج ٤٤٥ ، وفى الامارة ٨٥ ، ٨٦ ، وأبو داود فى الجهاد ، والترمذى فى السير ٣٢ ، ٣٣ والنسائى فى البيعة ١٥ ، وابن ماجه فى الجهاد ٩ ، كفارات / ١٢ والدارمى فى السير / ٦٩ ، وأحمد فى المسند ١ / ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ ٣ / ٤٠١ ، ٦ / ٤٦٦ .
(٧) الحديث رواه مسلم فى الامارة / ١٥٩ ، وأبو داود فى الجهاد / ١٩ ، وابن ماجه فى الجهاد / ٦ .
(٨) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٣٥ .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضى الله عنه ـ وهو وأبوه وجده صحابيون ، قال : كان أبو يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل فى المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها . فقال : (والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال :(لك ما نويت يايزيد ولك ما أخذ يامعن) رواه البخارى(١)

وعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي الزهرى رضى الله عنه ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضى الله عنهم قال : (جاءنى رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت : يارسول الله ، إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا ابنة لى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر يارسول الله ؟ فقال : لا ، قلت فالثلث يارسول الله ، قال : الثلث والثلث كثير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى فى امرأتك ، قال : فقلت : يارسول الله أخلف بعد أصحابى ؟ قال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله ، إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة) يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة متفق عليه(٢) .

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) رواه مسلم(٣)

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله) متفق عليه(٤) .

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قلت : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الزكاة / ١٥ ، والدارمى فى الزكاة / ١٤ ، وأحمد فى المسند ٣ / ٤٧٠

(٢) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٣٦ ، وفى الوصايا ٢ ، وفى مناقب الانصار / ٤٩ ، وفى المغازى ٦٤ ، وفى النفقات / ١ وفى المرضى ١٦ ، وفى الدعوات ٤٣ ، وفى الفرائض ١٦ ، ورواه مسلم فى الوصية ٥ ، ٨ ، وأبو داود فى الوصايا /٢ ، والترمذى فى الوصايا / ١ ، والنسائى فى الوصايا / ٣ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى البر / ٣٢ وابن ماجه فى الزهد / ٩ . وأحمد فى المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى التوحيد / ٢٨ ، ومسلم فى الامارة / ١٥ ، والترمذى فى فضائل الجهاد ١٦ وابن ماجه فى الجهاد ١٣ وأحمد فى المسند ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

المسجد لا يريد إلا الصلاة . لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ؟ اللهم اغفر له ! اللهم بث عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) متفق عليه[١] .

وهذا لفظ مسلم وقوله ﷺ : (ينهزه) هو بفتح الياء والهاء وبالزاى : أى يخرجه وينهضه .

٢ ـ وعن أبى العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه[٢] .

٣ ـ وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وان أغبق قبلهما أهلا أو مالا ؟ فلبثت ـ والقدح على يدى ـ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى (وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية : (فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أدّ إلىّ أجرى . فقلت كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال : ياعبد الله لا تستهزىء بى فقلت : لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)[٣] متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى فى الصلاة / ٨٧ ، وفى الأذان / ٣٠ ، وفى البيوع / ٤٩ ، وابو داود فى الصلاة / ٤٨ ، وابن ماجه فى المساجد / ١٦ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٣١ ، ومسلم فى الايمان / ٢٠٧ ٣ ـ الحديث رواه البخارى فى الاجارة / ١٢

المعنى : لا أغبق : « بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وضم الباء الموحدة وكسرها » أى :لا أقدم فى الشرب قبلهما أهلا ولا مالا من رقيق وخادم (والغبوق) شرب العشى .
أرح : « بضم الهمزة وكسر الراء » أى أرجع
يتضاغون : بالضاد والغين المعجمتين يصيحون من الجوع .

والآن نسأل ما هو الإخلاص . الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله ـعز وجل ـعن جميع الشوائب وقيل : هو إفراد الله ـعز وجل ـ بالقصد فى الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله ـعز وجل ـبه فقال تعالى : **﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾** .

وعن أبى امامة ـرضى الله عنه ـقال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شىء له فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ لا شىء له ثم قال : (ان الله ـعز وجل ـلا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه) رواه ابو داود والنسائى[1] .

وعن أبى سعيد الخدرى ـرضى الله عنه ـعن النبى ﷺ أنه قال فى حجة الوداع : (نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم يغل : بكسر الغين وتشديد اللام وضم الياء من أغل اذا خان وبفتح الياء من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .

الدغل : بالتحريك : الفساد . ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص لقول الله عز وجل : **﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾**[2] وروى ان أحد الصالحين كان يقول لنفسه : (يانفس أخلصى تتخلصى) .

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل اليه القلب قل أو كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب ، فالاخلاص : تنقية القلب من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الجهاد / ٢٤ ، ٣٥ ، والنسائى فى الجهاد / ٣٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٩٠ ، ٣٦٦
(٢) سورة الحجر آية رقم : ٤٠ ، سورة ص آية رقم ٨٣

يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، فمثل هذا لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإن ذاك يتيسر به الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ، لأنه لم ير وجه الآفة كما حكى عن بعضهم : انه كان يصلى دائما فى الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة ، فصلى فى الصف الثانى فاعترته خجلة من الناس حيث رأوه فى الصف الثانى ، فعلم ان مسرته وراحة قلبه من الصلاة فى الصف الأول ، كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض ، قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا** ﴾[1] وبقوله عز وجل : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[2] .

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : (المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته)

قال السوسى : (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص) .

وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : (تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال) .

وقال بعضهم : (إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز) .

وقيل لسهيل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : (الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب)

وقال الفضيل : (ترك العمل من أجل الناس رياء ، العمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما)

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه (نويت) بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ،

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٧ - ٤٨

(٢) سورة الكهف آية رقم : ١٠٣

فقد تتيسر فى بعض الأوقات وقد تتعذر فى بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين ، تيسر عليه فى أكثر الاحوال أحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى اصل الخير ، فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه-عن رسول الله ﷺ قال : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخارى ومسلم .

روى عن الشافعى انه قال : (هذا الحديث ثلث العلم) . قوله : (إنما الأعمال بالنيات) يعنى أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله - ﷺ : (إنما الأعمال بالخواتيم) .

وقوله ﷺ : (وإنما لكل امرىء ما نوى) يعنى ثواب العامل على عمله بحسب النيات الصالحة التى يجمعها فى العمل الواحد وقوله : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر اليه) وبعد إرساء القاعدة الأولى ، ذكر مثالا للأعمال التى صورتها واحدة ، وتختلف فى صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن موضعها ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) فيظن ان المعصية تصير طاعة بالنية ، فإن قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) يخص من اقسام العمل الثلاثة : الطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد ، اما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ودخول النية فى المعصية ، إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ووبالها !

والطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو ان ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شىء منها إلا ويحتمل نية أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات .

فضل النية

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - انه قال : (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى)

وقال بعض السلف : (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية)

وعن يحيى بن ابى كثير : (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وصح عن ابن عمر انه سمع رجلا عند احرامه يقول : اللهم إنى أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس أو ليس الله يعلم ما فى نفسك ، وذلك لأن النية هى : قصد القلب ولا يجب التلفظ بها فى شىء من العبادات .

قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

وهكذا يقترن الوعد بالوعيد ، فبعد ان حكم الله تعالى على المعاندين بضياع أعمالهم ، وأنها

ستصير هباء منثورا كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾(١) .

وكما قال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم)(٢) .

بين بعد ذلك جزاء الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ، وسماهم أصحاب الجنة ، وهى تسمية فيها تشريف وتكريم ، فالجنة هو خالقها ومالكها ، ومع ذلك سماهم أصحابها كما قال تعالى : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(٣)

قال الحسن-رضى الله عنه-لما قرأ هذه الآية سبحانك ربى . . الأنفس أنت خالقها ، والمال أنت مالكه ، ومع ذلك تشترى ما تملك وتهب الجنة ، إن هذا لهو الفوز المبين .

وهكذا يقف الإنسان وقفة العجب ، بين أهل الجنة ، وأهل النار ، فى كل خطوة على صعيد القيامة ، فأهل النار عندما يبعثون من القبور يقولون : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) . فيقول لهم أهل الجنة : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)(٤) أهل الجنة يحشرون بيض الوجوه وفدا كراما ، وأهل النار يحشرون زرقا عطاشا .

﴿ ويوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾(٥) . أهل النار يقال لهم ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين)

وأهل الجنة يقال لهم : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾(٦)

أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾(٧) .

وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾(٨) .

أهل الجنة يقول كل منهم ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾(٩) .

وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾(١٠) .

أهل الجنة يقال لهم ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾(١١) .

وأهل النار يقال لكل منهم ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾(١٢) .

(١) سورة محمد الاية رقم : ١
(٢) سورة محمد الآية رقم : ٨
(٣) سورة التوبة الآية رقم : ١١١
(٤) سورة يس الآية رقم : ٥٢
(٥) سورة مريم آية رقم ٨٥ - ٨٦
(٦) سورة الزمر الآية رقم ٦٠ - ٦١
(٧) سورة الحاقة الاية رقم ١٩
(٨) سورة الحاقة الآية رقم ٢٥
(٩) سورة الحاقة الآية رقم ٢٠
(١٠) سورة الحاقة الآية رقم ٢٦
(١١) سورة الحاقة الآية رقم ٢٤
(١٢) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ - ٣٤

ولقد وعى المسلمون الأوائل ما فى هذه الآية من أسرار فكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول لزوجته (أكثرى من المرق وأطعمى المسكين ، فقد كسرنا نصف السلسلة لما آمنا بالله ، ونريد أن نكسر نصفها الآخر بإطعام المساكين) .

وإنما قال تعالى : ﴿ **خير مستقرا** ﴾ لما توحيه تلك العبارة من الاستقرار المستلزم للأمن كما قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين** ﴾[1] وكما قال جل شأنه : **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[2] .

وكما قال تبارك اسمه : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾[3] .

فأنت ترى أن الأمن نعمة عظمى ينعم الله بها على عباده ، ومن ثم فقد قدم الأمن على العيش والرزق ، فقال : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان** ﴾[4] .

ويوم يفقد الإنسان الأمن ، فقد فقد أعظم نعمة بعد الايمان بالله ، فيا بن آدم :

إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها .

عش راضيا واترك دواعى الألم	واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش	فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال	فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى	خطت يد الأقدار أمر محال
دنياك ساعات سراع الزوال	وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياعاقلا	وتشترى دنيا المنى والضلال
أتسمع الطير أطال الصياح	وقد بدأ فى الأفق نور الصباح
ما صاح إلا باكيا ليلة	ولت من العمر السريع الرواح

اعلم بأن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك لمقرك ، وكيف تطمئن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد يشيع فيها ميت اليوم .

لاتركنن إلى القصور الفاخرة	واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل	يارب ان العيش عيش الآخرة

وقوله تعالى : ﴿ **وأحسن مقيلا** ﴾ والمقيل يطلق على وقت القيلولة ، ويراد به الراحة فى هذا الوقت ، ويطلق على الاستقرار التام والراحة الكاملة ، فهم فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند

(١) سورة الحجر الآية رقم ٤٥ ـ ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٨٢
(٣) سورة الدخان الآية رقم ٥١ ـ ٥٥
(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢

ربهم ويكفيهم رضوان الله قال تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا** ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء ، وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ، ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد وهذا كما قال تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة**)[2] .

عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد ، الجن والإنس ، والبهائم والسباع ، والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والانس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالجن والانس وبجميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والانس ، وجميع الخلق ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم ، وينزل ربنا ـ عز وجل ـ فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع من الجن والإنس وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله ـ عز وجل ـ رواه ابن ابى حاتم بهذا السياق .

قال جل شأنه : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾[3] .

قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) رواه ابن جرير .

---

(١) سورة التوبة الاية رقم ٧٢
(٢) سورة البقرة الاية رقم ٢١٠
(٣) سورة الحاقة الآيات ١٣ ـ ١٨

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾[١] .

وجاء فى الصحيح (ان الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرض بيده الأخرى ، ثم يقول، أنا الملك . . أنا الديان . . أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟[٢]

قوله تعالى : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ أى شديدا صعبا ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾[٣] .

فهذه حال الكافرين فى هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[٤] .

وكما قال تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾[٥] .

روى الامام أحمد بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا) .

مجلس فى ذكر القيامة وأهوالها

قال الله عز وجل : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله تبارك وتعالى بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة ، لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمتثلوا ما أمرهم به من الطاعة والايمان ، وخوفهم الله تبارك وتعالى من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

قال الله سبحانه وبحمده : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول إذا تحركت الأرض بأهلها ، فزلزلت من نواحيها ، وارتجت من مشرقها ومغربها ، فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل عليه السلام

---

(١) سورة غافر الآيات رقم من ١٥ ـ ٢٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى المنافقين /٢٤ وأبو داود فى السنة /١٩ وابن ماجة فى الزهد ٣٣ وأحمد فى مسنده ٧٢/٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات رقم من ٨ ـ ١٠

(٤) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٣

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٠٧

وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها ، وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد وظهر الفساد وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنا ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ، ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرىء القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والذنوب ، فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار - جل جلاله - عليهم وعند ذلك يقول الله : ياإسرافيل انفخ نفخة الصعق ، فينفخ اسرافيل عند ذلك كما امره الجبار جل جلاله ، فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة اسرافيل

وإسرافيل عليه السلام ، ملك عظيم جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسمائة عام والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بإذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور قرن من نور .

قال النبى ﷺ : (الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده إن أعظم ثارة فيه كما بين السماء والأرض)[١] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر ان ينفخ فى الصور فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد ، فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله تبارك وتعالى ، لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها[٢] وذلك قوله تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[٣] جاء فى التفسير ان الأشياء

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ فى كتب الحديث التى عندى والذى وقفت عليه فى وصف الصور ما رواه احمد فى مسنده / ١٦٢ ، ١٩٢ والترمذى فى القيامة / ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق / ٧٩ وابن جرير الطبرى فى تفسيرة ٧ / ١٥٧ بلفظ : (الصور قرن ينفخ فيه) .

(٢) لم أجد هذه الرواية المطولة فى مراجع الحديث التى عندى والذى وجدته فى هذا ما رواه أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر (المسند ٣ / ٧٣) والله أعلم .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٨٨

كلها تهلك ، إلا عملا يراد به وجه الله تعالى ، والمساجد لا تهلك ؛ لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى

خشية النبى من هبوب الريح

روى عن النبى ﷺ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يخرج ويدخل مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .

فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف كل هذا الخوف ، وهو أكرم الخلق على الله ؟ فكيف بمن أفنى عمره فى السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والمبطلات ، وضيع أوقاته فى العصيان حتى مات ؟ ؟ وأنشدوا :

نهارك يامغرور سهو وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه	كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بربهم	وعمر لك فى النقصان بل أنت ظالم
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم	ولا أنت فى النوام ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى	كما سر باللذات فى النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها	ولا تكثر العصيان إنك ظالم

وروى عن النبى ﷺ انه قال : (انتهيت ليلة أسرى بى إلى السماء السابعة فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته ، وقدم رجلا وأخر أخرى والعرش على منكبه ، والصور فى فيه بين شدقيه ، وقد تهيأ للنفخ فى الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغنى النفخة كما رأيت من تهيئته للنفخ) .

سئل رسول الله ﷺ عن إسرافيل فقال : (له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله وإنه ليفكر فى كل يوم ثلاث ساعات فى عظمة الله تعالى فيبكى من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض ، وانه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع ، والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير) .

فالله الله يامعشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعدوا لقيام الساعة وزلزالها قال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر وتنهدم المبانى فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونبتها شيء إلا دخل فى جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ فى الصور

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبى ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبنى ، فكان النبى ﷺ يقول : (فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . فإذا غضب الله تعالى على أهل

الأرض أمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق فينفخ على غفلة من الناس فمن الناس من هو فى وطنه ومنهم من هو فى سوقه ومنهم من هو فى حرثه ، ومنهم من هو فى سفره ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فمه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم) .

وإسرافيل لا يقطع الصعقة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه فى بعض فى بطن الأرض والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على وجهه ، ومنهم من هو صريع على ظهره وعلى جنبه وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة فى فيه فيموت ، وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التى فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة وتموت ملائكة السبع السماوات ، والحجب والسرادقات ، والصادقون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات المجد والكروبيون ، ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

كيف يموت جبريل

فيقول الجبار جل جلاله ياملك الموت من بقى ؟ - وهو أعلم - فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم . بقى إسرافيل وبقى جبريل وبقى ميكائيل ، وبقى عبدك الضعيف ملك الموت خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال . فيقول له الجبار تبارك وتعالى : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى جبريل عليه السلام فيجده ساجدا وراكعا فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يامسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير ، والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرسى والسرادقات وسكان سدرة المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل عليه السلام ، ويقول متضرعا إلى الله تعالى : ياألله هون على سكرات الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر جبريل منها صريعا ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل

فيقول الجبار جل جلاله انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله تعالى ، فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل الأرض وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت ، فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر صريعا ميتا لا روح

فيه ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ؟ ـ وهو أعلم ـ ياملك الموت ؟ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت إسرافيل

فيقول الجبار تبارك وتعالى انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل ، فيقول له ماأغفلك يامسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاى أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاى هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر ميتا صريعا ، فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت

فيقول الجبار تبارك وتعالى من بقى ياملك الموت ؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الجبار تعالى : وعزتى وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى انطلق بين الجنة والنار ومت ، ينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله تبارك وتعالى أمات الخلائق لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار الذى خلق الليل والنهار فلا ترى أنيسا ولا تحس حسيسا ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم

ثم يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : يادنيا أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ، وأين سكانك ، وأين عمارك ، أين الملوك وأبناء الملوك ، وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول تعالى الملك : لله الواحد القهار ، فينظر الجبار جل جلاله إلى عباده موتى من بين صريع على خده ومن بين بال فى قبره ثم يقول يادنيا أين أنهارك وأين أشجارك وأين سكانك وأين عمارك وأين الملوك وأين الجبابرة لمن الملك اليوم ؟ لا يجيبه أحد ، فيقول تعالى : لله الواحد القهار فتبقى الأرضون والسموات ليس فيهن من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل تبقى أربعين يوما وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك يُنزل الله تبارك وتعالى من السماء السابعة من بحر يقال له بحر الحيوان ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاما فيشق ذلك الماء الأرض شقا فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ .

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه (بستان الواعظين ورياض السامعين) .

كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار ، فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار جل جلاله ، وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار جل جلاله : ليبعثن إسرافيل فيقوم إسرافيل عليه السلام حيا بقدرة الله تعالى فيقول له الجبار ياإسرافيل التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله تبارك وتعالى إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

حقيقة الصور

والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرافيل

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقوم على صخرة بيت المقدس ، وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمه والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب ﴾[1] ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية واللحوم المتقطعة والأشعار المتبددة والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ، ليجازيكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل عليه السلام فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور ، فتنتشر بين السماء والأرض ، كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكافرين تخرج مظلمة كظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (وهو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه) فيتمشى فى الجسم على مهل إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطا محكما أن يشرط بموس لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) .

---

١ - سورة ق الآية رقم ٤١

حتى ترجع إلى أجسادها ، كما كانت فى دار الدنيا ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم ، فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، وإسرافيل عليه السلام ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدا ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم ، خرج مع كل إنسان عمله الذى عمله فى الدنيا ، لأن عمل كل إنسان يصحبه فى قبره ، فإن كان العبد مطيعا لربه وعمل عملا صالحا كان أنيسه فى الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره يؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : ياحبيبى ما عليك من هذا شىء ، ليس يراد به من أطاع الله ، وإنما يراد به من عصى الله تعالى مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبدا مطيعا لمولاك متبعا لنبيك تاركا لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهيأته

وإذا كان العبد خاطئا وعاصيا لذى الجلال ، ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل فى دار الدنيا ، وكان قد صحبه فى قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعا فلا يمر على هول ولا نار ولا شىء من هموم القيامة ، إلا قال له عمله : ياعدو الله هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور ... يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن ... لمطيع ومن عصى فى سعير
خاب من قد عصى وفاز مطيع ... راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للاله ذليلا ... ليس يخلو من خوفه للقدير
خاف من عظم يوم هول شديد ... شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض وما فيها

قال الله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبآت أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله تعالى أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عملا صالحا وجده نورا يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ، ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى

أرض القيامة ، وإن كان عملا سيئا وجده ظلمة سوداء ، تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية ، أربعون سنة فهو قوله : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ .

فمثل لنفسك يامغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب وأظهرت لك القبائح والعيوب وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى — وأثقلت ظهرى الذنوب
أورثنى ذكرها سقاما — فليس لى فى الورى طبيب
ياشؤم نفسى غداة حشرى — إذا أحاطت بى الكروب
وصوت داع دعا باسمى — أين مفرى وما أجيب ؟
هذا كتاب الذنوب فاقرأ — فعندها تظهر العيوب

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ، قال له الملك ياعدو الله خذ عملك ، فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك ؟ وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة ، فيجرها على ظهره أثقل من جبال الدنيا والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقا حثيثا بالعنف والانتهار والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله تعالى فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء الحساب غدا — وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة — من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا — يوم المعاد ويوم الذل والعسار
يفوز كل مطيع للعزيز غدا — بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له — يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه — لا يستريح من التعذيب فى النارى
فابكوا كثيرا فقد حق البكاء لكم — خوف العذاب بدمع وأكف جارى

فالله الله ياأولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل عليه السلام لا يقطع النداء فى الصور ، حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله تعالى من شىء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ووحوشها

ودوابها وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله تعالى وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ففى تبديلها قولان :

هيأة الأرض

أحدهما أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء لا جبل فيها ولا بناء ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ولا عصى الله تعالى عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كونى فتكون وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل إن تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها وتشققها . فهذه تبديل الأرض والسموات والله أعلم بحقيقة ذلك :

كيف يقف الناس فى المحشر

فإذا قطع إسرافيل عليه السلام النداء ، وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ولا الوالد بولده ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما قد جاء به من العصيان وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال والله أعلم : إن الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استذلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ … من بالبعث سرور
إنما يفرح بالدنيـ … ـا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع … كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم … السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (خوفنى جبريل عليه السلام من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى فقلت له : حبيبى جبريل أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ فقال : « يامحمد

---

١ - هذا الحديث نقله المصنف مع الكلام السابق واللاحق من (بستان الواعظين لابن الجوزى) ولكن لم أعثر على مخرج لهذا الحديث فيما بين يدى من مراجع وكتب ابن الجوزى بها كثير من مثل هذا

لتشاهدون من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة » فبكى رسول الله ﷺ حتى بلت دموعه لحيته) .

فهذا كان رسول الله ﷺ يبكى من هول يوم الحساب ، وقد أمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟

وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره فى معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل فى قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا)[1] هو تحريكها ، وقيل : دكا دكا : إذهابا .

معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكا دكا وصفا صفا ؟ فقال : تدكدك الأرض دكا بعد دك ، أى تحرك مرة بعد أخرى ، حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر ، وقوله صفا صفا تأتى الملائكة .

صفا بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظيم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض (فحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر شديد من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله ، ومن بلاء ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله . قد أفنى العباد بالحمام ، فلا يرى أحد من الأنام ، فإذا استوى الأولون والآخرون فى أرض القيامة ، أمر الله تبارك وتعالى السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع مثل قطع السحاب ، وقيل كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذا ندفوه فمثل لنفسك صوت انشقاقها فى سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم فى أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ، لأن الخلق فى أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم فى الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحا وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه مولاه من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم فى دنياه عملا صالحا لأخراه ، لقيته صعاب الخطوب وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة إذا حل فى أهوال القيامة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : « إذا خافنى عبدى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة »[2] .

فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل فى

---

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٢١

(٢) الحديث أورده العلامة المناوى فى (الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية) ص ٢١١ ـ ٢١٢ بلفظ : لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ـ وقال : رواه ابن المبارك عن

الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب وندم العبد على ما فرط فى الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السماوات ، عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات وظهر العذاب ، وحلت العقوبات ، وأظهر الله مخبآت السريرات وندم العبد المغرور على ما أذنب فى الأيام والأوقات وما جنى فى الشهور والساعات . فإذا انشقت السماوات ، كثرت الأحزان وبرزت النيران ، وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن . فانتبهوا لهذه الأقوال ، يامعشر الاخوان يأأهل الاسلام والايمان فإن الهول ـ والله ـ عظيم والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السماوات ، وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا ، فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا لا تجزعوا منا فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها وانعامها وطيرها ووحشها وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفا ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية ، وهم أكثر عددا وأعظم خلقا ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفا ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم لا تجزعوا نحن مشغولون بأنفسنا ونخاف مما تخافون منه ، فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفا . وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا :[1]

يـاغافلين أفيقـوا قبل بعثكم	وقبل يؤخذ بـالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غدا	لا ينطقون بلابكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم	والله طـالبهم بالحـل والحـرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم	وعد الاله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة	لا ينطقون بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد

(١) الحسن مرسلا ، ورواه ابو نعيم عن شداد بن اوس موصولا بلفظ : إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى أ ـ هـ .

فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة كل جبار عنيد وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال ، فحينئذ لا حيلة لمحتال « فى يوم لا بيع فيه ولا خلال » : ـ

مقام المذنبين غدا عسير إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفا ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكو وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل والهول الكبير والخطب الجليل والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ﷺ وعلى آله الأخيار دوام اختلاف الليل والنهار ، أنه قال : (ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة ، فاندم يامسكين على ما صنعت وفات وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض فى عرصة القيامة وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام وشخصت الأحداق وتطاولت الأعناق وانثنت من شدة العطش . واجتمع زحام الخلائق وانفاسهم وشدة حر الشمس وضيق اليأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض ، حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم ، التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها فى دار الدنيا ، وقد زيد فى حر الشمس ما يتضاعف قيل حر عشر سنين ـ ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله تبارك وتعالى يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده ، وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم من مستريح ببرد ماء الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره فى الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت

السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول فى أليم العذاب ، وقد صارت العزة لذى البطش الشديد . ولزمت الذلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل - وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الاناء ، قيل ترجع السماء كالدهن الرقيق وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة .

كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على الأمم بأعمالها . وشاب الوليد وحضر الوعد وحق الوعيد وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يامعشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الاخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب . وأنشدوا : -

مثل لقلبك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت شمس النهار وأضعفت ... حرا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار جل جلاله أن يؤتى بجهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ، فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن غسلينها وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلاء ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾[1] فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وكغضب الجبار جل جلاله وتتغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ، قد تعلق بكل زمام

(١) سورة النازعات الآية رقم : ٣٦

سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم ، وتأتى على أهل الموقف والملائكة الذين يحبسونها وجوههم مثل الجمر وأعينهم مثل البرق الخاطف : فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه

بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار ، كأمثال الجبال الراسيات العظام ورءوسها كرءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة وأعينهم زرق ووجوههم كلحة ، قد خلقوا من نار السموم ، تريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار جلا جلاله .

هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس ـ رضى الله ـ تعالى ـ عنهم .

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله تبارك وتعالى جاءت بالهول الأكبر والفزع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد . فإذا قربت من الخلائق ، سمعوا لها شهيقا ، ورأوا لها حريقا ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت وأرادت أن تثب عليهم فاغتاظت وتمحمحت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، وتريد أن تنفلت من أيدى الخزان فتهرب الخلائق ، فلا يجدون منفذا ولا مكانا يستغيثون إليه . ومناد ينادى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)[1] أى بحجة ـ ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها ، لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها صلوات الله وسلامه عليه محمد الرسول ، وكل نبى يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد ﷺ بزمامها ويقبض على خطامها ، فيردها على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو ﷺ يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره ﷺ وتناديه ايها النبى المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلى من يديك ، فما جعل الله لى ولا لغيرى من سلطان عليك ، فيناديها الملك الجليل الجبار ، هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود بإذن الملك المعبود ، لمحمد ﷺ صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود ، ولو

---

(١) سورة الرحمن الآية رقم : ٣٣

تركها خاتم النبيين وسيد المرسلين لأهلكت الخلائق أجمعين غضبا لغضب رب العالمين أعاذنا الله وإياكم ـ برحمته ـ منها إنه أرحم الراحمين .

جهنم وزفيرها

وقيل إن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا واياكم برحمته عنها ـ إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة ، فترمى شررا على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين ، فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها وجفت أزهارها ، ويبست عيونها وأنهارها من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى ، فلا تبقى دمعة فى عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ولا يسأل أحد إلا نفسه البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهى أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا بنى مرسل ، ولا ولى ولا صديق ، إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم وجميع المرسلين إلا ما خلا من حبيب رب العالمين محمد ﷺ خاتم النبيين ، فإنه لا يُسأل عن هول النار قد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة وهى أعظم من الأولى والثانية والثالثة ، فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ بساق العرش ، وكل ملك ينادى نفسى نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ويقول أيضا كل واحد منهم بحرمة محمد وبقدر محمد ﷺ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمته وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها فى بعض ، ويقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

بماذا تخمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ﷺ ويلقى يده فى زمامها ، ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك وهو ﷺ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : ياسلام سلم أمتى من العذاب الشديد . وأنشدوا : ـ

الدمع فى خد من عصى حسن | حسب الفتى من دموعه الحزن
يـامن شكى حافظاه خلوتـه | لما خـلا والعباد ما فطن
قد كان ربى عليـك مطلعـا | وأنـت لاهى الـفؤاد مفتـتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به | ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غدا | لم يعلم المذنبون ما وسن

ياقوم العجب من القلوب التى بليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

ياأخى كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليبعثن الجبار ، الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير فى اليوم المهول العبوس العسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير أرفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم إنه على ما يشاء قدير .

ثم يبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جهنم ، فيقول لها : الله تعالى يقول لك الطاعة . فتقول وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : ياجبريل ، هل خلق الله خلقا يعذبنى به ؟

فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله تعالى إلا نقمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نقمة لمن عصاه ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذلك ـ والله ـ تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب وأنشدوا :

لـيس فى الـدنـيـا لمـن | آمـن بـالـبـعـث سـرور

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، ترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين ـ رحمه الله ـ أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

يـاكثير الـذنوب أقصر قليـلا | قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »[1] فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول سبحانه ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا**

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٦٨

مسلمين ﴾ فعند ذلك ييأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار ، عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين وتتطاير الصحف فى الأفق ، فكل امرىء بما اكتسب معترف ، فندم الظالم وخسر الآثم وظهرت فى الصحف الفضائح وكثر الخجل واشتد الوجل ، وبدت الفضائح وشهدت على كل امرىء حفظته والجوارح . وأنشدوا : ـ

طال والله بالذنوب اشتغالى ... وتماديت فى قبيح فعالى
ليت شعرى إذا أتيت فريدا ... والموازين قد نصبت حيالى
والدواوين قد نشرت وجئنا ... والنبيون يشهدون سؤالى
ما اعتذارى وما أقولى لربى ... فى سؤالى وما يكون مقالى
أورثتنى الذنوب دار هموم ... لست أبقى لهاولا تبقى لى
ياعظيم الجلال ما لى عذر ... بل حقيق أنا بنار السفال
غير أن الرجاء فيك مكين ... فارحم العبد ياجميل الفعال
وتفضل على عبيد بشىء ... ليس يرجو سواك ياذا الجلال

هذا يوم الدين

١ ـ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين نادى مناد هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) .

فانظر لنفسك يامسكين ياضعيف الايمان واليقين يامن يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ما أجرأك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين ، فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب ، وأنشدوا : ـ

ياطبيب الذنوب والآثام ... هل دواء أبرأ به من سقامى
إن داء الذنوب أضعف جسمى ... ومشيبى موكل بحمامى
وشفائى أعيا الأطباء إنى ... قد تغذيت مذق بالحرام
وركبت الذنوب سرا وجهرا ... وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمى ... وكلامى يزيد قرح كلامى

---

١ ـ لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين يدى من مراجع .
والذى وقفت عليه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمر وكعب الاحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس فى صعيد واحد فينفذهم البصر ويسمعهم الداعى ويقول الله : هذا يوم لا ينطقون هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، اليوم لا ينجو منى جبار ولا شيطان مريد ... الخ ، الحديث الطويل « راجع الدر المنثور ٦ / ٣٠٥ »

أيها الناس قد علمتم ذنوبى واغترارى وشقوق واجترامى
وأنا أرغب الدعاء فجسدوا فى فكاكى من الذنوب العظام
واشتياقى إلى الطواف شديد وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يشرب يحن فؤادى كى أزور النبى خير الأنام
فسلوا الله فى الوصول فإنى ذو اشتياق لحج بيت حرام
فلعل الاله يغفر جرمى وينجى من هول يوم القيامة
ويفك ذو الجلال عبدا ضعيفا مات خوفا من العذاب الغرام

الغرام : لعله يريد العذاب الغريم أى الملازم فاضطرته القافية لذلك ، وقد سبق أن نبهنا على أن هذه الأشعار ، هى ألفاظ عامية يلاحظ فيها المعنى لا التركيب البديعى .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال لكعب : ياكعب خوفنا فأطرق برأسه ، ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعا ، فقال : ياأمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة ، فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها ، حتى تفيض على أهل الجمع وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبى ، ومائة ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها ، فعند ذلك يعرض لها النبى ﷺ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ثلاثا . فتقول له : ياأيها النبى الكريم والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل ، فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذا رأى الأهوال العظام بالنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقول يارسول الله : أنقذنى من عذاب الله ، فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى ، فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يارسول الله غلبت على شقوتى ، فيقول ﷺ لا شقوة على أحد من أمتى ولا على من قال فى الدنيا مخلصا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه . وأنشدوا : ـ

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور عراة يبتغون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا سقوطا كالفراش وكالجراد
وقد بلغت حناجرهم قلوبا وقد شخصوا بأبصار حداد
فياجبار عفوا منك فالطف ويارحمن رفقا بالعباد
ونودوا للصراط ألا هموا فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف مقامع من زبانية شداد

ألا يامعشر الاسلام هبوا من الإغفال فى غمر الرقاد

حديث فى الترهيب

روى عن النبى ﷺ أنه قال : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله وعين غضت عن محارم الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله)[1]

فقدموا عباد الله فى اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه فى العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة النقصان .

ففكر فيما تسمع أيها الانسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الانسان وأنشدوا : ـ

مقام المذنبين غدا ذليل وقدر الطائعين غدا جليل
إذا مد الصراط على جحيم يطول على العصاة ويستطيل
ونادى مالكا خذ من عصانى فإنى اليوم لست لهم أقيل

سجود جهنم

ذكر فى بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة فى السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ، ثم يقال لها ارفعى رأسك ، فترفع رأسها وهى تقول : الحمد لله الذى خلقنى لينتقم بى ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا من خلقه ينتقم به منى .

إلهى قد اشتد بلائى وأخمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم وزيد فيه الياء والنون) وأكل بعضى بعضا . إلهى عجل على بأهلى ، فوعزتك لأنتقمن لك ، ممن عصاك ، واتبع هواه وجحد آياتك ، وكذب رسلك ، وجعل معك إلها غيرك ، لا إله إلا أنت .

فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعا ، ثم تغتاظ على أهل المعاصى فترمى بشرر (فسره ابن عباس بأعناق النخل) كعدد النجوم فى السماء وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجابا بينه وبين شرر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضا لشرر جهنم ، أعاذنا الله منها وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

قوله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى فضائل الجهاد / ١٢

روى أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر مجالسة النبى ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه ، حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت ، فقال : لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأقفاه ، وتبزق فى وجهه ، فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبى بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة ، فوقعت فى ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه ، فجعل كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه ، حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله الآية .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) أخرجه أبو داود والترمذى(١) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامكم إلا تقى)(٢) .

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال : (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)(٣) .

والمراد بالعض على اليدين الندم والحسرة والألم واللوعة النفسية ، وهنا يتمنى النادم أن يكون قد اتخذ مع الرسول طريقا ، يوصل إلى الحق ، وعلى صراط مستقيم ، ثم يتمنى الهلاك لنفسه بقوله : (ياويلتى) يامصيبتى احضرى فقد آن أوانك ، ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا وصاحبا .

نعم خير الاصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الاصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك ،

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم بين له ذلك فقال : - (لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) والمراد بالذكر هنا القرآن العظيم **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٤) . (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾(٥)** .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الأدب ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٤٥ ، وأحمد فى مسنده ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ .
(٢) الحديث رواه أبو داود فى الأدب / ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٥٦ .
(٣) الحديث رواه البخارى فى الذبائح ٣١ ، ومسلم فى البر ١٤٦ .
(٤) سورة الحجر آية رقم : ٩ .
(٥) سورة الزخرف آية رقم : ٣٦ - ٣٩

وليست هذه الآيات خاصة بظالم بعينه ، بل تشمل كل ظالم ، كما أنها تشمل (لعن) كل قرين سوء ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾[٢] .

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا	فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة	وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه	ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة	فلا خير فى ود يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله	ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده	ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	صديق وفى يصدق الوعد منصفا

قوله تعالى : ﴿ **وكان الشيطان للانسان خذولا** ﴾ أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الانسان ، فيصرفه عن الحق ، ويدعوه إلى الباطل ، ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيه منه .

قال تعالى : ﴿ **وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين** ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾ .

كتب الامام ابن القيم فى كتابه (الفوائد) يقول : هجر القرآن أنواع : أحدهما هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

الثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد انه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

---

(١) سورة الاحزاب الآية رقم : ٦٤ - ٦٨
(٢) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٢
(٣) سورة فاطر الآية رقم : ٦
(٤) سورة الحشر الآية رقم : ١٦ ، ١٧

الخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل فى قوله : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾ وان كان بعض الهجر أهون من بعض .

فاعجب معى لأمة تهجر كتابها المنزل من ربها على نبيها .

فالله نور السماوات والأرض والقرآن نور قال تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾[1] .

ونبيها نور : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾[2] أمة شأنها هكذا ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى الظلمات ؟ ! إلا فلتعلم هذه الأمة ، فضائل هذا الكتاب ومناقبه ، فتعود إليه ، رافعة لواء الاسلام مرددة نشيد الايمان .

فضائل القرآن ومناقبه

قال تعالى : ، **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم** ﴾[3] .

١ ـ وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : (**إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وان هذا القرآن هو حبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا ينقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه ، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول : ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة**) .

٢ ـ وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (**فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**) .

٣ ـ وعن أبى الدرداء يرفع إلى النبى ﷺ : « **القرآن أفضل من كل شىء دون الله ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن لم يوقر القرآن ، فقد استخف بحرمة الله ، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده**)

---

(١) سورة التغابن الآية رقم : ٨
(٢) سورة المائدة الآية رقم : ١٥
(٣) سورة الحجر الآية رقم : ٨٧

١ ـ الحديث رواه الدارمى فى فضائل القرآن عن ابن مسعود باب / ١
وأورده المنذرى الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٤ وقال : رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجرى عن ابى الاحوص عنه وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح أ هـ وذكره المحدث عبدالله الصديق القمارى فى فضائل القرآن ١ / ٩ بلفظ مقارب وقال : رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن ومحمد بن نصر المروزى فى قيام الليل والحاكم وابن حبان وفى سنده إبراهيم بن مسلم الهجرى ، قال ابو حاتم : لين ليس بالقوى أ هـ
واورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ / ١٦٤ بلفظ مقارب وقال : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن ابراهيم الهجرى وهو متروك أ هـ

٢ ـ الحديث رواه الترمذى فى ثواب القرآن / ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن / ٦
٣ ـ حديث طويل فى جمع الجوامع ١ / ٤٣٦ جمع بينهما ـ وزاد كلا ما فى وسطه وعزاه لابى نصر االسجزى فى الابانة عن عائشة رضى الله عنها وقال هذا من أحسن الحديث وأعذبه وليس فى اسناده الا مقبول ثقة ـ والحكيم عن محمد بن على مرسلا ـ والحاكم فى =

١ ـ وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : (من قرأ ثلث القرآن ، أوتى ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن ، أوتى نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثى القرآن ، أوتى ثلثى النبوة ، ومن قرأ القرآن كله ، أوتى النبوة كلها ، ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما (معه من) القرآن ثم يقال : اقبض فيقبض ، فيقال : هل تدرى ما فى يديك فإذا فى اليمنى الخلد وفى الاخرى النعيم) .

٢ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (حملة القرآن محفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، فمن عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم . فقد والى الله يقول الله عز وجل : ياحملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبا ، ويحببكم إلى خلقه) يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الأخرة ، والمستمع آية من كتاب الله ، خير من ثبير ذهبا ولتال آية من كتاب الله ، خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى) .

٣ ـ وعن أبى بريدة قال : كنت عند النبى ﷺ فسمعته يقول : (القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى؟ فيقول ما اعرفك . فيقول انا صاحبك القرآن الذى اظمأتك فى الهواجر . واسهرت ليلتك وان كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة) .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له : اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها . فهو فى صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلا) .

عن معاذ قال : (كنت فى سفر مع رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله حدثنا بحديث ينتفع به ، فقال : (إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى

= تاريخه عن محمد بن الحنفية عن على بن أبى طالب موصولا .
والحديث اورده ابن الجوزى فى الموضوعات (من رواية ابن عساكر عن انس بلفظ مقارب وقال : وفيه على بن الحسن الشامى ووافقه السيوطى ثم ابن عراق الكنانى على ذلك (راجع تنزيه الشريعة (١ / ٢٩٤) .

فى تنزيه الشريعة ١ / ٢٩٢ : من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ ثلثيه اعطى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن فكأنما اعطى النبوة كلها . . الحديث . اورده ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث ابى امامة وقال : لا يصح ،فيه بشير بن نمير . (وتعقب) بان بشيرا من رجال ابن ماجه (قلت) قال الحافظ فى التقريب : متروك متهم والله أعلم ، والحديث اخرجه البيهقى فى الشعب ، وقد ورد مثله من حديث ابن عمر . . الخ ماقال (راجع تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣)

ـ الحديث رواه ابن ماجه فى الأدب / ٥٢ ، والدارمى (سنن الدارمى ٢ / ٣٢٤) فى فضائل القرآن / ١٥ ، وأحمد فى مسنده ٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
ورواه ايضا البيهقى وابن ابى شيبة باسناد صحيح ، وقال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح أ هـ وقال ابن كثير بعد عزوه له : وهذا إسناد حسن على شرط مسلم ـ وفى رواية : كالرجل الشاب (راجع تفسير ابن كثير ١ / ٣٣ ط الحلبى ، المطالب العالية ٣ / ٨٤ ، بصائر ذوى التمييز ١ / ٦٠ ـ ٦١ ، اللآلئ المصنوعة ١ / ١٢٦ ، الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، المنهل العذب المورود ٨ / ١٢٤ (شرح) وفيه : الحاكم عن بريدة .
هزًا : الهز : الاسراع بالقراءة ـ والترتيل : القراءة بتؤدة .

يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان فى الميزان)[١] .

وعن عقبة بن عامر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفة ، فقال :(أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم ؟)قلنا: كلنا يارسول الله يحب ذلك . قال :

(لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد ، فيتعلم آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، ومن أعدادهن من الابل)[٢] .

وعن عائشة قالت :

(قال رسول الله ﷺ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ،والذى يتتعتع فيه له أجران)[٣]

وروى عن أبى ذر أنه جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله إنى أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به ، فقال ـ ﷺ ـ (لايعذب الله قلبا أسكنه القرآن)[٤] .

وعن أنس عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (من علم آية من كتاب الله كان له أجرها ماتليت)[٥] .

وعن ابن مسعود أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا ؟ فإن فيه علم الأولين والآخرين ، ألم تسمعوا قوله : ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شىء ﴾[٦] .

ـ وعن واثلة بن الاسقع أن النبى ـ ﷺ ـ قال : أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المائدة مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل[٧] .

وعن عثمان بن عفان أنه قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٨] .

---

(١) الحديث رواه الديلمى عن غضيف بن الحارث
(راجع : بصائر ذوى التمييز ١/ ٦١ نقلا عن كنز العمال ١/ ١٣٦)

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٥١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة ـ أبواب الوتر ١٤ ، وأحمد فى مسنده ٤/ ١٥٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة عبس،ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوتر/ ١٤
والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الأدب/٥٢ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/١ وأحمد فى مسنده ٦/ ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٤) الحديث رواه الدارمى فى كتاب فضائل القرآن ١

(٥) الحديث ورد بلفظه فى بصائر ذوى التمييز ١/٦٢ ولكنه فى جمع الجوامع ١/٨٠٢ بلفظ : من علم آية فى كتاب الله كان له ثوابها ماتليت۔ وقال (رواه ابن لال عن أبان عن أنس)

(٦) الحديث ورد بلفظه فى كتاب بصائر ذوى التمييز ١/٦٢ ولكنه فى كنز العمال ١/٥٤٨ رقم ٢٥٤ ورد بلفظ : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن (رواه الديلمى عن أنس) أى فلينقر عنه وليفكر فى معانيه

(٧) الحديث رواه النسائى فى كتاب الافتتاح ٢٦ ، والدرامى فى كتاب فضائل القرآن/ ١٧

(٨) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ٢١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة ـ أبواب الوتر (عون المعبود ٤/٣٢٥ باب فى ثواب قراءة القرآن) والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/ ٢

وعن أبي موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ويعمل به مثل الثمرة : طعمها طيب ، ولاريح لها ، ومثل الذى يقرأ القرآن ولايعمل به كمثل الريحانة ، لها رائحة وطعمها مر ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ولايعمل به مثل الحنظلة لاطعم لها ، ولارائحة) (البخارى ومسلم)[١] .

(والاترجه ضرب من الفواكه) .

وسئل النبى - ﷺ - من أحسن الناس صوتا ؟ قال من إذا سمعته يقرأ خشية تخشى الله[٢] وكان - ﷺ - يقول لأصحابه : (اقرأوا القرآن بحزن ، فإنه نزل بحزن)[٣] .

(كنز العمال)

- وقال ﷺ - (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد .

قيل : فما جلاؤها يارسول الله ؟ قال : ذكر الموت وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾[٤] .

- وقال - ﷺ - : (القرآن هو الدواء)[٥] (كنز العمال)

وقال - ﷺ - : (القرآن غنى لافقر بعده ولا غنى دونه)[٦] .

ورد فى الإتقان وذكر أنه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أبى هريرة

وقال - ﷺ - : القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق) وماحل بكسر الحاء المهملة أى ساع وقيل :

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأطعمة/٣٠ ، وفى كتاب فضائل القرآن/١٧ ، ٣٦ ، وفى كتاب التوحيد/٥٧ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٣ ، وأبو داود فى كتاب الأدب/١٦ ، والترمذى فى أبواب الأدب/٧٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان/٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة/١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/٨ ، وأحمد فى المسند ٣٩٧/٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨

(٢) الحديث رواه الدارمى فى سننه ٢/ ٣٣٨ رقم ٣٤٩١ عن طاوس بلفظ : من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله وفى كنز العمال ٦٠٨/١ رقم ٢٧٨٨ بلفظ : إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله (ابن ماجه عن جابر)

وفى كنز العمال ٦٠٢/١ - ٦٠٣ رقم ٢٧٥٠ بلفظ :(أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله)رواه محمد ابن نصر فى كتاب الصلاة والبيهقى فى الشعب والخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأورده الهيثمى فى المجمع ١٧٠/٧ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وثقه ابن حبان وقال ربما أخطأ وبقية رجال البزار رجال الصحيح وقال : وفيه حميد بن حماد بن خوار

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الإمامة رقم/١٧٦ ورواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الأوسط عن بريدة بلفظ : اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن(كنز العمال ١/ ٦٠٦ رقم ٢٧٧٧

(٤) الحديث فى كنز العمال ٥٤٩/١٥ - ٥٥٠ رقم ٤٢١٣٠ بلفظ : إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : وماجلاؤها ؟ قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن : (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر)

(٥) رواه السجزى فى الإبانة والقضاعى عن على-رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٧ رقم ٢٣١٠)

(٦) رواه ابن عساكر ومحمد بن نصر عن أنس رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ - ٥١٧ رقم ٢٣٠٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٥٨/٧ وقال : رواه أبو يعلى عن أنس وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف أ هـ

خصم مجادل) رواه ابن حبان فى صحيحه[١] .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾

أى كما حصل لك يامحمد فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ، لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾[٢] .

ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هاديا ونصيرا ﴾ لان المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾ الآية . .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لايعنيهم ، حيث قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب ، الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك ، بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ومايحتاج إليه من الأحكام ، ليثبت قلوب المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[٣] ولهذا قال سبحانه : ﴿ لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ قال قتادة : بيناه تبيينا . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا .

وقوله تعالى : ﴿ ولايأتونك بمثل ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى: ولايقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ولايأتونك بمثل ﴾ أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ـ ﷺ ـ حيث كان يأتيه الوحى من الله ـ عز وجل ـ بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا سفرا وحاضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

(١) رواه ابن حبان والبيهقى فى الشعب عن جابر رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ رقم ٢٣٠٦)

(٢) سورة الأنعام آية رقم : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم : ١٠٦

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد - ﷺ - أعظم نبى أرسله الله تعالى ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

روى النسائى باسناده عن ابن عباس قال : (وأنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة)[١]

قال الله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾

ثم قال تعالى : مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

وفى الصحيح عن أنس أن رجلا قال يارسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال - ﷺ - : (إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .

قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ؛ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ، ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا - ﷺ - من مشركى قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا ، أى نبيا مؤاذرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده فدمرناهم تدميرا ، قال تعالى : **﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾**[٢] وقال سبحانه **﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾**[٣]

وقال تبارك اسمه : **﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ، ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾**[٤] .

---

(١) الحديث رواه النسائى فى كتاب (فضائل القرآن) ص ٥٩ رقم ١٥ / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ طبعة دار الثقافة بالمغرب عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئا أحدثه .

(٢) سورة مريم آية رقم : ٥١ - ٥٣

٣ - سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون الآيات رقم : ٤٥ - ٤٩

ثم يأتى الحديث عن قوم نوح فيقول تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾[١] فاعجب معى لقوم يظل فيهم نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى التوحيد ليلا ونهارا ، ويبذل فى سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الدعوة ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٢] ثم بعد ذلك تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[٣]

فيالله للبشرية إذا ماوقفت تلك المواقف ، التى تحار فيها الألباب ، وتنشق فيها قلوب الأسود ، وتتفت لها مرائر النمور .

قوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم[٥] اعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٤] وقال تبارك اسمه :

﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾[٦] .

أما أصحاب الرس ، فهم الذين قتلوا نبيهم ، وكانوا يقطنون اليمامة

وقال ابن جرير : هم أصحاب الأخدود ، الذين ورد ذكرهم فى سورة البروج فى قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ أى:أمما كثيرة أهلكناهم لما كذبوا رسلنا . قال تعالى : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[٦]

---

(١) سورة العنكبوت الآيات رقم : ١٤ ـ ١٥
(٢) سورة نوح الآيات رقم : ٨ ـ ١٢
(٣) سورة هود . آية رقم : ٤٠
(٤) سورة فصلت الآيات رقم : ١٥ ـ ١٨
(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ٣٨
(٦) سورة الأنعام آية رقم : ٦

وقال سبحانه : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لايؤمنون ﴾(١) وقال عز من قائل : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا ، وبينا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار فتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفظع الإهلاك وأشده ونحو ذلك قوله تعالى فى شأن الظالمين : ﴿ ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ .

أى: وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ؛ لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة مايوجبه فقال :

﴿ أفلم يكونوا يرونها ؟ ﴾ أى: أفلم يروا مانزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم ، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال :

﴿ بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ أى: إنهم ماكذبوا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عند الله ؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ماحل بالقرية التى وصفت ، بل كذبوه من قبل إنهم قوم لايخافون نشورا بعد الممات ، ولايوقنون بعقاب ولاثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصى الله .

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم : ٤٤
(٢) سورة الأحقاف الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨
(٣) سورة ابراهيم الآيات رقم : ٤٢ ـ ٥٢

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .

- أى:وإذا رآك هؤلاء المشركون اتخذوك موضع هزؤ وسخرية ، وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد فى قبحه فى زعمهم فقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ أى ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ﴾[٤] . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ أى:إنهم حين يشاهدون العذاب ، الذى استوجبوه بكفرهم سيعلمون من الضال ومن المضل ؟ وفى هذا رد لقولهم : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر ، فاعجب معى لأهل الباطل ، يصبرون على آلهتهم وضلالتهم وباطلهم ، وأهل الحق يستعجلون ، نعم يامولانا يامن قلت وقولك الحق :

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٦] وقلت : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ .

---

(١) سورة هود آية رقم : ٨٢ ، ٨٣
(٢) سورة الصافات آية رقم : ١٣٣ - ١٣٨
(٣) سورة الحجر آية رقم : ٧٣ - ٧٧
(٤) سورة ص آية رقم : ٦ - ٨
(٥) سورة الأنبياء آية رقم : ٣٦ - ٣٧
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٨٦
(٧) سورة النحل آية رقم : ١٢٦ - ١٢٨

أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بإن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولاتأبه به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا ، تزجره عما هو عليه من الضلال ، وترشده إلى الصراط السوى ، وخلاصة ذلك ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لايرى معبودا له إلا هواه ، لاتستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾[1] وقوله تبارك اسمه : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾[2] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[3] .

الهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواه ، وتمنى على الله الأمانى ، ومن عرف الهوى فقد هوى ، وقد صح فى الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

قال الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ذم الهوى وتحت عنوان (فى ذم الهوى والشهوات)

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه ، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم مأأكل ، وإلى المشرب ماشرب ، وإلى المنكح مانكح ، وكذلك كل مايشتهيه ، فالهوى مستجلب له مايفيد ، كما أن الغضب دافع عنه مايؤذى ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق ، وإنما يذم المفرط من ذلك ، وهو مايزيد على جلب المصالح ودفع المضار . ولما كان الغالب من مواقف الهوى أنه لايقف منه على حد المنتفع ، أطلق ذم الهوى والشهوات ، لعموم غلبة الضرر ، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى فى النفس ، وإذا فهم تعذر وجود العمل به وندر مثاله : ان شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء ، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولايتعدى ، فإن وجد ذلك انغمر ذكر الهوى فى حق هذا الشخص ، وصار مستعجلا للمصالح ، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى . فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنا وتبعا ، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت فى هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا ، ووسمت كتابى بـ « ذم الهوى » لذلك المعنى .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم : ٢٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٥ ـ ١٧٧

(٣) سورة ص آية رقم : ٢٦

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ماذكر الله ـ عز وجل ـ الهوى فى موضع من كتابه إلا ذمه . وقال الشعبى : إنما سمى هوى ، لأنه يهوى بصاحبه .

فصل :

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر فى عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كانت سببا للألم والأذى ومنع لذات فى الآجل .

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما ، وشهوة تورث ندما ، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى .

ألا ترى أن الطفل يؤثر مايهوى ، وإن أداه إلى التلف ! فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك ، وقد يقع التساوى بينهما فى الميل والهوى ، وبهذا القدر فضل الآدمى على البهائم ـ أعنى ملكة الارادة ـ لأن البهائم واقفة مع طباعها ، لانظر لها إلى عاقبة ، ولا فكر فى مآل ، فهى تتناول مايدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر ، وتفعل ماتحتاج إليه من الروث والبول أى وقت اتفق ، والآدمى يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه .

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا ، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل ، فإنه سيشير عليه بالنظر فى المصالح الآجلة ، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط فى كف الهوى ، إلى أن يتيقن السلامة من الشر فى العاقبة .

وينبغى للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ماتؤذى غايته . وليعلم العاقل أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لايلتذونها ، وهم مع ذلك لايستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطرارى ، ولهذا ترى مدمنى الخمر والجماع لايلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن ، غير أن العادة تقضيه ذلك فيلقى فى المهالك لنيل مايقتضيه تعوده . ولوزال رين الهوى عن بصر بصيرته ، لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ ، لاهو نال ماخدع به ، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه .

فإن قال قائل : فكيف يتخلص من هذا وقد نشب فيه ؟ قيل له :

بالعزم القوى فى هجران مايؤذى ، والتدرج فى ترك مالا يؤمن أذاه ، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونهما سبعة أشياء .

أحدها : التفكر فى أن الأنسان لم يخلق للهوى ، وإنما هيىء للنظر فى العواقب والعمل للآجل ، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالاينالە الإنسان ، مع عيش هنى خال عن فكر وهم . ولهذا تساق إلى منحرها ، وهى منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب .

والآدمى لاينال ماتناله لقوة الفكر الشاغل ، والهم الواغل ، وضعف الآلة المستعملة ، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما نجس حظ الآدمى الشريف منه ، وزيد حظ البهائم ، وفى توفير حظ الآدمى من العقل ونجس حظه من الهوى ، مايكفى فى فضل هذا وذم ذلك .

والثانى : أن يفكر فى عواقب الهوى . فكم قد أفات من فضيلة ، وكم قد أوقع فى رذيلة ، وكم من مطعم قد أوقع فى مرض ، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم .

غير أن صاحب الهوى لايرى إلا الهوى ! فأقرب الأشياء شبها به من فى المدبغة ، فإنه لايجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان .

والثالث : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة ، فإنه يراه يربى على الهوى أضعافا . وقد أنشد بعض الحكماء .

وأفضل الناس من لم يرتكب سببا حتى يميز ماتجنى عواقبه

والرابع : أن يتصور ذلك فى حق غيره ، ثم يتلمح عاقبته بفكرة . فإنه سيرى مايعلم به عيبه إذا وقف فى ذلك المقام .

والخامس : أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات ، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشىء وإنما عين الهوى عمياء .

وفى الحديث عن ابن سعود رضى الله عنه (إذا أعجبت أحدكم أمرأة فليذكر مناتنها)

والسادس : أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر ، فإنه مامن أحد غلبه هواه إلا أحس بقوة عز ، ومامن أحد غلب هواه إلا وجد فى نفسه ذل القهر .

والسابع : أن يتفكر فى فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل فى الدنيا وسلامة النفس والعرض ، والأجر فى الآخرة . ثم يعكس ، فيتفكر لو وافق الهوى ، فى حصول عكس ذلك على الأبد ، وليفرض لهاتين الحالتين حالتى آدم ويوسف عليهما السلام . فى لقمة هذا وصبر هذا .

ويأيها الأخ النصوح أحضر لى قلبك عند هذه الكلمات ، وقل لى . بالله عليك ، أين لذة آدم التى قضاها ، من همة يوسف التى ماأمضاها ؟

من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة : فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت .

فصل :

واعلم أن الهوى يسرى بصاحبه فى فنون ، ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون .

وقد يكون الهوى فى العلم فيخرج بصاحبه ضد ماأمر به العلم .

وقد يكون فى الزهد فيخرج إلى الرياء .

وكتابنا هذا لذم الهوى فى شهوات الحس ، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا .

وإذ قد ذكرنا فى هذا الفصل من ذم الهوى ماأملاه العقل فلنذكر من ذلك مايحويه النقل .

فصل :

قد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال سبحانه ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾[1] قال المفسرون :

---

(١) سورة النازعات آية رقم : ٤٠

هو نهى النفس عما حرم الله عليها .

قال مقاتل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

وقال عز وجل : ﴿ **واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾[١] وقال : ﴿ **واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[٢] وقال : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾[٣]، وقال : ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله** ﴾[٤] وقال : ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾[٥] وقال : ﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[٦] وقال : ﴿ **ليضلون بأهوائهم بغير علم** ﴾[٧] وقال : ﴿ **أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه** ﴾[٨] وقال : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم** ﴾[٩] وقال : ﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾[١٠] وقال : ﴿ **ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾[١١] .

قال الحسن فى هذه الآية : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : هو المنافق لايهوى شيئا إلا ركبه .

وقال الغريابى بسنده عن الحسن ، قال : المنافق يعبد هواه ، لايهوى شيئا إلا ركبه . وقال أيضا بسنده عن قتادة ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال : إذا هوى شيئا ركبه .

وعن أنس ، أن النبى ﷺ قال (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) أخرجه مسلم[١٢] .

وفى لفظ البخارى (حجبت) مكان (حفت)[١٣]

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل ، يعنى إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاء فنظر إليها وإلى ماأعد الله عز وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحجبت بالمكاره ، وقال ارجع إليها وانظر إليها ، فرجع فإذا هى قد حجبت بالمكاره فقال : لقد خشيت الا يدخلها أحد

---

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٦
(٢) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٣) الفرقان آية رقم : ٤٣
(٤) سورة الروم آية رقم : ٢٩
(٥) سورة محمد آية رقم : ١٦
(٦) سورة القصص آية رقم : ٥٠
(٧) سورة الأنعام آية رقم : ١١٩
(٨) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٩) سورة البقرة آية رقم : ١٢٠ ، ١٤٥
(١٠) سورة النساء آية رقم : ١٣٥
(١١) سورة ص آية رقم : ٢٦
(١٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة حديث رقم ١ ، وأبو داود فى كتاب السنة رقم ٢٢ والنسائى فى كتاب الأيمان رقم ٣ والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ١١٧ ، وأحمد ٢/ ٢٦٠ . .
(١٣) البخارى فى كتاب الرقاق رقم ٢٨ ، وأحمد ٢/ ٣٣٣ ، ٣٧٣

قال : فانظر إلى النار وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها وإلى ماأعد لأهلها فيها ، فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له ارجع اليها فانظر اليها فإذا هى قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح)(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) (أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى أربعينه ، وهو حسن صحيح)(٢) .

ورد عن أبى برده الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن) (أخرجه أحمد والبزار والطبرانى بلفظ إنما أخشى . .)(٣) .

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن ابيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ (إن أخوف ماأخاف على أمتى حكم جائر وزلة عالم وهوى متبع) (أخرجه البزار والطبرانى بلفظ إنى أخاف)

ـ وعن أبى أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(ماتحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع) (أخرجه الطبرانى فى الكبير)(٤) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه) (أخرجه البزار والبيهقى واسناده ضعيف)(٥)

وعن بلال بن أبى الدرداء ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : (حبك الشىء يعمى ويصم) أخرجه أبو داود وأحمد وهو حسن (٦) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ، فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الفقر والغنى . وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه وهى شرهن) (أخرجه البزار والبيهقى)

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجنة رقم ٢١

(٢) الحديث رواه الحكيم الترمذى وأبو نصر السجزى فى الإبانة وقال: حسن غريب، والخطيب عن ابن عمرو . (راجع جمع الجوامع ١/ ٩١٨)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤/ ٤٢٠ ، ٤٢٣

(٤) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة (مجمع الجوامع ١/ ٦٩٩)

(٥) الحديث رواه البزار وأبو نعيم والبيهقى والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى التوبيخ كلهم عن أنس رضى الله عنه ـ قال الحافظ العراقى : سنده ضعيف

(فيض القدير ٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ٣٤٧١ والحديث أوله : ثلاث منجيات . .)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥/ ١٩٤ ، ٦/ ٤٥٠ ، وأبو داود فى كتاب الأدب (عون المعبود ١٤/ ٣٩ باب فى الهوى)

وروى عن الخليل بن خدويه ، قال : مر إبراهيم الخليل عليه السلام فرأى عبدا فى الهواء متعبدا ، فقال له ، بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال : بأمر يسير ، فطمت نفسى عن الدنيا ، ولم أتكلم فيما لايعنينى ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهانى عنه فانتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطانى ، وإن دعوته أجابنى وإن أقسمت عليه أبر قسمى ، سألته أن يسكننى الهواء فأسكننى .

وروى عن وهب بن منبه يقول : كان فى بنى اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان فى البحر ، إذا هما برجل يمشى فى الهواء ، فقالا له : ياعبد الله بأى شىء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسى عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لايعنينى ، ورغبت فيما دعانى إليه ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمى ، وإن سألته أعطانى .

وروى عن منصور بن عمار ، قال : قال سليمان بن داود : الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده .

وروى عن حذيفة بن قتادة المرعنى ، قال : كنت فى المركب فكسر بنا ، فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : أنا عطشى ، فسألت الله تعالىٰ أن يسقيها ، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء ، فشربت . فرفعت رأسى أنظر السلسلة ، فرأيت رجلا جالسا فى الهواء متربعا ، فقلت : من أنت ؟ قال : من الإنس قلت : فما الذى بلغك هذه المنزلة ؟ قال آثرت مراد الله على هواى فأجلسنى كما ترانى .

وروى عن عبد الله بن الصلت ، قال : قال معاوية: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى .

وعن أبى الدرداء ؛ قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

وروى عن مالك بن دينار أنه قال : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق الشيطان من ظله .

وقال أيضا : بئس العبد عبد همه هواه وبطنه .

وروى عن صفوان بن سليم قال : ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه ، ودينه هواه .

وروى عن الأصمعى ، قال سمعت أعرابيا يقول : إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر مايكون الخطأ مع متابعة الهوى .

وروى عن ابن السحال : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك . داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

وروى أنه قال رجل لأبى الحسن المدائنى:ياأبا سعد أى الجهاد أفضل ؟ قال جهادك هواك .

وعن الأصمعى قال : مررت بأعرابى به رمد شديد ودموعه تسيل ، فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : زجرنى الطبيب ، ولاخير فيمن إذا زجر لاينزجر ، وإذا أمر لايأتمر ، فقلت أما تشتهى شيئا ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى ، لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .

وروى عن وهب بن نعيم يقول : قال بشر : اعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك لهواك .

وروى عن الفضل بن عياض يقول : من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق .

وروى عن سنيد : سمعت حجاجا يقول : الكفر فى أربعة أشياء : فى الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ، ثم قال حجاج رأيت منه اثنتين ، رجلا غضب فقتل أمه ، ورأيت رجلا عشق فتنصر .

وروى عن حسين بن حسن الأسدى ، عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت ، فنظر إلى امرأة جميلة ، فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى ... فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت له : دع أحدهما تنل الآخر .

وقد رويت لنا هذه الحكاية على غير هذا الوجه . فبلغنا عن عمر بن شبة بسنده عن أبى غسان أحمد ابن عثمان ، عن أبيه ، قال لقى عبد الله بن حسن امرأة جميلة فى الطواف ، فلما نظرت إليه ، وإلى جماله مالت نحوه وطمعت فيه ، فأقبل عليها وقال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى ... فكيف لى بهوى اللذات والدين

نفس تـزين لى الدنيـا وزينتهـا ... وزاجرى من حذار الموت يثنينى

فتركته ومضت .

وروى عن إسحاق الموصلى قال : قال لى المعتصم ؛ ياإسحاق إذا نصر الهوى ذهب الرأى . .

وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال فى قول-الله عز وجل- ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾[1] قال (صبروا) عن الشهوات .

وروى عن محمد بن محمد بن أبى الورد أنه قال : إن لله عز-وجل-يوما لاينجو من شره منقاد لهواه . وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة . وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفر حظا من يطالبها بقدر مااستصحبته من الصبر . وإن العقل معدن والفكر معول .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها ، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية ، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الفتى .

وقال أيضا : عندما قيل له من أصح الناس عزما ، قال : الغالب لهواه .

وروى عن الوليد بن هشام القحذمى ، قال دخل خلف بن خليفه على سليمان حبيب بن المهلب

(١) سورة الإنسان آية رقم : ١٢

بالأهواز ، وعند سليمان جارية له يقال لها البدر ، من أحسن الجوارى وجها وأكمله ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأت عيناى جارية قط أحسن منها . فقال خذ بيدها .

فقال خلف : ماكنت لأفعل ، ولا أسلبها الأمير وقد عرفت عجبه بها .

فقال : خذها ويحك على عجبى بها ، ليعلم هواى إلى غالب فأخذها بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضلنى عن غير مسألة منى سليمان

أعطانى البدر خودا فى مجاسدها والبدر لم يعطه إنس ولا جان

ولست حقا بناسى عرفه أبدا حتى يغيبنى لحد وأكفان

وروى عن يحيى بن يحيى يقول : قال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى .

وروى عن الحسن بن محمد الجريرى يقول : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد فى الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القود إلى مايكره .

وروى عن ابن عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : من أرضى الجوارح فى اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وروى عن الحسن بن على المطوعى : حتم كل إنسان هواه ، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : لقى عالم من العلماء راهبا من الرهبان ، فقال له كيف ترى الدهر ؟ فقال يخلق الأبدان ، ويجدد الأمال ، ويبعد الأمنية ، ويقرب المنية . قال له : فأى الأصحاب أبر ؟ قال العمل الصالح . قال : فأى شىء أضر ؟ قال النفس والهوى .

وروى عن ابن أبى الحوارى قال : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له أنت عليل ؟ قال : نعم قلت منذ كم ؟ قال منذ عرفت نفسى قلت فتداو قال : قد أعيانى الدواء وقد عزمت على الكى . قلت : وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى .

وروى عن الأصمعى والعتبى ، قالا سمعنا أعرابيا يقول : ماأشد تحويل الرأى عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق من جنسه ، وإنما يعرف ماأقول من أبكته المنازل والطلول .

وروى عن بشر بن الحارث يقول : (لاتجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)

وروى عن أبى سليمان الدرانى : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس .

وروى عن السرى يقول : (لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)

وروى عن أحمد بن خضرويه : لانوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة .

وروى عن يوسف بن الحسين : عين الهوى عوراء .

وروى عن أبى بكر الوراق أنه قال : أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيما .

وروى عن أبى على الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، وقال ليس شيء أولى بأن تمسكه من نفسك ، ولا شيء أولى بأن تغلبه من هواك .

وروى عن على بن سهل : العقل والهوى يتنازعان ، فمعين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر كانت فى خيره .

وروى عن أبى الحسين الوراق ؛ يقول الشهوة أغلب سلطان على النفس ، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج .

وروى عن ابراهيم القصار : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوى على ردها .

قال السلمى بسنده قال المرتعش ، وقيل له:إن فلانا يمشى على الماء فقال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشى على الماء .

أنبأنا أحمد بن احمد المتوكلى قال : أنبأنا احمد بن على بن ثابت ، قال:عن أبى بكر بن ابى الدنيا قال : بلغنى أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء : العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه ؟ فقال الحكيم : بإغفال الحذر وبسط أمد الأمل وبعسى وسوف ولعل ، قال الملك : بم يعتصم من الشهوة وقد ركبت فى أبدان ضعيفة ، ففى كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن ؟ قال الحكيم : إن الشهوة من نتاج الفكر ، وقرين كل فكرة عبرة ، ومع كل شهوة زاجر عنها ، فمن قرن شهواته بالاعتبار ، وحاط نفسه بالازدجار ، انخلت عنه ربقه العدوان ، ودحض سيء فكره بإيثار الصبر على شهوته لما يرجو من ثواب الله على طاعته ويخاف من عقابه على معصيته .

قال بشر الحافى لحسن الفلاس : من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب ، واعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك إياه .

وقد حكى عن أنو شروان أنه سئل : أى الأشياء أحق بالاتقاء ؟ فقال أعظمها مضرة : قيل فإن جهل قدر المضرة ؟ قال أعظمها من الهوى نصيبا .

وقيل للمهلب بن ابى صفرة : بم نلت مانلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .

وقال بشر الحافى لقيت عليا الجرجانى بجبل لبنان على عين ماء ، فلما بصر بى قال بذنب منى لقيت اليوم إنسانا فسعيت خلفه ، وقلت أوصنى فالتفت إلى وقال : أمستوص أنت ؟ عانق الفقر وعاشر

الصبر ، وعاد الهوى وعف الشهوات ، واجعل بيتك أخلى من لحدك يوم تنقل إليه على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل .

قال أبو على الدقاق : من ملك شهوته فى حال شبيبته صيره الله ملكا فى حال كهولته كيوسف عليه السلام ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوج فهو لعاب وقال أعرابى لابنه : يابنى من خاف الموت بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات والجنة والنار أمامك .

وقال بعض الحكماء : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه

وقال آخر : العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله .

وقال آخر : الهوى ملك عسوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .

وقال آخر : النفس اذا هويت شيئا مالت إليه ، حتى تكون عند الذى هويت أكثر من كونها عند جسدها .

وقال آخر : ان لكل شىء أبا جاد إن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال .

أشعار قيلت فى دم الهوى

دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب فى حيطانها بفحمة :

ماأرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئا أو مصيبا .

فرأى ذلك البيت عبد الله بن على فكتب تحته .

إن كنت تعلم حين تصبح آمنا ... ان المنـايـا إن أقمت تقيم

فالزم هواك كما رضيت فإنه ... لامثل ذلك فى النعيم نعيم .

وقال آخر :

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل ... من الناس مرغوب إليه وراغب

ومايستوى الصابى ومن ترك الصبا ... وإن الصبا للعيش لولا العواقب

عن الأصمعى قال سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هو ان سرقت نونه

فنظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

عن أبي بكر القرشي قال : انشدنى الحسن بن سلمان الأبلى :

كم أسير لشهوة وقتيل أف للمشتهى خلاف الجميل
شهوات الانسان تورثه الذل وتلقيه فى البلاء الطويل

وأنشد آخر :

رب مستور سبته صبوة فتعرى ستره فانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار الملكا .

وقد أنشدوا لابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة الا يرى لك عن هواك نزع
العبد عبد النفس فى شهواته والحر يشبع تارة ويجوع .

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر :

خير مااجتن به المرء التقى فاتخذها عدة دون العدد
وأرى الشهوة مفتاح الردى فاجتنيها وانأ عنها وابتعد

ولصالح بن عبد القدوس :

عاص الهوى ان الهوى مركب يصعب بعد اللين منه الذليل
ان يجلب اليوم الهوى لذة ففى غد منه البكا والعويل
مابين مايحمد فيه وما يدعو إليك الذم إلا القليل .

ولابن الرومى .

اتبع العقل إنه حاكم الله ولاتمشى فى طريق عناده
ماالهوى فى لفيفه ان تأملت بقرن للعقل فى أجناده
لاتعرض سداد رأيك للطعن عليه من ناقص فى سداده

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى الى بعض مافيه عليك مقال

وقال غيره

وأترك الشيء أهواه ويعجبنى أخشى عواقب مافيه من العار

وقال غيره :

إن المرآة لاتريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لاتريك عيوب نفسك مع هواها
وقال آخر

وكل امرىء يدرى مواقع رشده ولكنه أعمى أسير هواه
يشير عليه الناصحون بجهدهم فيأبى قبول النصح وهو يراه
هوى نفسه يعميه عن قصد رشده . ويبصر عن فهم عيوب سواه

وصايا ومواعظ وزواجر

عن الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن ابى كثير ان ابا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاة الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ اين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا النجا النجا .

وعن ابن مسعود أنه كان يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك ان يحصد ندامة ولكل زارع مازرع .)

عن ابى زكريا التيمى قال بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام اذ اتى بحجر منقور فطلب من يقرأه فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك ، لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك فبان منك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

كتب الأوزاعى إلى أخ له : أما بعد ، فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وان يكون آخر عهدك به والسلام .

عن الفضيل بن عياض قال : بلغنى أن رجلا كتب إلى داود الطائى أن عظنى بموعظة قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد . والسلام .
قال : فكتب إليه : زدنى فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

عن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنه ليست عقوبتى لمن عرفنى واجترأ علىَّ كمن لم يعرفنى .

وعن أبى بكر محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن حاتم الترمذى يقول : رأس

مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالايعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله .

عن ابراهيم بن بشار يقول مررت أنا وأبو يوسف الغولى فى طريق الشام فوثب إليه رجل فسلم عليه ثم قال :

ياأبا يوسف عظنى بموعظة أحفظها عنك

قال فبكى ثم قال :

اعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغى لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أو راض عنك بفضله ورحمته،ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس ، وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا ، فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكيت لبكائهما ووقعا مغشيا عليهما .

ووعظ اعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ، ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك وأحب أمريك اليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء الى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

عود إلى رحاب التفسير

قوله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

ونحوه قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدى ، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثرون يدعونهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولايهتدون ولايفرقون بين مايضرهم وبين ماينفعهم .

والأنعام تفرق بين مايضرها من النبات والطريق ، فتتجنبه ، وماينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار ، فهم أضل من البهائم ، فإن من لايهتدى إلى الرشد

---

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩

وإلى الطريق مع الدليل إليه ، هو أضل وأسوأ حالا ممن لايهتدى ، حيث لادليل معه .

من آيات الله الكونية

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر .

إلى ربك : أى الى صنعه .

مد : بسط

الظل : مايحدث من مقابله جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها .

ساكنا : اى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لايزول ولا تذهبه الشمس .

دليلا : أى علامة .

قبضناه : أى محوناه

يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها .

سباتا : من السبت وهو القطع لانقطاع التعب فيه أو لانقطاع الحياة الكاملة .

والنشور : البعث

بشرا : (تخفيف بشر بضمتين) واحدها بشور كرسل ورسول اى مبشرات .
والرحمة : المطر بين يديه : اى قدامه
طهورا : اى يتطهر به البلدة : الأرض
والميت : التى لانبات فيها
الأنعام : الأبل والبقر والغنم وخصها بالذكر؛لأنها ذخيرتنا ومعاش أكثر أهل المدر منها .
أناسي : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء)
صرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة الى بلدان متعددة
ليذكروا : أى ليعتبروا . كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها
نذيرا : اى نبيا ينذر أهلها .
والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها
فرات : اى مفرط العذوبة .
أجاج : أى شديد الملوحة . برزخا . . أى حاجزا،حجر محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولايفسد الملح العذب
نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم وإناثا يصاهر بهن .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ انظر أيها المخاطب العاقل إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها .

﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لايتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة وطرق حكيمة منوعة ، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة ، فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شيء مثله عند الائمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لايجب إلا إذا بلغ ظل كل شيء مثليه .

﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس

والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة ماعرف النور .
﴿ **ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا** ﴾ أى ثم أزلناه بضوء الشمس يسيرا يسيرا ، ومحوناه على مهل جزءا فجزءا بحسب سير الشمس ، يقول العلامة ابن القيم فى تفسير هاتين الآيتين :

أخبر تعالى أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ، ولو شاء لجعله ساكنا لايتحرك ، إما بسكون المظهر له والدليل عليه ، وإما بسبب آخر .

ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا ، وهو شيء بعد شيء ، لم يقبضه جملة ، فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته .

فندب سبحانه الى رؤية صنعته وقدرته وحكمته فى هذا الفرد من مخلوقاته ، ولو شاء ربنا لجعله لاصقا بأصل ماهو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره ، فلم ينتفع به أهله ، فإن كمال الانتفاع به تابع لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ، وفى مده وبسطه ثم قبضه شيئا فشيئا : من المصالح والمنافع مالايخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئا فشيئا لازم لحركة الشمس على ماقدرت عليه من مصالح العالم .

وفى دلالة الشمس على الظلال . ماتعرف به أوقات الصلوات وما مضى من اليوم ومابقى منه .

وفى تحركه وانتقاله : مايبرد ماأصابه حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من الآيات الدالة عليه وفى الآية وجه آخر : وهو انه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض من تحتها ، فألقت القبة ظلها عليها ، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا فى تلك الحال ، ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل ، فهو يتبعها فى حركتها يزيد بها وينقص ، ويمتد ويقلص ، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله .

وفيها وجه آخر : وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهى الأجرام التى تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر اعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله : ﴿ **قبضناه إلينا** ﴾ كأنه يشعر بذلك .

وقوله ﴿ **قبضا يسيرا** ﴾ يشبه قوله ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **قبضناه** ﴾ بصيغة الماضى لاينافى ذلك كقوله تعالى :
﴿ **أتى أمر الله** ﴾[2] والوجه فى الآية هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا** ﴾ .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على قدرته ورحمته ، فقد شاء سبحانه أن يجعل الليل بظلمته لباسا ساترا ، وأن يجعل النوم سباتا قاطعا لمتاعب النهار ، فتنامون فيه كما تموتون ، وكما قال ﷺ : (والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا) . سبحانك ربى من قائل : ﴿ وهو الذى

(١) سورة ق آية رقم : ٤٤
(٢) سورة النحل الآية رقم ١

يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾(١) وإذا كان الليل والنهار آيتين من آيات الله ، فإن الله جل جلاله يتحدى بهما كل من على وجه الأرض من معاندين ومكابرين وجاحدين **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾**(٢) .

سبحانك من قائل : **﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴾**(٣) سبحانك من حكيم جعلت الليل والنهار مطيتين إلى الآخرة فالعاقل من أحسن استعمالها .

نموت وأيامنا تذهب ... ونلعب والموت لايلعب
عجبت لذى لعب قد لهى ... عجبت ومالى لاأعجب
أيلهو ويلعب من نفسه ... تموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار ... ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا ... وليس لنا منهما مهرب
وكل له مدة تنقضى ... وكل له أثر يكتب

إن الله تعالى جعل النوم قطعا لمتاعب النهار ولذا فإن النوم نعمة من نعم الله قال عز من قائل :
﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾(٤)
ماذا قالوا عن النوم :
قالوا: إن النوم طرح روحى مؤقت وقالوا :
لقد دامت أبحاث العلم والطب وقتا طويلا ، لتجد تعليلا لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث فى النوم بعد أن عجز العلم عن بيان الأسباب الدافعة المباشرة للنوم . . فقيل إن النوم رغبة جامحة للراحة تنتاب المرهق المتعب ، ونفى ذلك أن غير المتعب ينام أيضا وتنتابه الرغبة فى النوم ، مثل المكدود فى مواعيد متقاربة ، بل إن من قضت عليه الظروف بالراحة فى الفراش أياما أو شهورا أو أعواما ينام كذلك فى ساعاته المعهودة . . بالرغم من الراحة الجسدية التى حتمتها عليه ظروف وجوده فى الفراش ،

(١) سورة الأنعام الآيات/ ٦٠ - ٦٢
(٢) سورة القصص الآيات/ ٧١ - ٧٣
(٣) سورة النبأ الآيات - ٦ - ١١
(٤) سورة الروم الآية رقم/ ٢٣

وفى ذلك يقول الدكتور هريوارد كارنجتون عضو جمعية البحوث النفسية .

قدم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها ، ولم يكن من بينها واحدة ملائمة تفى بالغرض مثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية ، تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد ، وترمى بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة فى دورة المخ الدموية . ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة . وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلى ، ولكن هذه النظريات كلها عجزت فى الواقع عن تفسير الحقائق ، التى لاشك فى أنها وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم » .

وقد عد العلماء أن ماوصل إليه العلم من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، نصرا مابعده من نصر ، إذ أمكن تفسير الأحلام التى يراها الإنسان فى نومه ، فيتحقق منها بعد يقظته طالت المدة أو قصرت ، وأمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة أو أشخاص لم يسبق له رؤيتهم ، فإذا مازار هذه الأمكنة أو التقى بهؤلاء الناس عرفهم فورا ، وتعجب من دقة وتطابق للحالتين ، حالة الرؤيا فى النوم والمشاهدة فى اليقظة .

وكان أول من قال إن من دلائل انسجاب الروح فى النوم ، ماتقوم به من سياحات أثناء النوم ، فيراها النائم كأنها حلم وأثبت ذلك الدكتور هدسون تتل إذ يقول فى كتابه (أسرار الروحية) إن سيدة ولدت عمياء استطاعت فى أحلامها أن ترى الأشياء بوضوح وأن تصفها بدقة ، ولما توفيت شرحت جثتها عقب وفاتها وظهر من التشريح أن أعصاب البصر عندها كانت ميتة .

ويقول الدكتور جورج لندسى جونسون إنه أجرى عملية جراحية فى عين فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قط رأت شيئا ألبتة ، ولكنها لما شفيت ورفعت الأربطة ، تبينت شكل كل فرد فى الحجرة وملبسه ، واستطاعت أن تميز بين الألوان المختلفة ، مما يؤكد أن روحها كانت تنطلق فى منامها فترى مالم تستطع أن تراه بعينها .

وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها فى أحلامهم ، مثل الموسيقار أرثر سيمور سوليفان الذى ألف أغنيته المشهورة « النور الضائع » فى نومه وجوسيب ثارثينى الذى يقول إنه سمع فى نومه كأن الشيطان يغنى ، فما أن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه « أغنية الشيطان » .

والرياضى المعروف هنرى بوانكارية ، رأى معادلات جبرية أدت إلى استكشافه قانونا هاما رياضيا .

ولعل من الأحلام التى رددت الأوساط صداها كثيرا ، تلك الرؤيا التى نشرت فى عدة كتب وطبعت بأكثر من لغة وفيها : « كان فى الصحراء . . فى جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة كلاهما تلقى العلم فى أرقى الجامعات وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لاصديق له . . نفد الماء وعلف الدواب ومعهما رجال من الأدلاء والحراس ، والعمران قصى بعيد والاتجاه فى أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق فى جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا إليها طريقا غير

مسلوك . نزل بها الهم وأخذ منها ومن رجالها القنوط ، فأنيمت الإبل وجلست القافلة فى ذلك القفر ، لا مؤنس لها : إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لامحالة ، فإما طريق إلى الدنيا وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلما وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوما من أيام حياتهم وحلم بامرأة بيضاء أو تلبس البياض لم يستطع أن يصفها قالت له :

« خذ السلسلة التى تعلقها فى عنقك ، وتعال معى إلى قمة هذا الكثيب ، ثم ادفنها هناك ، وفى الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى آثار قدميك وقدمى معا ، وبذلك تعرف الطريق » وفعل السيد كما أمر .

وفى الصباح نهض من نومه ، وتذكر الحلم فاصطحب السيد رفيقة سفره ورجاله ، وأراهم آثارها آقدام ذاهبة إلى الكثيب ثم هابطة . واحتفر فى المكان الذى رآه فى نومه فوجد ثم تابع الأقدام فوجد المكان المأهول الذى نجا هو والقافلة بالعثور عليه » .

أما السيد فهو المرحوم أحمد محمد حسنين أما السيدة فالجوالة روزينا فوربس صاحبة الكتاب . والأمثلة التى تشابه ذلك لاتقع تحت حصر ، بل إن كل فرد لابد قد رأى فى نومه حلما تحقق ، وبهذا أمكن إثبات أن النوم إنما هو حالة طرح روحى مؤقت ، والرؤيا ماهى إلا سياحة بالروح إلى حيث شاء الله .

وقبل ذلك بمئات السنين يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن النوم فتقول الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

فجعل النوم كالموت أى طرح روحى يكون دائما حين الموت ومؤقتا فى النوم .

والقرآن الكريم أول كتاب كذلك ذكر النوم بالنهار فالآية ٢٣ من سورة الروم نصها :

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

وظل موضوع النوم فى النهار موضع جدل حتى وصل العلم والطب إلى ماقرره القرآن الكريم ، إذ ينصح مدير التربية البدنية فى جامعة ييل تلاميذه نصيحة خالدة نصها « عليك فى الظهر نسبة من النوم » .

ويقول داى جيلز فى مجلة « تدهوفر » أما وقد بلغ الإرهاق كل مبلغ بالأجسام والعقول والأرواح ، فقد آن الأوان لإعادة النظر فى خطة بسيطة تزيدنا مقدرة على العمل وشعورا بالراحة وتلك هى أن يغفو الإنسان غفوة كل يوم .

لقد اتفق الأطباء على أن هذه الغفوات التى تتخلل النهار تدفع الكلال وتخفض ضغط الدم حوالى ١٥ ـ ٣٠ ملليمترا وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب .

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٢

وقد لوحظ أن الإغفاء قبل القيام بأى مجهود بدنى أو عقلى أو بعده يصنع العجائب بالنسبة للإنتاج العضلى والذهنى وللحالة الصحية عامة .

ولقد سئل ديبو عضو الشيوخ الأمريكى والخطيب المشهور كيف يستطيع أن يتكلم عدة ليال فى الأسبوع ، ويقوم مع ذلك بعمله المرهق أثناء النهار فأجاب « إنى أعامل مصرفا للنوم ماأسحب من رصيدى فيه شيئا بالسهر إلا أودعت فى نفس اليوم وديعة أخرى فيظل رصيدى تام التوازن على الدوام » .

وقد أكد الدكتور أدموند جاكوبسون الذى ألف كتابيه عن « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » والذى ظل عدة سنين مديرا لمعامل الفسيولوجيا الإكلينيكية بجامعة شيكاغو حقيقة وجوب النوم أثناء النهار .

ويقول ديل كارنيجى فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » . لقد استطاع جون د . روكفلر الأب أن يضرب رقمين قياسيين الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين ، فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة .

أما السبب الثانى فهو اعتياده الإغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى غرفة مكتبه ، فكان يستلقى على أريكته فى غرفة المكتب ويستسلم للراحة التامة . . »

ويتابع قوله إذا تعذر عليك أن تغفو ظهرا فإنك على الأقل تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء فإذا نمت ساعة فى اليوم فإنك بذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك .

لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلا تجعل المجموع سبع ساعات أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلا .

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ أى والله الذى أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار .

﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتنتفعون به فى طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى ﷺ قال فى البحر : (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى[١] .

(لنحيى به بلدة ميتا) أى وأنزلناه لنحيى به أرضا طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الطهارة ٤١ ، والترمذى فى أبواب الطهارة/٥٢ ، والنسائى فى كتاب الطهارة/٤٦ ، وفى المياه/ ٤ ، وفى كتاب الصيد/ ٣٥ ، وابن ماجه فى أبواب الطهارة/ ٣٨ ، وفى أبواب الصيد/ ١٨ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الطهارة/ ١٢ ، وفى كتاب الصيد/ ١٢ ، والدارمى فى كتاب الوضوء/ ٥٣ ، وفى كتاب الصيد/ ٦ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٢٣٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣/ ٣٧٣ ، ٥/ ٣٦٥

ونحو الآية قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[١] وقوله : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾[٢] .

﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ، وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما فى حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا مايكون منه سقياهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[٣] .

وقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٤] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾[٥] .

وقوله جل شأنه ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلال وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[٦] .

وقوله جل جلاله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[٧] .

وقوله جلا جلاله : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾[٨] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾[٩] .

فى رحاب الآيات نعيش مع الحقائق العلمية والعلم يدعو إلى الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[١٠] .

كتب الدكتور جمال الفندى فى كتابه (القرآن والعلم)

تحت عنوان : الطبيعة الجوية والقرآن . . دورة الرياح العامة وتوزيع السحاب والمطر .

---

(١) سورة الحج آية رقم/ ٥
(٢) سورة الروم آية رقم/ ٥٠
(٣) سورة الأعراف آية رقم/ ٥٧
(٤) سورة الروم آية رقم/ ٤٦
(٥) سورة الروم الآيات رقم/ ٤٨ - ٥١
(٦) سورة النور آية رقم/ ٤٣
(٧) سورة فاطر آية رقم/ ٩
(٨) سورة الرعد آية رقم/ ١٢
(٩) سورة الشورى آية رقم/ ٢٨
(١٠) سورة فصلت آية رقم/ ٥٣

يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومآأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

ويتضمن توزيع الرياح على الأرض فى طبقات الجو المختلفة ومن ثم صعودها أو هبوطها وإثارتها للسحب الممطرة ، موضوع دراسات واسعة المدى من الناحيتين الديناميكية والطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الحديثة لم تكتمل بعد ، فإننا سنلخص أهم النتائج العلمية التى تم التوصل إليها لنلمس أهميتها وعمق ماتشير إليه الآية الكريمة .

فمن حيث طبقات الغلاف الجوى كانت معظم معلوماتنا عنه حتى عهد قريب - قبل عصر الفضاء - إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم (التروبوسفير) أو منطقة التغير باستخدام البالونات أو الطائرات التى قلما تصل إلى علو يزيد على ٣٠ ميلا ثم الطبقة التى تعلوها وهى (الأوزونوسفير) أو منطقة تجمع الأوزون باستخدام أجهزة قياس تجمع الأوزون فى الاتجاه الرأسى (يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين) .

وتكون (الأوزونوسفير) الجزء السفلى من طبقة (الستراتوسفير) أو المحيط ذو الطبقات .

وهى الآن تدرس بالصواريخ كذلك ويلى (الستراتوسفير) من أعلى طبقة متأنية هى (الأيونوسفير) التى يتواجد فيها الأكسجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التأين الذى يحدد عمليا درجات تركيز الكهارب على الارتفاعات المختلفة داخل (الايونوسفير) ، تتكاثر هذه الكهارب فى طبقات معينة تعرف علميا باسم طبقات (هفينسيد) وهى التى تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف الفجر القطبى وهو ظاهرة ضوئية تحدث فى أعالى الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلو متر ويطلق عليه الفرنجة اسم (الأورورا) وهو لايشاهد عادة إلا بالقرب من قطبى الأرض .

ويبلغ ارتفاع الطبقة السفلى (التروبوسفير) نحو ١٨ كيلو مترا عند خط الأستواء ، ٨ كيلو مترا فقط عند القطبين .

وتحدث كافة التقلبات الجوية فى هذه الطبقة : ففيها تثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير .

ومن أهم صفاتها الطبيعية أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر .

وعلة ذلك أن مصدر الحرارة فى هذه الطبقة هو سطح الأرض ، بما يكتسب من الإشعاع الشمسى . ولقد قدر بالقياسى والحساب أن نحوا من ٣٠ فى المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم فى تبخير المياه من الأسطح المائية ، ويتحول إلى حرارة كامنة فى البخار العالق فى الجو ، وتنطلق هذه الحرارة الكامنة كلها فى طبقة (التروبو سفير) عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب ومطر .

وترتفع درجة الحرارة فى طبقة (الأوزونوسفير) نظرا لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس .

وتصل درجة الحرارة أقصى ارتفاع لها عند علو نحو ٥٠ كيلو مترا .

وحديثا أطلق على الجزء العلوى من (الستراتوسفير) اسم (الميزوفير) أو الكرة الوسطى . وفى هذه الطبقة لاتكفى كثافة الأوكسجين لتكوين الأوزون ، ولذلك تنخفض درجة الحرارة كلما صعدنا قدما إلى أعلى حتى تصل أقل قيمة لها فى جوالأرض على ارتفاع نحو ٨٠ كيلو مترا ، وبعد ذلك يلعب الأوكسجين الذرى الموجود فى الجو العلوى دورا هاما فى امتصاص بعض الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس ، فيسبب تسخين تلك الطبقات من جديد .

ولهذا تعرف مشارف الهواء العلوى كذلك باسم (الثيرموسفير) أو المحيط الحرارى . وفوق (الثيرموسفير) منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها كثافة الهواء إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى .هذهالمنطقة هى(الأكوسفير) أو المحيط الخارجى .

وليست هناك أية حدود معينة عليا لهذه الطبقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفضاء الكونى القريب وهو نحو ١٠٠ جسيم مثلا لكل سنتيمتر مكعب .

ولقد دلت عمليات الرصد الجوى على سطح الأرض خلال العديد من السنين على مساحات واسعة أن الرياح إنما تتبع فى سيرها قواعد معينة تجعلها توزع على الأرض بطريقة خاصة فى المتوسط هى الدورة العامة .

ولما كان الدافع للهواء على الحركة هو اختلاف الضغط الجوى أو كثافة الهواء من مكان لآخر ، فانه من الطبيعى أن نجد توزيع الرياح على الأرض مرتبطا بتوزيع الضغط الجوى ، وهذا الأخير يرتبط بتوزيع درجات الحرارة التى هى المحدد الأول لكثافة الهواء على الأرض .

ومن البديهى أن تتواجد درجات الحرارة العظمى (والكثافات والضغوط المنخفضة) فى المناطق الاستوائية عموما ، كما تتواجد درجات الحرارة المنخفضة (والكثافات الكبيرة والضغوط العالية) . فى المناطق الباردة وخاصة داخل القارات فى الشتاء وحول القطبين .

وتهب الرياح بميل حول خطوط الضغط المتساوى (الأيسوبارز) إلى مناطق الضغط المنخفض متدفقة من مناطق الضغط العالى ، متبعة فى قاعدة عامة هى :

« فى نصف الكرة الشمالى تدور الرياح حول خطوط الضغط المتساوى منحرفة نحو الضغط المنخفض بحيث تكون هذه المراكز على يسارها وتكون مراكز الضغط العالى يمينها ، ويحدث العكس فى نصف الكرة الجنوبى »

وتبعا لذلك نجد أن للرياح (دورة عامة) من أهم مظاهرها :

أولا : توجد حول خط الاستواء منطقة ضغط خفيف وتتركز هذه المنطقة عادة شمال خط الأستواء بقليل ، كما أنها تتذبذب صوب الشمال أو الجنوب متبعة فى ذلك الوضع الظاهرى للشمس .

ثانيا : يحد هذه المنطقة من شمالها ومن جنوبها منطقتان من الضغط العالى (مابين خطى عرض ١٥ درجة و ٣٠ درجة شمالا وجنوبا) .

وهما يظهران بوضوح وجلاء فوق المحيطات ، وخاصة فى نصف الكرة الجنوبى حيث يقل اتساع اليابس نسبيا عما هو عليه فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف المنطقتان عادة باسم (ركاب الخيل) ويهب من كل منها هواء يتجه إلى مناطق الضغط الخفيف حولها وينحرف هذا الهواء تجاه الغرب أثناء سيره إلى منطقة الضغط الخفيف عند خط الاستواء فيغطى الرياح الشمالية الشرقية فى نصف الكرة الشمالى ، والرياح الجنوبية الشرقية فى نصف الكرة الجنوبى . وتعرف هذه الرياح عندنا باسم (الرياح التجارية) .

ثالثا : - الأهوية التى تتجه إلى القطبين تنحرف صوب الشرق بحيث تصير جنوبية غربية فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف باسم (الغربيات السائدة) .

وشمالية غربية فى نصف الكرة الجنوبى وهى شديدة السرعة . وتميل الضغوط الجوية إلى الهبوط والتناقص فى مناطق هبوب الغربيات السائدة . وذلك نظرا لما يتولد فيها من آن لآخر من عواصف محلية واضطرابات جوية متجولة تعرف باسم (الانخفاضات العرضية) هذه الانخفاضات تتتابع فى سلسلة تجعل توزيع الضغط العام يهبط نسبيا داخل مناطق هبوب الغربيات السائدة بينما تظل مناطق القطبين عالية الضغوط نظرا لبرودتها وهبوط الهواء فيها من أعلى .

رابعا : - تكون منطقة كل قطب أشبه شىء بطاقية من الضغط العالى الذى تنطلق منه غالبا رياح شرقية تتجه إلى مناطق هبوب الغربيات السائدة .

نرى مما سبق أن الرياح التجارية ريح شرقية عموما ، تهب بشدة على المحيطات حيث تكون أثبت أنواع الرياح على الأرض ، وهى تلعب دورا هاما فى توزيع طاقة الاشعاع الشمسى التى تصل المحيطات كما أنه لاينتابها إلا بعض الاضطرابات التى تكون فى صورة أمواج تسبب من آن لآخر ظهور نكباء المناطق الحارة التى طالما هذدت السفن وسببت الرعب للملايين فى مختلف العصور .

أما داخل القارات فإن حزام الرياح التجارية كثيرا ما يتقطع ويصبح غير متصل كما أن أهويتها تكون جافة ولهذا تكثر فى مناطق هبوب التجاريات الصحارى والقفار مثل الصحراء الكبرى وصحراء الغرب .

أما الغربيات السائدة فهى غير ثابتة ، تتغير شدتها واتجاهاتها تبعا لحالة الجو المحلية ، فقد تصبح جنوبية شرقية أو جنوبية أو جنوبية غربية أو حتى غربية .

وفى المحيط الأطلسى تدفع الغربيات السائدة معها مياه البحر الدافئة من مناطق ركاب الخيل إلى شواطىء غرب أوروبا حتى خط عرض نحو ٨٠ درجة شمالا .

ونظرا لهبوبها من مناطق ساخنة نسبيا إلى أخرى أبرد فهى رياح ممطرة ، ذلك لأن تبريد الهواء أو انخفاض درجة حرارته هو السبب فى حمل أبخرة الماء العالقة فيه على التجمع والتكاثف أو التحول إلى نقط من الماء تكون السحب والأمطار ونحوها .

وتتذبذب منطقة الغربيات السائدة أيضا صوب الشمال أو الجنوب تبعا للوضع الظاهرى للشمس فهى فى فصل الشتاء تغمر منطقة البحر الأبيض المتوسط ومصر وتصيبها بأمطار شتوية .

وتتابع الانخفاضات العرضية (وهى مناطق الضغط المنخفض التى تتولد تباعا على شمال الأطلسى فى مناطق هبوب الغربيات السائدة وتسير من الغرب إلى الشرق وتدور حولها الأهوية فى سلسلة تغمر المنطقة كلها بمتوسطات من الضغوط الخفيفة فتقبل إليها الرياح من الشمال والجنوب)

ولعل هذا هو السبب فى عدم اقتحام هذا المحيط حتى عهد قريب نسبيا .

أما المحيط الهندى وبحر العرب فتجتاحهما فى أشهر الصيف رياح موسمية جنوبية غربية تبدأ من نصف الكرة الجنوبى (جنوب خط الاستواء) كرياح جنوبية شرقية تنحرف إلى جنوبية غربية بعد عبورها خط الاستواء وتستمر لكى تغذى انخفاض الهند الموسمى الصيفى وانخفاض السودان الصيفى المعروفين »

وفوق منطقة الركود تلتقى الرياح التجارية المقبلة من الجنوب والشمال فتصعد إلى أعلى مثيرة السحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الاستوائية . وعند حوالى خطى عرض ٣٠ درجة شمالا وجنوبا تهبط الرياح من أعلى فترتفع درجة حرارتها ولاتثار السحب وتنشأ الصحارى المدارية .

وحول خطى عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا تلتقى الغربيات السائدة مع الشرقيات القبلية فترتفع مثيرة للسحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الصنوبرية .

أما على القطبين فإن الهواء يهبط من أعلى ولاتتكون السحب ، وبذلك تنشأ الصحارى الجليدية .

وهكذا نرى أن تصريف الرياح أو توزيعها إنما يتبعه توزيع السحب العام على الأرض ، ومن ثم الأمطار التى تتحكم فى عالم النبات ويضطرب الجو فى مناطقنا والمناطق المعتدلة مثل حوض البحر المتوسط وأوروبا تحت تأثير مرور ماعرفناه علميا باسم الانخفاضات العرضية التى سبق ذكرها .

والانخفاض العرضى عبارة عن جزء من الجو ينخفض فيه الضغط الجوى انخفاضا كبيرا بحيث تحدث ذبذبة فى الضغط كثيرا ماتفوق سعتها سعة التغيرات السنوية ، إذ قد تصل السعة إلى ٥٠ مللبيار فى المركز . والانخفاض لايثبت بعد تكوينه فى مكان واحد إلا نادرا وتحت ظروف خاصة ، والعادة أنه يسير من الغرب إلى الشرق (فى نصف الكرة الشمالى) وتصحبه أثناء سيره التقلبات الجوية التى تتكرر فى كل مكان بتكرار مرور هذه الانخفاضات .

وتتفاوت الانخفاضات العرضية من حيث الاتساع والعمق ، فمن حيث الاتساع تتراوح أقطارها مابين ٣٠٠٠ كيلو متر إلى مالايزيد قطره على ٣٠٠ كيلو متر . أما من حيث العمق فقد يهبط الضغط فى مركز الانخفاض إلى ٩٣٠ مللبيار وقد يظل عند ١٠٠٠ مللبيار ، ولايدل عمق الانخفاض على شدته ، وإنما ترتبط شدة الدورة حول الانخفاض ارتباطا وثيقا « بتدرج الضغط » (أى تقارب خطوط الضغط من بعضها) وفى العادة يبلغ تدريج الانخفاض فى المتوسط نحو ٥ مللبيار لكل ١٠٠ كيلومتر ويزداد فى الانخفاضات النشطة إلى ١٥ مللبيار لكل ١٠٠ كيلو متر ، ويمتد تأثير بعض هذه الانخفاضات أحيانا

من بحر البلطيق شمالا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا وتدور الرياح حول هذه الانخفاضات فى اتجاه مضاد لعقارب الساعة .

ولدراسة الانخفاض من حيث تولده وتحركه ثم امتلاؤه بعد ذلك ، ولإمكان عمل التنبؤات الجوية ، ترسم خزائط الطقس ، وهى خرائط عادية تبين مواقع محطات الرصد وتوقع عليها عناصر الجو لكل محطة ثم ترسم عليها خطوط الضغط المتساوى ، ويتكرر ذلك فى ساعات معينة كل يوم وفقا بالنظام الدولى الخاص بالأرصاد .

وترسم خطوط الضغط المتساوى بحيث تتفاوت عن بعضها البعض بمقدار ٢ أو ٤ أو ٥ ملليبارات وتتحدد بذلك مناطق الضغط الخفيف أو الانخفاضات وترسم أيضا إلى جانب ذلك خرائط الجو العلوى وهو تبين توزيع الضغط والحرارة على ارتفاعات معينة وتفيد فى أعمال التنبؤ إذ أنها لاتتأثر فيها العناصر الجوية مثل درجة الحرارة واتجاه الرياح وسرعتها بالعوامل المحلية .

وهناك عدة نظريات تشرح تولد الانخفاض العرضى ، ومن أهم هذه النظريات ، وأقربها للحقيقة والواقع ، وأعمها شيوعا نظرية الجبهة القطبية ، وهذه الجبهة هى السطح التخيلى الذى يفصل الغربيات السائدة عن التيارات القطبية الشمالية الشرقية . وتتكون نواة الانخفاض فى بادىء الأمر فى صورة التواء أو تنوء فى هذه الجبهة وينمو هنا النتوء على غرار نمو الدوامات تقريبا ويبدأ الانخفاض مثلا بسطح مستو يفصل بين تيار شمالى شرقى بارد وآخر جنوبى غربى ساخن نسبيا ثم يندفع الهواء الساخن داخل التيار البارد فى صورة نتوء لايلبث أن ينمو مكونا القطاع الساخن أى حوض الهواء الساخن المتجمع داخل الهواء البارد نسبيا . وتبعا لذلك تلتوى الجبهة الفاصلة بين الكتلتين فى صورة موجة يتميز نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بمميزات معينة ، ويسمى النصف الأمامى الجبهة الساخنة والنصف الخلفى الجبهة الباردة . ونقطة تلاقيهما هى مركز الانخفاض . ويتحرك مركز الانخفاض غالبا فى اتجاه الرياح داخل القطاع الساخن .

وهناك جبهة مدارية كشفها المؤلف كذلك تتكون عليها الانخفاضات الخماسين فى الربيع ، وهواؤها ساخن جدا يعرف بالسموم أو الخماسين التى تنفذ أتربتها إلى العيون والآذان والأنوف والحناجر .

وقد تصل أتربة هذه العواصف إلى بحر البلطيق شمالا . وقد تبلغ النهاية العظمى لدرجة الحرارة فيها ٤٨ أو أكثر فى الظل ، كما تصل درجة الرطوبة النسبية حدود ٢ فى المائة ، أى منتهى الجفاف ، مما يعمل على هلاك النبات والأحياء من الدواب على السواء ، خصوصا إذا ما ازدادت سرعة الرياح ، وطالت مدتها ، واشتدت حدتها .

والمعروف أو المألوف أن « الحسومات » فترة من العواصف الحادة التى تهب فى موسم الخماسين فى الشرق الأوسط ، وربما تميط لنا هذه الحقيقة اللثام عن تفسير الآية الخاصة بالرياح المعجزة التى أهلكت قوم عاد فى قوله تعالى :

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ ـ الحاقة ـ .

وعلى أية حال فالمعروف أن رياح الخماسين أهلكت جيش قمبيز وهو فى طريقه إلى سيوه عندما كانت عامرة فى القدم .

وعموما أى انخفاض عرضى عندما تدخل الجبهة الساخنة يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوب أو الجنوب الغربى ، وتسوء الرؤية نوعا ما بحسب محتويات الهواء الساخن من الأتربة ونحوها . وعندما يكون متشبعا بأبخرة المياه تتكون أيضا السحب المنخفضة الممطرة .

أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة كافية كما هو الحال فى الشرق الأوسط عموما ، حيث يأتى الهواء الساخن من قلب الصحارى ، فإن الجبهة الساخنة قلما يصحبها مطر ، وقد يكون فى صورة رذاذ فقط قرب الساحل ، وتنعدم السحب تقريبا وسط القطاع الساخن ، ثم تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع باقتراب الجبهة الباردة ، فالسحب الركامية المنخفضة الممطرة نتيجة الحركات الرأسية العنيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة حيث يتدفق الهواء البارد من آن لآخر إلى السطح فيدفع بالهواء إلى أعلى ، ويتغير اتجاه الريح إلى الغربى فالشمالى الغربى وتتحسن الرؤية ، ويكون المطر فى صورة رخات متواصلة أو متقطعة تتوقف شدتها على كميات أبخرة المياه العالقة وعلى مدى استقرار الجو وعدمه فى الطبقات العليا .

وفى العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى فى المقدمة ، ولهذا يأخذ القطاع الساخن فى التناقص تدريجيا من الخلف ، وتنطبق بذلك أجزاء الجبهة الباردة بأجزاء الجبهة الساخنة القريبة من المركز ويمتد هذا الانطباق تدريجيا كلما انكمشت مساحة القطاع الساخن مكونا جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء ولاتزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختفى القطاع الساخن وبذلك يتم رفع جميع الهواء الساخن إلى أعلى ويختفى القطاع الساخن بحلول الهواء البارد محله . ويصحب هذه الظاهرة فى العادة المطر المتواصل فى أوروبا .

وهناك أنواع عديدة من الانخفاضات العرضية الأخرى مثل انخفاضات قبرص الجوية التى يرجع السبب الرئيسى فى تولدها إلى هبوب تيارات باردة حول الانخفاضات العرضية الممتلئة فى شرق البحر المتوسط . وأهم مميزات هذه الانخفاضات تعدد الجبهات الباردة وعدم وجود قطاع ساخن واضح يتبعها ، والمؤلف أول من أطلق عليها هذا الاسم وأحاط عنها اللثام فى بحث مفصل .

والحديث عن تقسيم الرياح بمثل هذا التفصيل إنما يبصرنا بآيات الخالق فى مجال واحد من مجالات البحث والتنقيب عن أسرار هذه الأرض الذى هو موضوع كتابنا هذا فما بال المجالات الأخرى !! .

والحق أن تصريف الرياح إنما يتم وفق نظام محكم ، هو أساس دراسات الطبيعة الجوية . وإتماما لما قدمنا نقول إن هناك أيضا الارتفاعات الجوية وهى مناطق الضغط العالى ، ويصحبها غالبا طقس هادىء جميل . وتكثر فيها ظاهرة هبوط أو تساقط الهواء من أعلى ، ولذا تصفو السماء كما ترتفع درجات الحرارة عموما وخاصة أثناء النهار بالإشعاع الشمسى ، وينشط فيها الإشعاع الحرارى أثناء الليل وتزداد حالات تكون الضباب والندى فى الصباح المبكر .

ويمكن أن تقسم الارتفاعات الجوية عموما إلى ثلاثة أنواع :

الارتفاعات الموسمية . ومن أمثلة ذلك ارتفاع سيبيريا الشتوى ، حيث يرتفع الضغط إلى ١٠٥٠

مللبيار (أو مايعادل نحو ٧٨٠ ملليمتر) وهو لايضمحل إلا فى أواسط الربيع . وكثيرا مايزحف أثناء الشتاء إلى أوروبا وينشر فيها الصقيع حيث قد تصل درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . وهو أيضا قد تزحف أطرافه إلى البلقان وآسيا الصغرى ويعطى نفس الظواهر ثم يسبب إثارة الجوفى الشرق الأوسط عموما ، إذ تولد ألسنة الهواء البارد عند عبورها البحر المتوسط أكثر الانخفاضات الجوية نشاطا ، (هى انخفاضات قبرص الجوية) .

هذا كما أن هنالك الارتفاعات النسبية ، وهى تتواجد بين الانخفاضات وتتحرك عموما بغير انتظام وببطء ، وإذا تحركت سميت « باردة » أما الارتفاعات الجوية الثابتة فهى (دافئة) ذلك لأن حالات الركود وعدم الحركة فيها تجعل ظاهرة هبوط الطبقات العليا أهم عامل لتسخين الهواء تدريجيا بالتضاغط وخاصة فى المركز . ويحدث الهبوط عادة بمعدل ثلث كيلو متر فى اليوم .

وتوجد أيضا الارتفاعات العرضية ، وهى مناطق من الضغط العالى التى تتكون لمدة قصيرة نسبيا ثم تضمحل دون أن ترتبط بالانخفاضات العرضية .

ومن أمثلة ذلك الارتفاع الذى يقع فوق مصر فى الاعتدالين وأغلب فصل الشتاء .

أما الأعاصير الاستوائية فهى تتولد فى المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء أو داخل التجاريات ، وهى تسير معها من الشرق إلى الغرب عموما على عكس الانخفاضات العرضية التى تتولد فى مناطق الغربيات السائدة ، وأهم المناطق المشهورة بهذه الأعاصير هى جزر الهند الغربية ، وخليج المكسيك وبحر العرب وبحر الصين وجزائر الفليبين واليابان والمحيط الهندى وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادى وشرق أستراليا ويطلق عليها اسم (ولى ولى) ، وتسمى (للتيفون) فى الصين واليابان والهوكين فى الولايات المتحدة ، وقد سبق أن عرفناها باسم النكباء .

ومن أهم الأوصاف الدقيقة التى وردت فى القرآن الكريم خاصة بهذه الأعاصير عندما تجتاح السفن وتدهمها عبر المحيط قوله تعالى :

﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ - النور (٤٠) -

ومن الإعجاز العلمى فى هذه الآية أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع (أو السعة) والصفات ، يلاحق بعضها بعضا تحت ظلمة السحاب المنعقد فى السماء . ونحن نستطيع من دراسة هذه الأمواج عندما تصل إلى محطاتنا الأرضية الخاصة برصد موج البحر وتحليلها رياضيا أن نحدد مركز العاصفة . وجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) لم يكن قد سافر قط عبر هذه المحيطات حتى يذكر مثل هذا الوصف الدقيق . مما يثبت قطعا أنه من وحى الخالق العظيم .

ويلاحظ أن جميع مناطق هذه الأعاصير تقع إلى الجانب الغربى من المحيطات ، وليس فى الجانب الشرقى منها . وهى تظهر أولا عادة على البحار

وتستمر فى عنفوانها إلى أن تدخل اليابس فتضمحل نوعا ما ، ثم تتحول إلى انخفاضات صغيرة تتلاشى سريعا . وتدور الرياح حول الأعاصير كدورتها حول (الانخفاضات) مع ازدياد هائل فى

السرعة ثم فى تدرج الضغط ، وكثيرا مايبدأ الإعصار بإتساع يزيد على ٨٠ كيلو مترا ثم يزداد إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر . وفى مركز الإعصار يسود الهدوء وتنكشف السماء ويهطل المطر فى منطقة محدودة هى « عين الإعصار » لايزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو مترا ، وأهم مميزات الأعاصير غزارة الأمطار ، فقد تهطل مئات المليمترات فى بضع ساعات ، وتلعب الحرارة التى تنطلق بعمليات التكاثف هذه دورا هاما فى نشاط الإعصار :

وهناك نوع من العواصف يقال له (التورنادو) ، وهذا نوع من الأعاصير الشديدة الصغيرة الحجم ولايزيد قطرها عموما على نصف كيلو متر ولكنها تشتهر بالتدمير وذلك لشدة هبوط الضغط الجوى فيها ثم سرعة دوران الرياح من حولها : فقد تصل أحيانا إلى ٥٠٠ كيلو متر فى الساعة ، وأهم مناطقها وادى نهر المسيسبى بأمريكا ، وكثيرا مايصحبها ظهور قمع من السحب يتدلى إلى الأرض . ويستغرق مكثها فى أى مكان قبل تحركها إلى مكان آخر نحو ساعة فقط يحدث خلالها تدمير شامل لكل ماتصادفه أو يعترضها على الأرض .

وهنا نحب أن نشير إلى أن أعاصير البحر عندما تدنو من الشواطىء فقد تحدث طوفانات محلية تغرق الأرض ومن عليها ، خصوصا المناطق المنخفضة .

* فى الهواء ماء على هيئة بخار *

لاتراه الأعين

لعل أول كتاب قرر حقيقة أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح هو القرآن الكريم ، وقد كانت الفكرة السائدة فى الحضارات القديمة أن المطر يأتى من ماء مخزون فى السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ !! والآن لندرس قوله تعالى :

١ - ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء** ﴾ الروم (٤٨) .

وكذلك قوله تعالى :

٢ - ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ - الأعراف ٥٧ -

يظهر لنا مدى الإعجاز العلمى فى الآيتين ، إذا ماتذكرنا أنه فى العهد الذى نزل فيه القرآن الكريم لم يكن أحد من الناس - ربما إلا قلة نادرة - يعرف أن الهواء يحمل مقادير وفيرة من الماء على هيئة بخار ، وأن هذا البخار هو الذى يكون السحب ، ويعطى المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبرد تحت تأثير الانتشار بتقليل ضغط الواقع عليها بالارتفاع .

ويسمى هذا التبريد علميا باسم التبريد الذاتى (أى منه فيه) ، وهو يفسر المبدأ الذى تعمل به ثلاجات الكهرباء ، وتبلغ قيمة التبريد الذاتى من الهواء الصاعد الذى لايحده التكاثف درجة واحدة سنتجراد لكل ١٠٠ متر ، فإذا ماحدث التكاثف بسبب التبريد ، تهبط قيمة معدل التبريد الذاتى إلى ٦٥,. درجة سنتجراد لكل ١٠٠ متر .

والمعروف علميا أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة ، وباستمرار

التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء العالق فى الهواء إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حالة الصلابة (بللورات ثلج) .

ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علميا باسم (نوى التكاثف) ، وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب فى الماء أو تمتصه ، مثل ملح الطعام وكلورود الكلسيوم وثانى أوكسيد الكبريت ، وتتجمع جزئيات بخار الماء على هذه النوى مكونة نقطا دقيقة جدا لاتلبث أن تنمو بالتصادم والالتصاق مع بعضها البعض .

وفى الثلاجات الكهربائية يعمل المحرك (الموتور) على ضغط نوع معين من الغاز ببطء ويتركه يتمدد فجأة حول صندوق التبريد ، أما فى الجو فإن التمدد إنما يحدث بالصعود إلى أعلى ، ويضطر الهواء إلى الصعود إلى أعلى تحت تأثير عوامل عديدة مثل التجمع من كل الجهات فى صعيد واحد عند سطح الأرض ، ومثل حالات عدم الاستقرار التى يتواجد فيها الهواء البارد الكثيف فوق الهواء الساخن الخفيف ، ومما يعمل على نقص كثافة الهواء إضافة بخار الماء إليه ، فالهواء الرطب أقل وزنا أو كثافة من الهواء الجاف ، الذى فى نفس درجة الحرارة وتحت نفس الضغط .

ومما يدلنا على مبلغ ماستحدثته هذه الآية من جديد فى ميدان الطبيعة الجوية ، نقول إن قدماء المصريين مثلا كانوا يفاخرون الإغريق بأن النيل الخالد الذى يروى مصر ، إنما يفيض من المحيط الأعظم الذى لاينفد ، أما بلاد الإغريق ، فأغلب ماتعتمد على المطر الذى يأتى من ماء مخزون فى السماء ، عندما يفتح الآلهة أبواب السماء ، ومامن شك أنه سيأتى يوم ينفد فيه هذا الماء !!

لقد فاتهم ـ وفات غيرهم ـ أن الهواء هو الذى يثير السحب ويعطى المطر ، وأن للماء العذب على الأرض دورة مستمرة ، وأنه يتجدد على الدوام ، تحت تأثير الطاقة الشمسية التى تبخر بعض ماء البحر ، وان ماء المطر ، إنما يعود فى النهاية إلى البحر عن طريق الأنهار والمياه الجوفية والمطر المباشر ، ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الحقيقة ، كما ذكر حقيقة أن الهواء يحمل نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب وأستمرار عمليات التكاثف فى إعجاز بليغ أخاذ كما سنبين فيمايلى .

تلقيح الرياح للسحب لتجود بالمطر ، (نوى التكاثف) ، دورة الماء مابين الجو والأرض

تحت هذا العنوان تدخل قائمة هامة من أحدث الحقائق العلمية الرائعة ، التى لم يتوصل إليها الإنسان إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة التى يقيس بها عناصر الجو مثل : الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وسرعة الرياح واتجاهها ، الخ . . وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة ، نقول بعد كل هذا المجهود العلمى الضخم الذى اشتركت فيه أغلب أمم الأرض ، توصل الإنسان إلى أن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم (نويات التكاثف) كما ذكرنا . وأهم أنواع هذه

النويات أو النوى ، هى مساحيق ملح الطعام ، وكلورور الكلسيوم التى تتطاير من سطح الأرض والبحر مع تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أوكسيد الكبريت الناتج من عمليات الاحتراق . ووظيفة هذه النوى تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها لتكون نقطا صغيرة من الماء أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى ، هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها .
وعندما تعجز الرياح لسبب ما عن تلقيح السحب بهذه النوى لتجود بالمطر ، يعمد الناس إلى التلقيح الصناعى باستخدام الطائرات أو المولدات الأرضية ، التى يمكن أن تقذف بالمساحيق الى أعالى الجو . وتعرف هذه العمليات علميا الآن باسم (المطر الصناعى) ، وأهم المواد التى تستخدم هى يودور الفضة ، أو مسحوق ملح الطعام الصخرى . ويستخدم كذلك ثانى أوكسيد الكربون الجاف .
وفى الواقع نجد أن نظرية المطر الصناعى وحتى المطر الطبيعى ، هى أكثر تعقيدا من ذلك ، إذ يستغل فيها حقيقة أن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة فوق التشبع ، بالنسبة لبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، وبذلك تنشط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنبا إلى جنب مع نقط الماء البارد ، ويتكون هذا الثلج على نوى التكاثف الصلبة التى على غرار مساحيق ملح الطعام ، أو يودور الفضة أو حتى ثانى أوكسيد الكربون الجاف الذى يمكن أن تلقح به السحابة تلقيحا طبيعيا بواسطة الهواء (ملح الطعام) أو صناعيا بواسطة الطائرات كما قلنا .
وفى الطبيعة يمكن أن تتواجد نقط الماء ، وهى فى حالة السيولة تحت درجات حرارة منخفضة جدا ، قد تصل إلى ٤٠ درجة سنتجراد تحت الصفر ، وعندئذ تسمى نقط الماء فوق المبرد . ويعطى الجدول الآتى ضغط بخار الماء اللازم للتشبع بالنسبة لنقط الماء وبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، لنتبين كيف تكون السحابة المشبعة بالنسبة لنقط الماء فوق المبرد فى حالة من فوق التشبع ، إذا تكون الثلج فيها عن طريق تلقيح السحابة بنوى التكاثف ، وعندما تنمو البللورات الثلجية داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد تزداد سرعات تساقطها نسبيا ، فتتصادم مع غيرها من النقط الصغيرة وتلتحم بها ، وهكذا تنمو النقط سريعا ، وتزداد حجومها ، فتتساقط على هيئة مطر .
أما الآية التى تقرر كل هذا فى إعجاز أخاذ وإيجاز رائع فهى قوله تعالى :
﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾[1] .
وهكذا تربط الآية الشريفة وتوثق العلاقة بين تلقيح الرياح للسحاب بنوى التكاثف وبين نزول المطر . وثمة معنى آخر هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر ، بسبب إرسالها لتتجمع فى صعيد واحد إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . وقد حسب المؤلف مقدار الهواء الذى يصعد فى انخفاضات قبرص الجوية ، فوجده نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة فى المتوسط !!!
وأعجب من كل هذا وأروع أن الآية تمضى فتقول : ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ ، أى من الماء

(١) سورة الحجر آية رقم ٢٢

الذى ينزل من السماء على هيئة مطر لايختزنه أحد ، ولايمكن أن يختزن ، بل هو يتجدد دائما ، إشارة إلى الدورة العظمى لماء الأرض مابين سطحها وسمائها أو غلافها الجوى .

فهل بعد ذلك إعجاز علمى ؟ وهل بعد ذلك يقول قائل : إن هذا القرآن من صنع محمد ؟ ويعود القرآن ليذكر الناس بهذه الحقيقة حين يقول فى سورة الطارق - ١١ - ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ أى التى تعود مرتدة إلى الأرض والمراد ماء السحب .

والمطر ، كما هو معروف ، مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء ومورد الثروة الدائم منذ القدم ، وإذا شحت كمية المطر عن معدلها فى إقليم ما ، أجدبت الأراضى ، وأقحلت المراعى ، ونفقت الماشية ، وقد لاتنصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . وتتوقف أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر المباشر ، أو بالأنهر والترع والقنوات ، على ماتجود به السماء من مطر كل عام .

ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان يعالج شئونه بالسحر والشعوذة . وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة ، ومنها صلاة الاستسقاء لتجود السماء بالماء ، بعد طول الجفاف واشتداد البلاء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة - قال تعالى :

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾[1] .

وكان الرسول (ﷺ) يستسقى فيدعو الله تعالى ، ومن دعائه :

(اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنك مالا نشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا) .

ويوجه القرآن كذلك أنظارنا إلى أن ماء المطر العذب ؛ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعطينا مثلا يتجدد أمام أعيننا ليوم البعث الذى يحيى فيه الله الموتى . ومن الآيات التى تؤدى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾[2] .

وهنا مرة أخرى يربط القرآن الكريم بين إرسال الرياح وإثارة السحب المطيرة ، ولقد حسب المؤلف حجم الهواء ، الذى يتجمع ويصعد إلى أعالى الجو عندما تنساب الرياح حول انخفاض قبرص الجوى ، الذى يسبب أمطار الشتاء فى الشرق الأوسط ، فوجده يعادل نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة كما قدمنا .

وعندما ننظر إلى قوله تعالى :

﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾[3] .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٠ ، ١١
(٢) سورة فاطر آية رقم ٩
(٣) سورة الواقعة الآيات من ٦٨ - ٧٠.

نجد أن الظروف الطبيعية التى تؤدى إلى تكوين المزن ، (وهو السحاب الممطر) ونزول المطر لايمكن أن يصنعها البشر ، بل حتى لاسبيل إلى التحكم فيها ، ولايزال موضوع المطر الصناعى - او استمطار السحب العابرة - فى مرحلة التجارب التى لم يتم نجاحها بعد . وحتى إذا ماتم نجاحها ، فإنه من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعى ، حتى يمكن استمطار السماء صناعيا ، أى أن واجب علماء الطبيعة الجوى لايتعدى قدح الزناد فقط ، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية ، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد ، بقذف بعض المواد التى تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة ، مثل ملح الطعام ، أو يودور الفضة ، أو بللورات ثانى أكسيد الكربون ، وتمضى الآية الكريمة فتقول إنه لو شاء الله لجعل ماء المطر ملحا زعانا كماء البحر لايشرب .

وآيات طبيعة السحب متعددة ، منها على سبيل المثال :

١ - ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾[(١)] .

إن ثورة الطبيعة التى تلازم الجو العاصف من برق ورعد وصواعق ومطر . . كلها تذكرنا بطاعة الله تعالى خوفا وطمعا . خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته - والرعد ، رغم جبروته ، إنما يحدث وفق أمره وحسب سننه وتبعا لحكمته .

٢ - ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله** ﴾[(٢)] .

ونحب أن نضيف هنا أن التيارات الهوائية العليا التى تنساب فى أعالى (التربوسفير) إنما تلعب دورا هاما فى تقلبات الجو على سطح الأرض ، وهذه التيارات لايمكن أن يتحكم فيها البشر بحال من الأحوال ، كما أنه لم يتم التعرف عليها بالتفصيل إلا فى السنين الأخيرة ، التى استخدم فيها الطيران العالى .

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم (التيارات العليا النفاثه) وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيهما بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علو يقارب ارتفاع « التروبوبوز » أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية ، وحديثا جدا تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى ، الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دورا هاما فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التى ينجم عنها فيضان النيل .

٣ - ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته** ﴾[(٣)] .

والمعروف علميا أن المطر فى أية منطقة على الأرض إنما يصحب هبوب تيارات هوائية معينة على

---

(١) سورة الرعد الآيتان ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الروم الآية رقم ٤٨

(٣) الروم الآية رقم ٤٦

المنطقة . ففى مصر مثلا تقبل الأمطار مع الرياح الشمالية الغربية خلال الشتاء ، وفى السودان تكون الرياح الموسمية الممطرة فى الصيف ، هى الجنوبية الغربية أو الجنوبية عموما . . ويمكن التعرف عليها من خواصها .

٤ - ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾[١] - ، أما رياح الكتل الهوائية الجافة الساخنة المتربة (الصفراء) فمن أوصافها :

٥ - ﴿ **ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون** ﴾ - الروم (٥١) - ، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفرا ، نظرا لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفرا علامة الجفاف والجدب والحر .

٦ - ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصبا** ﴾[٢]

والمراد الرياح الشديدة التى تثير الحصى . والمعروف أن الرياح هى التى تثير الرمال والحصى كلما اشتدت وزادت سرعتها ، فتكون عواصف الرمال والأعاصير . وتتوقف درجة التركيز - أى عدد الحبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء - على سرعة الرياح وحجوم الحبيبات المثارة .

ولتيارات الهواء الصاعدة أثرها فى رفع الحصى ونقله عبر مسافات كبيرة ، وتعظم هذه التيارات وتشتد فى حالات عدم الاستقرار الجوى ، أو مرور الجبهات الباردة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم** ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾[٣] إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينا بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجو وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

قوله تعالى : ﴿ **ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾

أى صرفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة ، فيشكروا ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرانا بخالقها ، ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقال من أعباء النبوة ، ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾

أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ماأعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾[٤] .

(١) الأعراف الآية رقم ٥٧
(٢) القمر آية رقم ٣٤
(٣) سورة النمل آية رقم : ٨٨
(٤) سورة الأعراف آية رقم : ١٥٨

وجاء فى (الصحاح) (بعثت إلى الأحمر والأسود »[١] أى إلى العجم والعرب . والخلاصة - إنا عظمناك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ماادخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته ، فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولاعليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾

أى فلاتطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم وجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لايقادر قدره .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون ﴾[٤] والقول الفصل ماجاء فى قوله تبارك اسمه : ﴿ قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾[٥] .

الله اكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

والخلاصة - إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم مابين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد فى دعوتك ، ولاتتوان فيها ، ولاتحفل بوعيدهم فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾

أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لايمتزجان ، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لايبغى عليه .

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب المساجد/٣ ، والدارمى فى كتاب السير/٢٨ ، وأحمد فى مسنده ١/ ٢٥٠ ، ٣٠١ ، ٤/ ٤١٦ ، ٥/ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ من هذا يتضح أن قوله فى الصحيحين خطأ .
(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٣ وسورة التحريم آية رقم : ٩
(٣) سورة الأحزاب الآيات ١ - ٣
(٤) سورة القلم الآيتان ٨ ، ٩
(٥) سورة الكافرون .

والخلاصة ـ أنه تعالى جعل البحرين مختلطين فى مرأى العين ، منفصلين فى التحقيق بقدرته تعالى بحيث لايختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ولايتغير طعم أحدهما بالآخر ولايفسده .

ونحو الآية قوله فى سورة الرحمن : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾[1] .

* مبحث يتعلق بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم *

يقول الدكتور/ ابراهيم عوض فى كتابه (مصدر القرآن ـ دراسة فى الإعجاز النفسى) .

وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن ، والتى لم أذكر هنا سوى بعضها ، ماورد فى القرآن أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : ـ تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوجية) وطبية ، وتشريحية ، وكيميائية وطبيعية (فيزيائية) ، وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحى الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أحد فى عصره فى شرق العالم أو غربه أو شماله أو جنوبه ، وبل وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم بله أن يكون على علم بها . وأقل مايمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ماخرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى ، من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلةً بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمان ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » ليس هذا فحسب بل يمضى العالم الطبيب الفرنسى قائلا : « وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى هى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، ودون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولاالمقدرة العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ماقام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى مايقوله الدكتور بوكاى : « إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لايحتملها التصديق وتلك الأخرى

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ١٩ ـ ٢١

التى لاتتفق والعلم ، لايبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولاتقع المسئولية فيها الا على البشر .

ولايستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ومانصيب الخيال والهوى فى عملية تحريرها ، أو مانصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو مانصيب التعديلات غير الواعية التى أدخلت على الكتب المقدسة . ثم يعود الدكتور بوكاى إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول : « أما الجزء الثالث (يقصد من كتابه) فسيجد فيه القارىء أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .

كما سيجد القارىء فى ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة . ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان . وأنا إذ أستشهد بالدكتور بوكاى ، لاأعنى أن أحدا لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكنى قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهى فقط أحد الجوانب التى يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهى ، قد أدت بهذا العالم . إلى الدخول فى دين الإسلام .

ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم فى القرآن المجيد فما أكثر الكتب التى قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها فى الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبعض الآيات ، التى يصعب على الدارس الموضوعى الذى لايغلبه تحمسه لدينه على نفسه أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من بعضهم الذين يرون فى بعض الآيات أشياء لاوجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التى بهذا الشكل وسأقف عند بعضها مستأنيا بعض الشىء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها فى ضوء حقائق العلم الحديث : **﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . . ﴾**[1] .

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾[2]

﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[3]

﴿ وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . . ﴾[4] .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[5]

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢
(٢) سورة الأعراف آية : ٥٧
(٣) سورة النور آية : ٤٣
(٤) سورة النحل آية : ٦٦
(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤

﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾[(١)] ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[(٢)] ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾[(٣)] .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[(٤)] .

ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاى ، الذى يقول : « ومن الثابت فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن . . كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذى يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة ، فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن محمدا ﷺ بالتالى قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ولو يسيرا تاريخ الاسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحق لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما فى القرآن لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن ربما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق .

وهنا نصل إلى الآيات التى ذكرت آنفا ، إننى أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت فى التفاسير القديمة مايؤكد هذا الذى يقوله الدكتور بوكاى ، ففى تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾[(٥)] .

يقول الشريف الرضى : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأصناف النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة ، والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها فقال سبحانه ﴿ يخرج من بطونها ﴾ والمراد « من جهة بطونها » وجهة بطونها أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان وشرائف هذا الكلام

فانظر كيف أن العلماء المحققين فى عصر الشريف الرضى (القرن الخامس الهجرى) يقررون أن

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٠
(٢) سورة الزمر آية ٦
(٣) سورة يس ٣٨ ـ ٤٠
(٤) سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٧
(٥) سورة النحل الأيتان : ٦٨ ، ٦٩

العسل لايخرج من بطون النحل ومن ثم عد هو قوله تعالى :
﴿ يخرج من بطونها شراب .. ﴾ مجازات القرآن التى أدار عليها كتابه الذى اقتبسنا منه النص السابق ، والصواب هو ماقاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل التى تجمع الرحيق ، ويتحول فى معدتها إلى عسل تقوم بافرازه بعد ذلك .

وفى خطأ مشابه يقع الإمام الباقلانى ، إذ يعد قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾[1] نوعا من التعميم فى التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال : إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا .

الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . واذا مانوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟

والطريف أن الباقلانى قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون فى عصره مطعنا فى القرآن الكريم .

وهذا نص كلامه « وأما قوله عز وجل : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾

قال الملحدون : وفى هذه الآية ! حالة من وجوه ! أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها مايخلق من بيض وتراب ونطف .. والجواب أن قوله « كل » لايقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب مالم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلانى عليهما لايحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله فى عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، هما المخطئان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .. ﴾[2] .

فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (عاش فى القرن الثامن الهجرى) ، عبارة « كأنما يصعد فى السماء على النحو التالى : « شبهه (أى شبه الله من يريد أن يضله) مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالايقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه . أما تفسير الآية فى ضوء مكتشفات العلم التجريبى ، فهو أن الذى يضله الله يشعر بنِفَسٍ ضيق الصدر

---

١ - سورة النور آية رقم/ ٤٥
٢ - سورة الأنعام آية رقم/ ١٢٥

الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلاتجد الرئتان كفايتهما من الهواء والأكسجين . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب علىَّ أن أوافق الدكتور موريس بوكّاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٠٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى فى الآية ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع .

وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو مالم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولافيما بعده ببضعة عشر قرنا لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه .

كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب . . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . بل إنى لاأذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث الشديد على تسجيل كل ما يعتريهم أثناء ذلك من تأثرات عضوية أو نفسية . ولم يثبت أن الرسول ﷺ قد زار صنعاء التى يشير إليها الدكتور (بوكاى) بل إنى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشىء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك .

وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعد فى الجبال »

ثم هاهى ذى كتب التفسير القديمة ، لاتجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول ، إن المقصود هوأن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان ، كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو مايدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار اليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلاشك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أرانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى الذى يكرر كلام المفسرين القدامى . وهذه هى ﴿ **وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾ وفى تفسيرها يقول د . بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ماتشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ، ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات ، الذين يشكلان بالتقائهما جسرا ، إذا جاز القول ، طوله اكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى وذلك يضمن ريا طيبا .

والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع . فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى ، على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات ، إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لاتشير إلى ظلام بعينه ، ولارياح بعينها ، ولا ماء معين ، ولا أنعام ، ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقال إذن إن « البحرين » هناهما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون (البحران) أيضا هما « النهر والبحر » بإطلاق أى أن (الـ) فيهما هى (الـ) الجنس لا العهد ، فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، وفضلا عن ذلك ، فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة كان ظاهر الأمر ، أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءه الملح وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته)

فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ، أما المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية ، إنها ربما (تشير إلى نعمة الله على عباده ، بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطىء بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منها فوق الملح ، كأن بينهما برزخا يمنع بغى أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لانراه . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لايمكن تسميتهما بحرين .

ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لايلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا ، كما قلنا من قبل ، يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية ، هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح ، كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات ، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا .

بيد أن التقدير الإلهى ، قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال ، وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان وهكذا دواليك ، وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح ، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويقضى عليه ، فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم . والله أعلم .

ثم يستطرد الباحث قائلا : ـ

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أتريث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : **﴿ ومايستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون**

حلية تلبسونها ﴾[1] .

ماأكثر ماقرأت هذه الآية ولكن لم ألتفت إلى ماتنبهت إليه وأفزعنى منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ماتؤكده الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية متشابهة فى سورة « الرحمن »)

لايوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن ثمة آية أخرى متشابهة فى سورة « الرحمن » ولكنها لاتثير آية مشاكل ، فنصها هو :

﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن فى يدى هاتين مائة جنيه ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلو تماما من أى نقود ، ولاتكون قد عدوت الحقيقة . أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة ﴿ ومن كل . . وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ ولم يسعفنى ماعندى من تفاسير قديمة فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم - رحمه الله - (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما ، ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية .
(مادة Rearl)

والمنتخب من تفسير القرآن الكريم « فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة . وكأن الكتاب الأخير يرد على حيرتى إذ يقول :

« وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان . . الخ ، بالاضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ماتحمله المياه العذبة من المعادن العالية

---

(١) سورة فاطر آية رقم ١٢

الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا) وهو فلور سيليكات الألمونيوم ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا والزيركون CIRON -حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية ، وحتى يقدر القارىء رد فعلى الأولى حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوروبين فى العصر الحديث ، قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى ، وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

Yet from bath yoeat drerh jish, and take jarth for you atname nts to wear .

فعبارة (fram bath) تصلح لترجمة آية سورة الرحمن لا هذه الآية ، كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى :

Aus beiden est ihr jrisches Fleirch إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا ﴾ وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة " Irisch ومعناها الدقيق « طازج » لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

Umd (aus dem S alzmeer)geurmmt ihr Schmwck um ihm euch anzulegen .

والذى ترجمته : « وتستخرجون (من البحر الملح) حلية تلبسونها . ويرى القارىء أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر الملح (aus dem Salzmeer) وهو مايوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق ، وغيرهما من أنواع الحلى على ماتقول الآية الكريمة .

(أما ترجمتا سيل وبالمر (الانجليزيتان) وترجمتا كاز يمريسكى وماسون (الفرنسيتان) وكذلك ترجمتا ماكس هنخ ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كل النص القرآنى كما هو ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء .

ويرى القارىء من هذه الآية بالذات كيف ان القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الانجليزى رودويل ونظيره

الألمانى رودى باريت فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة ، تستخرج منها تقع فى بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة ؟ أخشى ماأخشاه إذاً تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ؟ أن يزعموا أن سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفية فى الفترات التى كان يدعى فيها لزوجته أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله وجعله كامل الخلقه ذكرا وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديرا ﴾

* لا معبود إلا الله *

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

* معانى المفردات *

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه أى على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : أى ونزهه وصفه بصفات الكمال ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره . والخبير بالشيء : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به . والبروج : منازل السيارات الأثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله .

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب،والزهرة ولها الثور والميزان،وعطارد ولهالجوزاء والسنبلة،والقمر :وله السرطان،والشمس ولها الأسد،والمشترى وله القوس والحوت،وزحل : وله الجدى والدلو .

وهى فى الأصل القصور العالية فأطلقت عليها على طريق التشبيه

والسراج : الشمس .

خلفه : اى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ، أعاد الكرة مرة أخرى وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعوون عن غيهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والأوثان ، ومالاينفع فيه إن عبد ومالاضر فيه ان ترك إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناوئون أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون من جاء لنفعهم ، وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم . إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ثم هو على ذلك لايبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بألا يرهب وعيدهم ، ولايخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، وينزهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد وهو الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ومن قبائح هؤلاء أنهم بعد ظهور الأدلة ، وقيام البراهين ، ونصب الآيات التكوينية ، عبدوا من دون الله آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولا نشورا .

نعم عبدوا مالاينفعهم لو عبدوه ولا يضرهم إذا تركوا عبادته ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[١] .
﴿ قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ﴾[٢] .

وقال سبحانه ﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٣] .

سبحانك ربى :

مافى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هنـاك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها ... رهبـا وكل الكـائنات تـوحد
انت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقـر وتشهد

سبحانه .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قمطير إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

قال العلامة ابن القيم :

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه

(١) سورة مريم الأيتان رقم : ٨١ ، ٨٢
(٢) الصافات الأيتان رقم : ٩٥ ، ٩٦
(٣) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ ـ ٨٢
(٤) سورة فاطر الأيتان : ١٣ ـ ١٤

وعدو ربه ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه ، كمايكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .

وعبارات السلف على هذا تدور ، وقد ذكر ابن ابى حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث ومجاهد : يظاهر الشيطان على معصيته الله يعينه عليها . وقال : زيد بن اسلم : ظهيرا أى مواليا .

والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معينا له على مساخط ربه ، فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه ، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وملذاته .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم ﴾ وهذه العبارة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم .

فظاهر أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله .

قوله تعالى : ﴿ وما ارسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾

نعم مبشرا بالجنة ، ونذيرا للعصاة بالنار ، فأنت النبى المجتبى ، والرسول المختار ، الذى زكى الله عقله فقال : ﴿ ماضل صاحبكم وماغوى ﴾ ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال :

﴿ إن هو الا وحى يوحى ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾ .

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ الصبر وماطغى ﴾ وزكى رسالته فقال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى — والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما — بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا — ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى — ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وماعسى — أن يجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى — ماأشتاق مشتاق إلى مثواك

لقد خاطبك الله بقوله : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه

وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[١] .

واذا كنت انت المبشر النذير فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون)

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين وان كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[٢] .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾[٣]

فبشر الذين يعملون الصالحات بالجنة ، وانذر العصاة من عذاب النار ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ماهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[٤] .

وكيف يكذبونك ويقفون منك موقف العناد ، وأنت الصادق المعصوم الذى لاتسألهم عن التبليغ أجرا ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾[٥]

قال تعالى : ﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر ﴾[٦] أى أجر اذ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم

﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾

أى لكن من أراد أن يتخذ لنفسه أجرا عند الله ومثوبة وسبيلا إلى الجنة فليفعل ذلك بالانفاق فى مرضات الله والجهاد فى سبيله .

﴿ وانفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾[٧] .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده ﴾

أما أنت أيها النبى ، فلا تأسى على القوم الكافرين ، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد - لن يضروك بشىء ولو اجتمعوا على ذلك ، لأن الله تعالى يعصمك من الناس ، فتوكل على الحى الذى لايموت ، وسبح بحمده ، أى قل سبحان الله وبحمده ونزه ربك عن كل نقص تنزيها مصحوبا بالحمد لنعمته ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾

---

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ - ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ - ٣٥
(٣) سورة المائدة آية رقم : ٩٩
(٤) الكهف الآيات : ١ - ٦
(٥) سورة الطور آية رقم : ٤٠
(٦) سورة (ص) آية رقم : ٨٦
(٧) سورة البقرة آية رقم : ١٩٥
(٨) سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥

فهو الذى يعلم ماتكسب كل نفس ، الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ، صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ .

قال الامام مالك : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ماكان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان .

سبحانه فلا العرش يحمله ، ولا الكرسى يسنده ، بل الكل محمول بقدرته ، مقهور بارادته ، علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالايكون لو كان كيف كان يكون .

خالق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1]

كيف يكون له شريك أو ولد ، ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[2] .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تتوكلوا إلا عليه .

والخلاصة : توكلوا على من لايموت ، وهو رب كل شىء وخالقه ، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها ومافيها من عوالم ، لايعلم كنهها إلا هو ، وخالق الأرض السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ أى فاسأل عن خلق ماذكر خبيرا به يخبرك بحقيقته ، وهو الله سبحانه ، لأنه لايعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو .

بيان فضيلة التوكل

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الإحياء عن فضيلة التوكل :

أما من الآيات فقد قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[3]

وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[4]

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[5] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾[6] .

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه ، فمن كان الله

(١) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٤
(٣) سورة المائدة آية : ٢٣
(٤) سورة ابراهيم آية : ١٢
(٥) سورة الطلاق آية : ٣
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٥٩

تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لايعذب ولايبعد ولايحجب ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[١] فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهرلم يكن شيئا مذكورا ﴾[٢] .

وقال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[٣] اى عزيز لايذل من استجار به ، ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾[٤] بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾[٥]

وقال عز وجل : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ﴾[٦] .

وقال عز وجل : ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد اذنه ﴾[٧] وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار : فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود (أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء تسعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يارسول الله ؟ قال الذين لايكتوون ولايتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى فيهم فقال : رسول الله ﷺ : اللهم اجعله فيهم فقام آخر فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة ﴾[٨]

وقال ﷺ : (لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٩]

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٣٦
(٢) سورة الانسان آية : ١
(٣) سورة الأنفال آية : ٤٩
(٤) سورة الأعراف آية/ ١٩٤
(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ١٧
(٦) سورة المنافقون آية : ٧
(٧) سورة يونس آية : ٣
(٨) الحديث رواه البخارى فى الرقاق /٥٠ ، وفى الطب/ ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس/١٨ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣/ ٨٨) ، وأبوعوانه الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١/ ١٤٠ ، ٨٦ - ٨٧ ورواه الدارمى فى الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢/ ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢
(١) الحديث رواه أحمد فى المسند وفى الزهد والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح وأقره الذهبى .
(المسند ١/ ٣٠ ، ٥٢ الزهد/٥٨ ، تحفة الأحوذى ٧/ ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ماجاء فى الزهادة ، فيض القدير ٥/ ٣١١ رقم ٧٤٢٠

وقال ﷺ (من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)(١)

وقال ﷺ (من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه)(٢)

ويروى عن رسول الله ﷺ (أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرنى ربى عز وجل قال عز وجل ﴿ **وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾(٣)

وقال ﷺ (لم يتوكل من استرقى واكتوى)

وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا .. وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى ﴿ **وابراهيم الذى وفى** ﴾

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا(٤)

وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لايموت** ﴾ إلى آخرها فقال ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى مقامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال ابراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الصغير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، واسناد الطبرانى مقارب وابن ابى الدنيا وعن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب قال الحافظ العراقى : لم يسمع منه وفيه أبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم من رواية الحسن بن عمران ،واختلف فى سماعه منه/ورواه عنه أيضا الخطيب وابن أبى حاتم فى تفسيره (الدر المنثور ٦/٢٣٣ ، احياء علوم الدين ٤/ ٢٣٩ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين ص ٦٥١

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (الاحياء ٤/ ٢٣٩)

(٣) الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام ـ قال : الحافظ العراقى : ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه ا هـ (الاحياء للغزالى بتخريج العراقى ٤/٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل) وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ثابت رضى الله عنه وعبد الرازق فى المصنف عن رجل من قريش وأخرجه سعيد بن منصور فى مسنده وابن المنذر فى تفسيره من طريق عثمان عن حمزة بن عبد الله بن سالم (الزهد ص ٤٦ ، سعادة الدارين ص ٦٥١)

(٤) الاحياء للغزالى ٤/ ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل
وأخرجه أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل على عبدى لوكادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج (الدر المنثور ٦/ ٣٣٤)

من أين يطعمنى .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرنى أن أكون ، فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ، قال اويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة ، وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وجميع أبواب الايمان لاتنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، هو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الايمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب ، فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، والايمان بالقدرة الذى يترجم عنه قولك : له الملك ، والايمان بالجود والحكمة ، الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ، فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، تم له الايمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولايتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لانتعرض إلا للقدر ، الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له ، فنقول : للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالمرتبة الأولى من التوحيد ، هى أن يقول الانسان بلسانه لاإله إلا الله ، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة الا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلايرى نفسه أيضا ، واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد ، كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان ، والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله ، تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضا أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن

تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لاتنحل عقدته ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق ، كما هو عليه ولايرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا ، وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذا لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد .

فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث انه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها ، بل ان أكل فهو مر المذاق ، وان نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وان اتخذ حطَبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وان ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة فى حفظ القشيرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هى القلب والبدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف انما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ،فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة ، التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾[1] وبقوله عز وجل : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[2] .

وكما ان اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لايخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لايشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور الا يشاهد الا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة ، وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا .

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات ، وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥
(٢) سورة الزمر آية رقم : ٢٢

وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه انسان واحد ، فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولايخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة فكذلك كل مافى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو بإعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرى سواه كثيرة بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وأن كان لايطابق الغرض ، ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وان لم يكن ماآمنت به صفتك ، كما أنك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التى لايظهر منها إلا الواحد الحق تارة ، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام . نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار ، فقال : فبماذا أنت فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالتى فى التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ، فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت فلابد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .

فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبينا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح

وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام ، وقد ذكر فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه .

وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل ، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لايورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به ، دون تفصيله ، الذى لايحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك ان لافاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لاشريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به ان يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين :

أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات الثانى الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات ، فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك فى

التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى :
﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[1] .

قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه ، علم ان الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهى الى المحرك الأول ، الذى لامحرك له ولا هو متحرك فى نفسه ـ عز وجل ـ فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتجز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وانما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم فى الأرض وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى : ﴿ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[2] .

فإذا انكشف لك ان جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه ، انصرف عنك الشيطان خائفا ، وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات الى إختيار الحيوانات فى الافعال الاختيارية ، ويقول كيف ترى الكل من الله ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك وان شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك ، وإن شاء عفى عنك ، فكيف لاتخافه وكيف لا ترجوه ، وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له ايضا نعم ان كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زلت اقدام الأكثرين الا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين ، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما نشاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع ، فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم ، لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب ، وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ، بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لايسمعه الذين هم عن السمع معز ولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد

---

(١) العنكبوت آية رقم ٦٥
(٢) سورة الأنفال آية رقم/ ١٧

به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي .

فإن قلت فهذه أعجوبة لايقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ، فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر ﴾[1] الآية . .

ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجى بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال النبى - ﷺ - (لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)

بل كان يذكر ذلك لهم حين يبكون ولايضحكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر ، ولما قال (إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا)

ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان :

أحدهما استحالة افشاء السر .

الثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكن فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول :

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ، مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ، فلم سودت وجهك ، وما السبب فيه فقال الكاغد :

ماانصفتنى فى هذه المقالة ، فأنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الحبر ، فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ، ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك فقال :

ماأنصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن الا أبرج منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى ، وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ، فقال : صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه ، فقال سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ، وفرقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت بين انابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر وحرارته ، وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩

ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عنى وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ، وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى وتجول فى نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شىء منها مكانه ، ولا يتحرك بنفسه ، إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى ، فإنى مركب أزعجنى من ركبنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفى عليك أمرى ، وكيف ظننت انى ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدمة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا احرك ، حتى جاءنى موكل أزعجنى وارهقنى إلى ما تراه منى ، فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجنى من غمرة النوم ، وارهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الارادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى حدفتها إلى التحريك ، وأرهقتها اليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت : الارادة : لا تعجل على فلعل لنا عذرا ، أو أنت تلوم ، فإنى ما انتهضت بنفسى ولكن انهضت وما انبعثت ، ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر حازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار ، فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا ادرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدرى انى فى دعة وسكون ، ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته الزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ، فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا الا تفارقهم فالراحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ، ولكن أشعلت ، وقال القلب : اما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى ، فسل القلم عنى ؛ لان الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب ، وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن

كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ، وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال ، فأما قولك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه ، فإنى لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ، ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فقال له القلم : ان صدقت فيما قلت ، فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك فى الطريق التى توجهت اليها كثيرة ، فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق الى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكوت ، وهو رائى فاذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ومنه المهامه والنيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المفرقه ، ولا أدرى كيف تسلم فيها . والثالث عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل ، فى أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه نهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت ، يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الأرض والماء ، فلاهى فى حد اضطراب الماء ، ولا هى فى حد سكون الارض وثباتها ، وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة ، كان كمن يمشى فى عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة ، مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع ، فإن كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء ، اما سمعت قول رسول الله ﷺ فى عيسى عليه السلام : (لو ازداد يقينا لمشى على الهواء) لما قيل له إنه كان يمشى على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت فى أمري واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامة التى وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، اما ترى ان النبى ﷺ فى أول امره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه **﴿ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾** فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدى ، ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ،

ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وغفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا ، فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه ، فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)[١] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا ، وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت شبه الصورة الباطنة ، التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق ، فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾[٢] فلما سمع السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته ، فاصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره ، فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له فى كل قلب رأس ولا رأس له ، فقضى منه العجب ، وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ، فإنى أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال قد طال مقامى من عندك ، ومرادتى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، واسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم ، تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال : أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ، قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابى مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه ، قال القلم : اما سمعت الله تعالى خلق آدم على صورته ، قال : نعم ، قال : فسل عن شأنى الملقب بقين الملك ، فإنى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الالهى وقلم الأدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة ، فقال : فمن يمين الملك ، فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾[٣] قال : نعم ، قال : والاقلام ايضا فى قبضة يمينه ، هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ، ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات .

كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، يد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع ،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاستئذان رقم ١ ، ومسلم فى كتاب البر حديث رقم ١١٥ ، وفى كتاب الجنة حديث رقم ٢٨ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩.

(٢) سورة طه الآية رقم : ١٢

(٣) سورة الزمر الآية رقم : ٦٧

فرأى القلم محركا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحضر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وقيل : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فخر صعقا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق ، قال : سبحانك ما أعظم شأنك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ، ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك واتضرع إليك ، وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى ، لأثنى عليك ، فنودى من وراء الحجاب ، إياك ان تطمع فى الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء ، بل ارجع اليه ، فما آتاك فخذه ، وما نهاك عنه ، فانته عنه ، وما قاله لك فقله ، فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

من أقوال الرسول ﷺ
فى التوكل واليقين

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت انهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الافق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : انظر إلى الافق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل له : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فاخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محض فقال : (ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة)[1] . متفق عليه .

« الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : و « الأفق » الناحية والجانب . « سواد عظيم » أى اشخاص كثيرة « لايسترقون » لا يطلبون الرقية من غيرهم . « ولا يتطيرون » أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . و « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف صحابى من أصحاب الرسول ﷺ .

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ، ومسلم فى كتاب الايمان ـ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣ / ٨٨) ، وأبو عوانة الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١ / ١٤٠ ، ٨٦ ـ ٨٧) ، والدارمى فى كتاب الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا ان رسول الله ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت : اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ان تضلنى أنت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون)[١] . متفق عليه « لك اسلمت » استسلمت لحكمك وامرك . « وأنبت » رجعت إلى عبادتك ، والاقبال على ما يقرب منك « وبك خاصمت » اعداء الدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ايضا قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ؟ وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى ايضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل)[٢] .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »[٣] رواه مسلم

قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا آتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ : معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى ؟ قال : لا ، فقال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله .

وفى رواية لأبى بكر الاسماعيلى فى صحيحه ـ فقال من يمنعك منى ؟

قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ وسلم السيف فقال من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فقال:تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال لا ولكنى أعاهدك الا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس)[٤] متفق عليه

وعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٥] رواه الترمذى وقال حديث حسن معناه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١ ، وفى كتاب الدعوات رقم / ٩ ، وفى كتاب التوحيد رقم ٨ ، ٢٤ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١١٩ ، وفى كتاب الذكر حديث رقم ٦٨ ، وابو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، والترمذى فى أبواب الدعوات رقم / ٢٩ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٩ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٨٠ والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٦٩ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب القرآن رقم / ٣٤ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨ .

(٢) راجع فتح البارى ٩ / ٢٩٧ كتاب التفسير (سورة آل عمران) باب قوله : الذين قال لهم الناس . . . الخ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٢٧ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٣١١ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ (وليس متفقا عليه كما ذكر)

(٥) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، وفى الزهد ص ٥٨ ، والترمذى فى جامعه وقال حسن صحيح (تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ، والنسائى فى سننه ، وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح واقره الذهبى (فيض القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢) .

تذهب أول النهار خماصا : أى ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وعن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك : وفوضت أمرى إليك والجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا)[(١)] متفق عليه وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله ﷺ : (إذا آتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل وذكر نحو هذا الحديث ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول)[(٢)] .

(أسلمت نفسى) أى جعلتها منقادة لك ، طائعة لحكمك ، راضية بقضائك ، قانعة بقدرك ، والجأت : أى اسندت « ظهرى إليك » إلى حفظك ، رغبة ورهبة إليك ، أى طمعا فى ثوابك وخوفا من عقابك . آمنت بكتابك الذى انزلت : أى القرآن وقوله ﷺ : « على الفطرة أى على الايمان » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : (نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك يأبا بكر باثنين الله ثالثهما)[(٣)] متفق عليه .

ومعنى (الله ثالثهما) أى بالنصر والمعونة والحفظ ، أيصيبهما ضيم ؟ وعن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ان النبى ﷺ (كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله : اللهم إنى أعوذ بك ان أضل أو أضل أو أزل أو أزل ، أو أظلم او أظلم أو أجهل أو يجهل على)[(٤)] .

ومعنى « ان اضل » بفتح أوله وكسر الضاد المعجمة أى أغيب عن معالى الأمور أو أضل « بضم ففتح » أى يضلنى غير . . أو أزل فتح فكسر أى أزل عن الطريق المستقيم أو « أزل » بضم ففتح أى يستولى على من يزلنى عن معالى الأمور إلى سفسافها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال : (هذه إذا خرج من بيته : ـ بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفى رواية أبى داود فيقول يعنى الشيطان ـ لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ؟)[(٥)] .

---

(١) الحديث فى عمدة القارىء ٢٥ / ١٥٦ ـ ١٥٧ كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى أنزله بعلمه ، صحيح مسلم ١٧ / ٣٣ ـ وفى فتح البارى ١٧ / ٢٤١ : بلفظ : .أصبت أجرا .

(٢) وفى رواية للبخارى وأبى داود : فإن مت مت على الفطرة واجعلهم آخر ما تقول (فتح البارى ١٣ / ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ، عون المعبود ١٣ / ٣٨٩) .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم /٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ ، ١١ وأحمد فى مسنده ١ / ٤ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الأدب رقم ١٠٣ والترمذى فى أبواب الدعوات رقم /٢٨ ، والنسائى فى كتاب الاستعاذة رقم ٣٠ ، ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الدعاء رقم / ١٨ ، وأحمد فى مسنده ٦ / ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢

(٥) الحديث رواه أبو داود والترمذى وقال بحسن صحيح غريب وابن السنى وعبد الرزاق فى مصنفه .
(عون المعبود ١٣ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨ كتاب الأدب ـ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، تحفة الاحوذى ٩ / ٣٨٤ أبواب الدعوات ، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته ، عمل اليوم والليلة ص ٧٥ رقم ١٧٧ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، المصنف ٥ / ٣٢ ـ ٣٣ رقم ١٩٨٢٧) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان أخوان على عهد النبى ﷺ وكان أحدهما يأتى النبى ﷺ والآخر يحترف ، فشكا المحترف أخاه للنبى ﷺ فقال : لعلك ترزق به)[١] رواه الترمذى بإسناد صحيح ومعنى « يحترف » أى يكتسب ويتسبب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾

ومن قبائح هؤلاء الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، أنهم كانوا إذا أمروا بالسجود للرحمن ، سألوا متجاهلين ، وما الرحمن نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وهكذا لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وفى دينهم يترددون ، ثم ازدادوا فسوقا وعصيانا ، فقالوا نسجد لما تأمرنا ، قالوها تهكما واستهزاء ويوم القيامة سيعضون على أيديهم ندما **﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾**[٢]

وقد كان موقف فرعون مشابها لموقفهم ، لما قالوا وما الرحمن ؟ فقد قال فرعون لموسى : وما رب العالمين ؟ وهو يعلم علم اليقين ما رب العالمين ، قال تعالى : **﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لاظنك يافرعون مثبورا ﴾**[٣] .

روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين ، وقد ورد فى فضل سجود التلاوة ، قوله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)[٤] رواه احمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

(والويل : الهلاك يقصد نفسه : أى ياحزن الشيطان وياهلاكه) .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك اجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فرأيت النبى ﷺ ، قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد : كما حكى الرجل عن كلام الشجرة)[٥] رواه الترمذى .

وحكم هذا السجود كما بين العلماء : فقد ذهب جمهور العلماء إلى ان سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، لما رواه البخارى عن عمر انه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة ، فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال ياأيها الناس

---

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح : صحيح الترمذى بشرح الامام ابن العربى ٩ /٢٠٨ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ـ الطبعة الاولى ١٣٥٣ هـ مصطفى البابى الحلبى .

(٢) سورة ن الآية رقم ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ /٤٤٣ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠

إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه .

لقد اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، وقد صح عن رسول الله ﷺ انه كان يقول فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)[1] رواه الخمسة إلا ابن ماجه

وبالنسبة لسجود التلاوة فى الصلاة : يجوز للامام والمنفرد ان يقرأ كل منهما آية السجدة فى الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة رضى الله عنه : صلاة العتمة أو قال صلاة العشاء فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت ياأبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال سجدت فيها خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه[2] قال النووى : لا يكره قراءة للسجدة عندنا للامام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

ومواضع السجود فى القرآن الكريم خمسة عشر موضعا فى سورة (الاعراف آية ٢٠٦) ، (الرعد آية ١٥) ، (النحل آية ٤٩) ، (الاسراء آية ١٠٧) ، (مريم آية ٥٨) ، (الحج آية ١٨) ، (الحج آية ٧٧) ، (الفرقان آية ٦٠) ، (النمل آية ٢٥) ، (السجدة آية ١٥) (ص آية ٢٤) ، (فصلت آية ٣٧) ، (النجم آية ٦٢) ، (الانشقاق آية ٢١) ، واسجد واقترب ـ العلق آية ١٩) .

فتأمل حال السعداء من حال الاشقياء ، السعداء إذا امروا بالسجود خروا سجدا وبكيا ، الاشقياء إذا أمروا بالسجود قالوا : ﴿ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

كان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا .

ثم يأتى الجواب قاطعا والبرهان ساطعا عما سألوا عنه ، انهم لما قالوا : وما الرحمن ! جاءتهم الاجابة من قبل الرحمن فى قوله تعالى ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة أكثر من مائتى ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم بين آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال سبحانه : ﴿ وهو الذى جعل

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠١ ، وفى كتاب الجنائز حديث رقم ٧ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، وفى السجود ٧ ، وفى كتاب الجنائز رقم ١٧ ، والترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، والنسائى فى كتاب التطبيق رقم ٦٧ /٧٠ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ ، وفى أبواب الجنائز رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٦/ ٣١ ، ٢١٧ ، ٢٩٧

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأذان رقم١٠٠ ، ١٠١ ، وفى كتاب السجود رقم ١١ ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١١٠ .

الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه أو أراد ان يشكر نعمة ربه ليجنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السآمة والملل وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الآخر ، إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[(١)]

وإذ يقول سبحانه : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾[(٢)]

ويقول سبحانه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[(٣)]

وفى رحاب هذه الآيات نعيش مع قصة الايمان (للشيخ نديم مفتى طرابلس ولبنان الشمالى)

فقد كتب تحت عنوان (المطويات بيمينه) قال بأسلوب شائق ممتع فيه الروعة والجمال فى صورة سؤال وجواب التلميذ واسمه حيران بن الاضعف يسأل والشيخ وأسمه ابو النور الموزون من علماء سمرقند .

قال الشيخ : ـ والآن ياحيران بأى آيات الله فى مخلوقاته نبدأ ؟

حيران : الخيار لك يامولاى ، فمخلوقات الله فى السماء والأرض أكثر من ان تحصى ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ : ليس الخيار لى ولكنى سأتبع نهج القرآن الكريم ، وأختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة حين يقول : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[(٤)] ونقسم هذه النظرة الشاملة حين يقول ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[(٥)] ويختار من آياته ، فى الآفاق وفى أنفسنا ، أشياء يخصها بالذكر ، فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت ياحيران ، لتفصيل الكلام عن كل شىء من آيات الله ، فلابد ان نحصر الكلام فى نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لنتخذ منه ، كما أراد لنا العليم الحكيم ، منطلقا للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران : إذًا نبدأ بآيات الله فى الآفاق

الشيخ : نعم فى الآفاق .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢
(٢) سورة النور اية رقم ٤٤
(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ ـ ٧٣
(٤) سورة الاعراف آية رقم : ١٨٥
(٥) سورة فصلت آية رقم : ٥٣

حيران : ونبدأ بالسماء

الشيخ : نعم نبدأ بالسماء ياحيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ، ما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم فى كتابه الكريم : ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[2] .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾[3]

- ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾[4]

- ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾[5]

- ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[6] .

- ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾[7]

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾[8]

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾[9]

- ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[10]

- ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[11]

فتعال ياحيران ننظر كما أمر الله سبحانه ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما فى هذه السماء من شىء مخلوق بلا تفاوت ، وبنيان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، وإلى ما هى عليه هذه السماء من سعة تستحق ان يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وإلى ما فى بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق ان تكون محلا للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم بماذا أحدثك عن سعة السماء ياحيران . . ؟ ان السعة التى عرفها العلم اليوم من السماء لم تكن تخطر على قلب بشر فى العصر الذى نزل فيه القرآن .

أنت تعلم ان الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلو متر) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريبا) بهذه المسافة هى التى اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٤٧
(٢) سورة الاعراف آية رقم ١٨٥
(٣) سورة ق اية رقم ٦
(٤) سورة الرعد آية رقم ٢
(٥) سورة الانبياء آية رقم ٣٢
(٦) سورة الملك آية رقم ٣
(٧) سورة النازعات آية رقم ٢٧ ، ٢٨
(٨) سورة فاطر آية رقم ٤١
(٩) سورة الفرقان آية رقم ٦١
(١٠) سورة يس الآيات من رقم ٣٨ - ٤٠
(١١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦

عن أبعاد السماء الهائلة ؟ فمتى قيل لنا إن نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، ياحيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية إلى الأرض ، يصل نوره إلينا فى أقل من ثانيتين ، لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا اما الشمس فيصل نورها إلينا فى نحو ٨ دقائق لان بعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريبا . فهل تدرى ياحيران كم يبعد عنا أقرب نجم الينا بعد الشمس ؟

حيران : اذكر انى تعلمت فى المدرسة ان نور الشمس يصل إلينا فى ٨ دقائق ولا أذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ : ان اقرب نجم إلى الارض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريبا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريبًا .

حيران : هذا شىء هائل .

الشيخ : هذا شىء تافه ياحيران ، فوراء ذلك (النسر الطائر) الذى يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، (والنسر الواقع) الذى يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السمال الرامح) الذى يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريبا .

حيران حقا إن ذاك شىء تافه ، فهذا هو الهائل، الشيخ ـ وهذا ايضا تافه ياحيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجراتنا هذه سدم منها سديم (المرآة المسلسلة) الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو أبعد فى تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا ياحيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذى عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله : **﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾** .

حيران : سبحان الخلاق العظيم .. سبحانه .

الشيخ : هذا فى سعة السماء ، أما عدد النجوم فماذا أحدثك ؟ إنهم فى الماضى كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم صاروا يعدونها الى مليارين ـ اما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم فى المجرة التى نحن من عالمها بثلاثين مليارا .

حيران : ثلاثون مليارا فى مجرتنا وحدها .

الشيخ : نعم ثلاثون مليارا فى مجرتنا هذه التى تسمى عندنا (درب التبان)

وتسمى عند الافرنج (الدرب اللبنية) . وهذه المجرة ، التى يقع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم .

ومن جملته سديم المرآة المسلسلة بل عوالم السدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (٥٠٠) ألف سديم ، ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اتقانا ، لرأينا أكثر من مليون سديم .

حيران : ياللهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ : وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك ياحيران . . . ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع

لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . . وما هى بثوابت كما حقق العلماء فى هذا العصر ، بل كلها تدور وتجرى ، لمستقر لها فى مجريين مختلفين ، متداخل أحدهما فى الآخرة ، كأنها فوجان من النحل مختلطان .

، ولكن هذا الجرى يتم ويستمر فى مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذى كان محل القسم العظيم .

حيران : والشمس تجرى معها أيضا ؟

الشيخ : كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة ، إنها تجرى مثلها ومعها أيضا ساحبة وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الأرض .

حيران : فرج الله عنك يامولاى كما فرجت عنى . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخى فى معنى قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ .

الشيخ : ألم تتعلم ياحيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجرى ، والشمس معها تدور وتجرى إنهم عرفوا من قبل ، أنها تدور على محورها مرة فى مدة ٢٦ يوما ، ولكنهم كان يحسبونها ثابتة لا تنتقل ولا تجرى ، أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتا لا ريب فيه ، أنها تجرى ، وان النظام الشمسى كله يجرى فى السماء ، كما تجرى كل النجوم فى مجرتنا وفيما وراءها جريا عجيبا لمستقر لها ، كما قال القرآن . ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقدارا ثابتة .

مقدرة بحسب نورها وعددها ! عدوا منها فى الماضى البعيد ستة اقدار ووقفوا ، ثم مازال العلم يكشف الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ثم إلى القدر الحادى والعشرين . والعجيب فى هذه الاقدار انها تسير مترقية أو متدينة بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ، فى نسب مدهشة تطرد فى عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ فى القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ فى القدر الحادى والعشرين مليارى نجم . اما فى قوة النور ، فالعجيب ان قوة النور فى تلك الاقدار ، تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ، واما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور فى التضاؤل .

وترى مثل هذا التناسب بين الأبعاد فى عالم الشمس . فأنت تعلم أن فى المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنبتون فزحل فالمشترى ، ثم بلوتو الذى كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ فى صغر حجمه وفى بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعا لإبطال النسبة العجيبة التى سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) . هذا فى ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتى على ترتيب آخر : فأقربها عطارد الذى يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهره

ومتوسط بعدها ٦٧ مليونا ، فالأرض ومتوسط بعدها ٩٣ مليونا ، فالمريخ وبعده ١٤٢ مليونا ، فالمشترى وبعده ٤٨٤ مليونا ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليونا فأورانوس وبعده ١٧٨٢ مليونا ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليونا من الأميال .

وما ذكرت هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه فى أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوى عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : أولها (الصفر) ثم نليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦ ـ ١٩٢ ـ ٣٨٤) .

فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التى فى منزلة العدد ، عن الشمس . أى أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٦ ـ ٢٨ ـ ٥٢ ـ ١٠٠ ـ ١٩٦ ـ ٣٨٨) . فإذا أخذنا اعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التى هى فى منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول ، وبما ان منزلته فى البعد هى الاولى ، فيكون رقمها (٤) فإذا ضربنا ٤ × ٩ ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة فى بعد كل سيارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التى اكتشفوها فى تفاوت الأبعاد تسع منازل فى حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتى ، بعد المريخ صاحب العدد (١٦) ، كوكب المشترى الذى هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر فى هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التى اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور فى مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المريخ والمشترى .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا اخيرا فى هذا الفراغ الشيء الذى قدروا انه لابد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها فى الفراغ المذكور الذى بين المريخ والمشترى ، أى فى نفس المنزلة التى حسبوها من قبل فارغة فهل هذا التناسب فى مواقع النجوم وأقدارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من آثار المصادفة العمياء ياحيران ؟

حيران : زدنى يامولاى من هذه العجائب زدنى .

الشيخ : ماذا أزيدك ، خذ لك كتابا من كتب الفلك واقرأه تزدد إيمانا وخشوعا ياحيران . بماذا أحدثك ؟ أأحدثك عن أحجام النجوم والشموس التى تبهر العقول ؟ أأحدثك عن الأضواء التى تبهر الأبصار . . . ؟ وما قولى تبهر الأبصار كأنى احدثك عن شمسنا .

حيران : إذن فهناك نجوم أبهر نورا من شمسنا وأكبر .

الشيخ : وما هى شمسنا هذه ياحيران فى نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليون مليون شمعه) ، ولكن ما قولك إذا عرفت

أن نور النجم المسمى (الشعرى اليمانية) أقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة . . . وإن هنالك ، فى النجوم البعيدة ، شموسا نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة . . . .

حيران ـ ياللهول !

الشيخ : وما قولك إذا عرفت ان العلم اكتشف اليوم أن هنالك نجوما نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة . . . ؟

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : الهول الهائل فى أحجام النجوم الكبرى وأوزانها ياحيران .

فحجم أرضنا هو أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب ، والشمس فى حجمها أكبر من أرضنا (بمليون و ٣٠٠ ألف مرة) . لأن متوسط قطر الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلو مترا فى حين أن متوسط قطر الشمس هو : (مليون و ٣٩٠ ألف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض إلى قطر الشمس كنسبة (واحد إلى ١٠٩) . ومن المعلوم أن أحجام الكرات تتناسب وكعوب اقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩مكعبة) أى (مليون و ٣٠٠ ألف مرة) أكثر من حجم الأرض .

وأرضنا هذه وزنها (خمسة آلاف مليون مليون مليون) طن . أما الشمس فلا استطيع ان أقول لك كم وزنها ، ولكن أقول لك ان كتلة الشمس (masse) أى وزنها أكبر من كتلة الأرض بمقدار (٣٣٢ ألف) مرة فاضرب وزن الأرض بـ (٣٣٢ ألف مرة) وانظر هل تستطيع ان تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعد أن عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة للأرض فإنى مخبرك ان قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو أطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه إذن أعظم من حجم الشمس (بمائة مليون مرة) تقريبا .

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : وهذا أيضا ضئيل وتافه بالنسبة إلى حجم (سديم المرآة المسلسلة) الذى يضرب العلماء مثلا ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم الشمس ، فيقولون لك : (هذه الهباءة من الغبار التى تراها فى شعاع الشمس النازل من الكوة إلى أرض غرفتك كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس إلى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس الى سديم المرآة المسلسلة ، وحق لهم ان يضربوا هذا المثل ، فان كتلة سديم المرآة المسلسلة ، أى وزنها يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (ألف مليون مرة) . أما حجمه ياحيران فأعظم بكثير . . فلكى تعرف ما هو حجم سديم المرآة المسلسلة بالنسبة إلى حجم الشمس ، يجب أن تعرف مقدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذى سبق معك ان طوله مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر ، فهل تدرى كم هو طول قطر سديم المرآة المسلسلة ؟ إنه يبلغ نحو ٣٠ ألف سنه نورية . . أى أن حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس (مليون مليون مليون مليون مرة (أو الف مليار مليار مليار مرة .)

حيران : ياللهول الهائل . . سبحان الله العظيم . . . كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة

فى الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ : يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ ويقول لك : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ .

أما العلم فيقول إن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التى شاهد العلماء آثارها ،وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد اسرارها . . ولعمرى انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم اثرا من آثار المصادفة العمياء ياحيران . . . ؟

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1] .

عباد الرحمن

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ

---

(١) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

معانى المفردات

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ،
الجاهلون : أى السفهاء
سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لاسلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سلام عليك »
يبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا .
غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

الاسراف : ـ مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .
التقتير : التضييق والشح
قواما : أى وسطا عدلا

لا يدعون : أى لا يشركون
الأثام : الاثم والمراد جزاؤه
مهانا : أى ذليلا مستحقرا
لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .
واللغو ما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه .
كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه
الخرور : **السقوط على غير نظام وترتيب .**
قرة العين : يراد بها الفرح والسرور .
الامام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .
الغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة .
ما يعبأ بكم : **أى لا يعقد بكم .**
دعاؤكم : أى عبادتكم .
لزاما : **أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .**

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وصف الكافرين بالاعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له ـ عز اسمه ـ ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين وبين ما لهم من فاضل الصفات ، وكامل الاخلاق ، التى لأجلها استحقوا

جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ، وقد عد من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد ادم ﷺ إذا مشى كأنما من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدًا ، فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا ياأمير المؤمنين فعلاه بالدرة وامره ان يمشى بقوة،وإنما بالمراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما ادركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا) .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصرى فى قوله (وعباد الرحمن) قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة .

قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم بشىء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ أى إذا سفه عليهم الجهال بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ .

وروى الامام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله ﷺ : (أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به)[1] .

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥ / ٤٤٥

وقال مجاهد (قالوا سلاما) يعنى قالوا:سدادا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصرى ، قال سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ أى فى طاعته وعبادته ،كما قال تعالى : ﴿ **كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون**)[1] وقوله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾[3] .

فضل قيام الليل

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة:عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .

وابن ماجه وقال : (فيصبح نشيطا طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وإن لم يفعل أصبح كسلا خبيث النفس لم يصب خيرا)[4] رواه ابن خزيمة فى صحيحه ونحوه .

وزاد فى آخره : فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين .

المعنى :ـ

[**قافية**] **الرأس** : مؤخره ومنه سمى آخر بيت الشعر قافية .

يعقد : أى يأتى بأشياء حقيقية وينويها ويثبتها ويسحر عليها ، كى تمنع الانسان من القيام من نومه ، ليعبد ربه ، كما يعقد الساحر من سحره . قال العينى واكثر ما يفعله النساء : تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليها بالكلمات ، فيتأثر المسحور عند ذلك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابنا الكريم : ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾[5] فالذى خذل يعمل فيه ، والذى وفق يصرف عنه ، والدليل على كونه على الحقيقة ما رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر من طريق صالح عن أبى هريرة مرفوعا (على قافية رأس احدكم حبل فيه ثلاث عقد)[6] إلى أن قال بعضهم : هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه ، فكأنه يوسوس بأن

---

(١) الذاريات الآية رقم : ١٧ ، ١٨

(٢) السجدة الآية رقم : ١٦

(٣) الزمر الآية رقم : ٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم /١٢ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم /١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين رقم ٢٠٧ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم /١٨ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٩٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٣ .

(٥) سورة الفلق الآية رقم ٤

(٦) الحديث رواه ابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٣

عليك ليلا طويلا ، فيتأخر عن القيام بالليل ، وقال صاحب النهاية : المراد تثقيله فى النوم وإطالته ، فكأنه قد سد عليه سدا وعقد عليه عقدا .

يضرب : يمر بيده ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول والعجز والتقصير عن الطاعات ، وتحصيل الدرجات ، ونيل الحسنات وكسب الخيرات ، وقيل يضرب بالرقاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف** ﴾[١] ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ قائلا عند كل ضربة : نم ليلك طويل .

فارقد : نم واهدأ .

فأصبح : يستقبل يومه بسرور ، وصباحه بحبور ، وبكورته بفرح جزيل ، قوى البنية ، منشرح الصدر ، باسم الثغر ، مثلوج الفؤاد ، قرير العين ، لان الله تعالى وفقه لطاعته ، وجلب المحامد ، وكسب المحاسن ، وقد بارك له فى وقته وفى نفسه وتصرفه الحسن ، وأزال سلطان الشيطان عليه وقهره .

وإلا : وإن ترك ما كان اعتاده أو نواه من فعل الخير ، ولم يقم من نومه ، يتهجد ، طلع النهار وعليه الغضب والخبث (كسلان) ببقاء أثر تثبيط الشيطان عليه ، قال الكرمانى : وأعلم أن مقتضى (وأصبح) ان من لم يجمع الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة ، فهو داخل تحت من الصبح خبيث النفس كسلان وإن أتى ببعضها ، وقال العينى : وإن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ، يصبح خبيث النفس كسلان ؛ وفيه ان الذكر يطرد الشيطان ، وكذا الوضوء والصلاة ، ويجزىء كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، ولا تحل عقدة الجنب إلا بالاغتسال .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من ذكر ولا أنثى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا قام توضأ وصلى ، انحلت العقد وأصبح خفيفا طيب النفس قد أصاب خيرا)[٢] . رواه ابن خزيمة فى صحيحه

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[٣] . رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[٤] رواه الترمذى

---

(١) سورة الكهف الآية رقم : ١١

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ رقم ١١٣٣ ، كتاب الصلاة قال ابو بكر ابن خزيمة : الجرير : الحبل .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٢٠٧ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٤٤

(٤) الحديث رواه الترمذى فى أبواب القيامة رقم /٤٢ ، وابن ماجه فى أبواب القيامة رقم / ١٧٤ ، وفى ابواب الاطعمة رقم / ١ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٥٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم / ٤ ، وأحمد ٥ / ٤٥١ .

المعنى

أفشوا : اكثروا من رميه على من عرفت ومن لم تعرف ، والسلام من الله الأمان والرحمة .
أطعموا الطعام : اكثروا من إطعام الطعام والجود والكرم وبذل المعروف وإيواء الجائع .
وصلوا الأرحام : زوروا أقاربكم وودوهم بصلة وهدية وساعدوهم وأعينوهم واستجلبوا رضاهم .
وصلوا بالليل : - تهجدوا
بسلام : بلا عذاب
انجفل الناس : أى أسرعوا ومضوا كلهم .
استبنته : أى تحققته وتبنيته .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال ابو مالك الأشعرى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام)[1] رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى

أطاب الكلام : أحسن القول ، وأبش وجهه ، وطاب كلامه ، وعذب لفظه ، وكثر خيره ، وعم بره ولطفه ، وجل أدبه وعظم حياؤه ، ورق شعوره ودق إحساسه .
بات قائما : يذكر الله تعالى ، ويتهجد ويعبد ربه فى ليله ، والناس نائمون ، وأفشوا فعل أمر : أى أظهروه برفع الصوت ، وأن تسلم على كل من لقيته من المسلمين وإن لم تعرفه ، وبذل الطعام أن تتصدق بما فضل عن نفقة من تلزمك نفقته .

قال النووى : السلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودة ، وفى إفشائه تمكين ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم من غيرهم من أهل الملل ، مع ما فيه من رياضة النفوس ، ولزوم التواضع ، وإعظام حرمات المسلمين .

وبه يزول التنافر ياأخى المسلم فسلم ، لتدوم المحبة وتجتمع القلوب ، فعليك به ، اجعله تحيتك لأهل بيتك وللمسلمين ، وإفشاؤه سبب رضاء الله تعالى عن عبده ، ويثيب عليه ، قال ﷺ : (أفشوا السلام فإنه لله تعالى رضا) رواه عمر بن الخطاب .

وعن أبى الدرداء (أفشوا السلام كى تعلوا) حديث حسن أى إذا أفشيتم السلام تحاببتم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام)[2]

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال:صحيح على شرطهما . (الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤)
(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان صـ ٦٨ رقم ٦٤١ .

رواه ابن حبان فى صحيحه

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى أنبئنى عن كل شىء ، قال : (كل شىء خلق من الماء فقلت أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام)[1] رواه احمد وابن أبى الدنيا .

المعنى : -

طابت : فرحت وطهرت واستبشرت وطابت نفسه بالشىء : إذا سمحت به من غير كراهة ومنه الحديث أنه قال لعمار : (مرحبا بالطيب المطيب) أى الطاهر المطهر .

وقرت : سرت ومنه حديث « لو رآك لقرت عيناه » أى لسر بذلك وفرح وحقيقته : أبرد الله دمعة عينيه لأن دمعة الفرح والسرور باردة) .

وقيل : معنى أقر الله عينك بلغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره .

أنبئنى : - أخبرنى

كل شىء خلق من ماء : - الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم وكل شىء خلق منه وفى قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[2]

قيل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه موضوع على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء .

وروى عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة يارب بما بلغ عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم : كانوا يصلون بالليل ، وكنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون)[3] رواه ابن ابى الدنيا

المعنى : -

لا تروث : لا تنزل ثغلا للطعام

خطوها : أى مقدار الخطوة الواحدة نهاية امتداد البصر فى الآفاق ، بمعنى أنها تنهب الأرض نهبا وتطويها طيا بقدرة الله تعالى ، لتظهر البهجة والرواء والعزة والنعيم ، وتذهب إلى أى مكان أراده أهل الجنة ، فيراهم من هم أقل منهم عملا صالحا فى دنياهم ، ويسألون الله -عز وجل- عن سبب هذا

---

(١) الحديث رواه أحمد ٢/٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ ورواه أيضا ابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد،وابن حبان فى صحيحه،والحاكم وصححه(الترغيب والترهيب ١/٤٢٥)

(٢) سورة هود الآية رقم ٧

(٣) الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٥

النعيم ، فيتفضل المولى تبارك وتعالى بالاجابة بفضل التهجد ، وصيام النافلة ، وكثرة الصدقات ، وعمل مشروعات الخير ، وإعانة المحتاج والانفاق فى البر والجهاد فى إعلاء دين الله ، والشجاعة فى إظهار الحق ، والمروءة فى العدل والشمم فى نصر الدين ، والدفاع عن شرع الرسول ﷺ .

وروى عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (يحشر الناس فى صعيد واحد يوم القيامة فينادى مناد فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب)[1] رواه البيهقى .

المعنى : -

صعيد واحد : وجه الأرض أى مستوى .

تتجافى جنوبهم : يستيقظون ويهجرون فراش النوم فى السحر وفيه دليل على أن التهجد يمنع من الحساب .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[2] رواه البخارى ومسلم والنسائى .

المعنى : -

تورمت قدماه : أصابها ورم وانتفاخ ، وفى النهاية انتفخت من طول قيامه فى صلاة الليل ، يقال : ورم يرم ، والقياس يورم وهو أحد ما جاء على هذا البناء .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ، فقيل له : أى رسول الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله ان قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[3] رواه ابن خزيمة فى صحيحه

المعنى :

ترم : فعل مضارع مبنى للمجهول وترم بكسر الراء . من ورم جلده يرم تورم وورمه غيره توريما .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : (أفلا أحب أن أكون عبدا

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب بصيغة التمريض (روى) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل وعزاه للبيهقى .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) (فتح البارى ١٠ / ٢٠٦) ومسلم فى كتاب صفات المؤمنين واحكامهم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) ، النسائى ١ / ٢٤٤ كتاب قيام الليل وتطوع النهار ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، الترمذى (تحفة الأحوذى ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١) ، البيهقى فى السنن الكبرى ٣ / ١٦ كتاب الصلاة ، باب من وثق بنفسه فشدد على نفسه بالعبادة .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٠١ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٨٤

شكورا)[١] رواه البخارى ومسلم

المعنى :

تتفطر : أى تتشقق وتتألم من كثرة الوقوف .

عبدا شكورا : بينه ﷺ بأنه يتهجد ثلث الليل ويكثر من صوم التطوع . قال الشرقاوى : أى أترك قيامى وتهجدى لما غفر لى (فلا أكون عبدا شكورا) . يعنى أن غفران الله لى سبب لأن أقوم وأتهجد شكرا له فكيف أتركه : كأن المعنى ألا أشكره وقد أنعم على وخصنى بخير الدارين ، فان الشكور من أبنية المبالغة يستدعى نعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الاكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثم وصفه به فى مقام الاسراء ولأن العبودية تقتضى صحة النسبة ، وليست الا بالعبادة والعبادة عين الشكر ، وفيه أخذ الانسان على نفسه بالشدة فى العبادة ، وهو أفضل إن لم يخش الملل ، لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله وأثقلت ظهره الأوزار ، ولا يأمن غدا النار .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما)[٢] رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

المعنى : -

يقوم ثلثه : وقت تجلى الرب تبارك وتعالى على عباده .

ينام سدسه : ليستريح من تعب القيام فى بقية الليل ، وإنما كان هذا أحب إلى الله تعالى ، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السآمة المؤدية إلى ترك العبادة ، والله يحب أن يوالى فضله ويديم إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ، لأن النوم بعد القيام ، يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، ولأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الاخير ، أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أنه يخفى عمله الماضى على من يراه . أشار إليه ابن دقيق العيد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)[٣] رواه مسلم

المعنى :

قال النووى : فيه إثبات ساعة الاجابة فى كل ليلة ، ويتضمن الحث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) فتح البارى ٣ / ٢٥٦ باب قيام النبى ﷺ بالليل ، ومسلم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) كتاب صفات المؤمنين وأحكامهم ، إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم /٧ ، وفى كتاب الانبياء رقم /٣٨ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم /١٤ ، وفى كتاب الصيام رقم ٦٩ ، وابن ماجه فى أبواب الصيام رقم ٣١ ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧

أيها المكروب . إذا أصابك هم فالجأ إلى الله تعالى ، واستيقظ من نومك سحَرا ، وتوضأ وصل ركعتين لله نافلة ، وتضرع إليه جل وعلا عسى أن تصادفك ساعة الاجابة ، فيزيل الله كربك ويشرح صدرك ، ويذهب عسرك ويبعد ضيقك .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم)[١] رواه الترمذى .

المعنى :

دأب : العادة والشأن من دأب العمل : جد وتعب .

مكفرة للسيئات : سبب تغطية الذنوب وسترها ومزيلها وفى النهاية أصل الكفر : تغطية الشىء تغطية تستهلكه ومنه (من ترك الرحى فنعمة كفرها) .

منهاة : أى مبعدة وفى النهاية أى حالة من شأنها ان تنهى عن الاثم ، أو هى مكان مختص بذلك ، وهى مفعلة من النهى والميم الزائدة والنهى العقول واحدتها نهية بالضم ، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح .

نعم إن الذى تعود أن يقف بين يدى ربه يناجيه بلسان الاخلاص شرح الله صدره للعبادة فطهر نفسه من أدران الحياة ، فيتحرى الصالحات فيعملها .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم ، ومطردة للداء عن الجسد)[٢]رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى : -

مقربة : يفتح لكم أبواب رحماته ، ويتجلى عليكم برضوانه ، فيستجاب دعاؤكم وتشعرون بالرضا .

مطردة : - فى النهاية (هو قربة إلى الله تعالى ، مطردة الداء عن الجسد) أى أنها حالة من شأنها إبعاد الداء ، أو مكان يختص به ويعرف ، وهى مفعلة من الطرد . إن هذا وصف طبيب النفوس ، من قام ليله صفا جسمه ، وملك صحته ، وأزال الله مرضه ، وحسبك الالتجاء إلى الحكيم الخالق أن يشفيه ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾[٣]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت . وأيقظت

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ١٠١ ، ورواه ايضا ابن خزيمة فى صحيحه ٢ / ١٧٦ - ١٧٧ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٣٥

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى المجمع وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : وفيه عبدالرحمن بن سليمان بن أبى الجون وثقه دحيم وابن حبان وابن عدى وضعفه ابو داود وابو حاتم (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥) وأورده ايضا بلفظ : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهاة عن الاثم
- وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط عن ابى امامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث ، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث : ثقة مأمون وضعفه جماعة من الأئمة أ هـ

(٣) سورة الشعراء الآيات رقم : ٧٨ - ٨٠

زوجها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)[١] رواه أبو داود

المعنى : -

نضح : أن يأخذ قليلا من الماء فيرش به ، وقد نضح عليه الماء ونضحه به : إذا رشه عليه ، وفيه من السنن العشر الانتضاح .

أى يرش مذاكيره بعد الوضوء لينفى عنه الوسواس ، يدعو النبى ﷺ لمن استيقظ ليتهجد فيوقظ زوجه بالرحمة والخير ، وشموله بالبركة والرضوان فإذا فتر الصديق ، أو كسل عن اليقظة ، أتى خليله وخدنه بقليل من الماء يمره على وجهه ، ليزول نومه ، ويبعد كسله ، ويملك شعوره ، ويتعاونان على عبادة الله . هذه التربية العالية أيها المسلمون أن يتفق الرجل وزوجه على طاعة الله ، وبذا توجد الثقة والاطمئنان ويدوم العيش الرغد ، وترفرف السعادة بين المتآلفين ، وحسبك أنهما فى ظل الله يوم القيامة ، وهما أحد السبعة (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) وقد دعا ﷺ ايضا للزوجة إن استيقظت للعبادة ودعت زوجها النائم للتهجد،ان الذى يفعل ذلك بتعاليم القرآن عمل لآخرته ، ودخل فى زمرة من قال الله فيهم : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[٢] . يقول البيضاوى (مبارك)كثير النفع والفائدة ، مصدق الكتب التى قبله أو التوراة ، ولينذر أهل مكة ، وأهل الشرق والغرب ، فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على التدبر والنظر ، حتى يؤمن بالنبى ﷺ والكتاب والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة،لأنها عماد الدين وعلم الايمان .

وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غلبها النوم نضح فى وجهها الماء ، فيقومان فى بيتهما فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل إلا غفر لهما)[٣]

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ، أو صلى ركعتين جميعا ، كتبا فى الذاكرين والذاكرات)[٤] رواه ابو داود

وعن عبدالله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية)[٥]رواه الطبرانى

المعنى : -

فضل : ثواب والمعنى المحافظة على التهجد تسبب حسنات لمصليها جمة ، لبعدها عن الرياء ،

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب التطوع رقم /١٨ ، وفى كتاب الوتر رقم/١٣ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم /٥ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٠ ، ٤٣٦

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٢

(٣) جمع الجوامع ١ / ٧١٧ـ قال الهيثمى : وفيه محمد بن اسماعيل بن عياش وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٣)

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٧٥

(٥) الحديث رواه ابن المبارك فى الزهد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال الهيثمى ورجاله ثقات أ هـ وخرجه البيهقى باللفظ المذكور وصحح وقفه (فيض القدير ٤ / ٤٣٦ رقم ٥٨٧٢ ، مجمع الزوائد ٢ / ٢٥١)

ولمجاهدة النفس فى ترك لذة النوم ، وطلب مناجاة الرب جل وعلا ، وقال المناوى : يؤخذ منه أن المقتدى به المعلم غيره صلاة النهار فى حقه أفضل ، كما فى إظهار المقتدى به الصدقة بقصد أن يتبعه الناس .

وقد علق عليه الشيخ الحفنى : يؤخذ من هذا التشبيه ، أنه لو كان يصلى فى النهار ، لقصد تعليم الناس ، أو ليقتدى به غيره ، كان أفضل من صلاة الليل ، كما أن صدقة العلانية حينئذ أفضل .

وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ ان نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وترا)[١] رواه الطبرانى والبزار

المعنى : -

نصلى من الليل : صلاة التهجد وبعد ذلك نختم بالوتر . هذا فى حق من آنس القيام بالليل وضمن اليقظة وأمن الغفلة .

وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال :(صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل)[٢] رواه ابو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب

المعنى : -

مسجدى : مسجده ﷺ بالمدينة : ثواب الركعة فيه مضاعف حسنات تساوى هذا العدد فى غيره .

المسجد الحرام : - بمكة

أرض الرباط : - المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون

جوف الليل : - وسطه ، والمعنى أن ثواب الركعتين مضاعف الأجر كثير الثواب .

وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :(لابد من صلاة بليل ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل)[٣] رواه الطبرانى

المعنى : -

حلب : - أى تصلى فى وقت قدر إخراج اللبن من ضرع الشاة : أى فى نحو خمس دقائق .

الليل : - بعد راحة وفتور الجسم ، وأخذه قسطا ، ولو قليلا من النوم ولا يعد التهجد إلا بعد القيام من نومه . قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾[٤]

---

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى فى الأوسط والكبير وابو يعلى - وللبزار فى رواية : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا ان نصلى كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة نحوه - وإسناده ضعيف - قاله الهيثمى (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٠ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٤) سورة السجدة آية رقم ١٦ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فذكرت قيام الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال :(نصفه ثلثه ربعه ، فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة)[١] رواه ابو يعلى

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :(أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ، ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة)[٢] رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط

المعنى : -

أمره ﷺ للندب ، والترغيب فى قيام الليل ، وذكر الله وتسبيحه وعدم غفلة المسلم،وكنت واقفا أمام سيدنا الحسين رضى الله عنه فجاءنى رجل أعده وليا من أولياء الله ، وأكثر من ذكر هذه الجملة (من كثر دمه كثر نومه ، ومن كثر نومه فالنار أولى به) .

فأيقنت أن هذا يخاطب الجمهور ، ولكن يعلمنى لعلى أفقه فأعمل .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد : عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ؛ وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس)[٣] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : - عن الناس :

سيدنا جبريل عليه السلام يعطى درسا لأشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، ليرشد أمته ﷺ ان العمر وإن طال فمآله الفناء ، وكل محاسب على عمله ، إن خيرا وإن شرا مجازى به ومسئول عنه ، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلى بمكارم الأخلاق ، ليكسب الانسان الذكر الحسن بعد فراقه ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[٤] وأخبر أن التهجد رفعة ، ورقى ومحامد ، والعز عدم سؤال أى مخلوق .

أشراف : -

كرماء وفضلاء وأعاظم وأسياد أمتى الذين يحفظون القرآن ، ويعملون بأوامره ، ويجتنبون مناهيه ، ويصونون قراءته عن الابتذال ، ويتحرون أماكن النظافة،والمستمعين ويكونون قدوة حسنة وأسوة صالحة .

أصحاب الليل : - المتهجدون العابدون الذاكرون المستغفرون .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من صلى منكم من الليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتستمع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء وجيرانه فى مسكنه ، يصلون بصلاته ويستمعون قراءته ، وإنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين وإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يهتدى بها أهل السماء كما يهتدى بالكوكب الدرى فى لجج البحار وفى الأرض القفر ، فإذا مات صاحب القرآن

---

(١) الحديث رواه ابو يعلى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)
(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبدالله وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)
(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى :وفيهزافربن سليمان ، وثقه احمد وابن معين وابو داود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣)
(٤) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦

رفعت تلك الخيمة ، فتنظر الملائكة من السماء ، فلا يرون ذلك النور . فتلقاه الملائكة من سماء إلى سماء فتصلى الملائكة على روحه فى الأرواح ، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه ، ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم يبعث ، وما من رجل تعلم كتاب الله ، ثم صلى ساعة من ليل ، إلا أوصت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة ، أن تنبهه لساعته وأن تكون عليه خفيفة ، فإذا مات وكان أهله فى جهازه ، جاء القرآن فى صورة حسنة جميلة فوقف عند رأسه ، حتى تدرج فى أكفانه فيكون القرآن على صدره دون الكفن ، فإذا وضع فى قبره وسوى وتفرق عنه أصحابه ، أتاه منكر ونكير عليهما السلام فيجلسانه فى قبره فيجىء القرآن حتى يكون بينه وبينهما ، فيقولان له : إليك حتى نسأله ؟ فيقول : لا ورب الكعبة إنه لصاحبى وخليلى ولست أخذ له على حال ، فإن كنتما أمرتما بشىء ، فامضيا لما أمرتما ودعانى مكانى ، فإنى لست أفارقه حتى أدخله الجنة ، ثم ينظر القرآن إلى صاحبه فيقول : أنا القرآن الذى كنت تجهر بى وتخفينى وتحبنى ، فأنا حبيبك ومن أحببته أحبه الله ليس عليك بعد مسألة منكر ونكيرهم ولا حزن ، فيسأله منكر ونكير ويصعدان ويبقى هو والقرآن ، فيقول لأفرشنك فراشا لينا ، ولأدثرنك دثارا حسنا جميلا بما أسهرت ليلك وأنصبت نهارك .

قال : فيصعد القرآن إلى السماء أسرع من الطرف ، فيسأل الله ذلك له ، فيعطيه ذلك فيجىء القرآن فينزل به ألف ألف ملك من مقربى السماء السادسة فيجىء القرآن فيحييه فيقول : هل استوحشت ما زدت منذ فارقتك أن كلمت الله تبارك وتعالى ، حتى أخذت لك فراشا ودثارا ومصباحا ، وقد جئتك به فقم حتى تفرشك الملائكة عليهم السلام . قال : فتنهضه الملائكة إنهاضا لطيفا ثم يفسح له فى قبره مسيرة أربعمائه عام ، ثم يوضع له فراش بطانته من حرير أخضر حشوه المسك الأذفر ، ويوضع له مرافق عند رجليه ورأسه من السندس والاستبرق ، ويسرج له سراجان من نور الجنة عند رأسه ورجليه يزهران إلى يوم القيامة ثم تضجعه الملائكة على شقه الايمن مستقبل القبلة ثم يؤتى بياسمين الجنة وتصعد عنه ويبقى هو والقرآن ، فيأخذ القرآن الياسمين ، فيضعه على أنفه غضا فيستنشقه حتى يبعث ، ويرجع القرآن إلى أهله ، فيخبرهم كل يوم وليلة ، ويتعاهده كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده بالخير ، فإن تعلم أحد من ولده القرآن بشره بذلك ، وإن كان عقبه عقب سوء دعا لهم بالصلاح والاقبال أو كما ذكر)[1] رواه البزار .

المعنى : -

يطرد : يبعد

فساق : عصاة

مردة : جمع مارد : العاتى الشديد

خيمة : ظلة ساترة ومنه خيم بالمكان : أقام فيه وسكنه ، فاستعارها لظل رحمة الله ورضوانه ، وأمنه ، وهذا معنى « الشهيد فى خيمة الله تحت العرش) .

---

(١) الحديث رواه البزار ، قال الهيثمى قال البزار ، قال : ابن معدان لم يسمع من معاذ قلت : وفيه من لم أجد من ترجمه أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤) .

بالكوكب : أى الشديد الانارة ، كأنه نسب إلى الدر تشبيها بصفاته ، وقال الغراء : الكوكب الذى عند العرب هو العظيم المقدار ، وقيل : هو أحد الكواكب الخمسة السيارة .

لجج : فضائها الواسع ولجة البحر : معظمة ، والمعنى فى شدة تلاطم أمواجه وظلمه يسطع النور السارى .

القفر : المفازة : الصحراء التى لا تنبت ، والمعنى يستضىء الماشى فى المهامة به ، كذلك يستضاء بالقرآن .

فتلقاه : أى فتقابله بالبشرى وتستقبله بالفرح .

فتصلى : فتدعو له بنعيم روحه ، وتجعل الملائكة احتفالا بهيجا لحراسه والحافظين عليه فى حياته .

تستغفر : تكون وظيفة الملائكة طلب الاستغفار له من الله جل وعلا ، حتى ينشر ويخرج من قبره للحساب .

صلى : ذكر الله وسبح واستغفر وتهجد جزءا من الزمن فى سحره .

الليلة : الليلة الآتية الجديدة توصيها سابقتها بيقظته . . والرأفة به وتلطيف هوائها وإزالة شرها : وإبعاد أذاها ، حتى يتجدد نشاطه وتقوى صحته ويزداد انشراحا وقبولا ويشعر بالسرور

جهازه : الاستعداد لدفنه

دون : يتمثل القرآن نورا ملاصقا لصدره فوق كفنه

فيجىء القرآن : يمثل الله القرآن بشفيع قوى الحجة مدافع عنه

إليك : إبعد عنا وتنح

ولست أخذله : والله لا أهزمه ولا أتركه

فامضيا : اسألا ونفذا مهمتكما واعملا بواجبكما

ودعانى : اتركانى ملازما له .

تجهر : كنت تقرأ فى الجهر وفى السر ولا تخشى فى الله لومة لائم وتحترمنى وتعظ الناس بى وتعمل بآدابى .

ويصعدان : يذهبان إلى ربهما .

ولأدثرنك : والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعار (القميص) ، ومنه

دثرونى : أى غطونى بما أدفأ به . قال تعالى : ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾[1] . وإن القلب يدثر كما يدثر السيف فجلاؤه ذكر الله : أى يصدأ كما يصدأ السيف .

أسهرت : بعدت جفونك عن النوم .

وأنصبت : ـ **أقمت يومك فى العبادة والتلاوة** .

الطرف : لمح البصر .

(١) سورة المدثر الآيات ١ ـ ٣

مقربى : الأبرار المقربين المطيعين

فيحييه : ـ يقدم له أجل تحية مباركة للاستئناس .

فتنهضه : ـ تطلب منه تخلى هذا المكان برفق لتكسوه من أغلى الرياش وأفخر الأثاث (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

مسيرة أربعمائة عام : ـ بمقدار سير ناقة نجيبة مسرعة . قبره يساوى هذه المسافة فى الاتساع .

حشوه المسك : كثير الطيب منتشر الرائحة .

السندس : الحرير الرقيق .

الاستبرق : الحرير الغليظ . قال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عليهم ثياب سندس خضر واستبرق** ﴾[1]

يسرج : ـ يضاء له

يزهران : يلمعان وفى صفته ﷺ أنه كان أزهر اللون ، والزهر الأبيض المستنير والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان .

ياسمين : نوع من أحسن الرياحين عرفها ذكى وشذاها طيب .

غضا : طريا لم يتغير ومنه حديث على هل ينتظر أهل غضاضة الشاب أى نضارته وطراوته .

عقب : إن ترك ذرية فاسقة ، تضرع القرآن لربه عز وجل أن يوفقهم للعمل كأبيهم . وهذه بشارة عظيمة لحامل القرآن أن يبارك الله فى ذريته ويحيطهم برحمته ، ويشملهم برضاه تعالى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(من بات ليله فى خفة من الطعام والشراب يصلى تراكضت حوله الحور العين حتى يصبح)[2] رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى : ـ

تراكضت : ـ أى لازمته وأحاطت به وفى حديث ابن عمرو بن العاص (المؤمن أشد ارتكاضة على الذنب من العصفور حين يعذف به) أى أشد حركة واضطرابا ، والركض : الضرب بالرجل والاصابة بها . وفى الحديث طلب الأكل الخفيف فى العشاء وعدم تثاقل المعدة بالطعام ، رجاء اليقظة للتهجد و لذكر الله تعالى ، ليعمه نعيم الله ورضوانه ، وتحفه رياض الجنة ، وزهرتها ، ويحوطه نساء الجنة الحسان يدعون له بالتوفيق ، برجاء أن يزف إليهن يوم القيامة . ياأخى : السيدة الحسناء والغادة الهيفاء تبتهج بعبادتك وتنتظرك ، لتتمتع بها فى آخرتك وتنادى مهرها التهجد .

وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر

وعن عمر وبن عتبة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر فإن استطعت ان تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الترمذى .

---

(١) سورة الانسان الأيتان ٢٠ ، ٢١

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه أصرم بن حوشب وهو متروك (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥) .

المعنى :

جوف الليل : بعد نصف الليل إلى مطلع الفجر كما قال ﷺ : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ومن يستغفرنى فأغفر له ؟) أى تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللطف .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(ما خيب الله امرأ قام فى جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران)[١] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : ـ ما خيب :

أى ما أسقط وما حرم ، والخائب : الذى لا نصيب له فى الخير وخاب يخيب ويخوب ومنه الحديث : (خيبة لك وياخيبة الدهر)

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :(ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهرواثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء .)[٢]رواه الطبرانى

المعنى : يكفيه : يبعد عنه شرهم ويزيل ضررهم .

يذر : يترك لذته ويبتعد عن تمتعه بزوجته الحسناء حبا فى ذكر الله وتسبيحه تهجدا .

رقد : نام وأحل الله له ذلك وتمتع .

ركب : جماعة رفقاؤه

فهروا : أدلجوا طول الليلة ولم يذوقوا النوم .

هجعوا : ناموا ليلا وفى حديث الثورى : طرقنى بعد هجع من الليل . والهجع والهجعة والهجيع : طائفة من الليل .

السحر : آخر الليل يتحمل آلام السهر فى طاعة الله وذكره ويشعر بالسرور فى درك ثواب الله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى،ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم أصحابه وعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع ، فرجع حتى يريق دمه فيقول الله انظروا الى عبدى رجع رجاء فيما عندى وشفقة مما عندى حتى يهريق دمه)[٣]رواه احمد

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه ليث بن أبى سليم وفيه كلام وهو ثقة مدلس أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٤)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٤١٦ واللفظ له ، وابو يعلى والطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى بعد عزوه لهم : وإسناده حسن (مجمع الزوائد٢/ ٢٥٥)

المعنى : -

ثار : - بعد من ثار الشيء يثور : انتشر وارتفع ومنه الحديث (فرأيت الماء يثور من بين أصابعه) أى ينبع بقوة وشدة .

الشيء المذلول : الموطوء : أى ترك فراشه وغطاءه الدفء . والوطاء : ما تحت الأقدام .

حبه : أقربائه وحبيبه .

رغبة : رجاء ثوابى وحبا فى طلب رضاى

شفقة : - خوفا من عذابى ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾[1] أى خائفون .

ما عليه : علم أن الاندحار سبب موته وأسره وقتله ولكن جاهد حتى يشتهد طلبا فى نعيم الله .

يهريق : - يراق وبسال دمه ، والمعنى أن رجلين اكتسبا زيادة الأجر من الله تعالى :

أ - من هجر لذة نومه وترك سريره ليتهجد

ب - المجاهد فى سبيل الله المستبسل ولم يفر عند الهزيمة .

* وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(الرجل من أمتى يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة واذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له)[2]. رواه احمد

المعنى :

الطهور : الوضوء : أى ما يتطهر به

عقد : خبال غلب عليه الشيطان وكتفه بخيوط الكسل والغفلة وجرى مجرى عروق الدم منه رجاء نسيان ذكر الله ورقوده وسباته ، فإذا اراد الله له باليقظة ، فذكر الله حطم سلسلة من قيوده وفرق عقلة من اغلاله ، وهكذا حتى يتم الوضوء ، فيتجلى عليه الرب جل وعلا ويباهى بفعله هذا ملائكته المقربين ، ويأمرهم ان ينظروا إلى فعل طاعته ، وتذلل لربه رجاء رحمته تعالى ، ثم يبشرهم بإجابة كل ما سأل تفضلا وتكرما ، الله اكبر هذا وقت المعاملة الحسنة مع الله ، والتجارة مع الغنى الكريم والتضرع إليه وقد تكفل سبحانه بعدم رد طلب لمن سأل .

* وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : قال عبد الله : إنه مكتوب فى التوراة : « لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ما لم ترعين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل » قال ونحن نقرؤها (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين)[3] رواه الحاكم .

---

(١) سورة سأل الآية رقم ٢٧

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ٤ / ١٥٩ ، ٢٠١ - قال الهيثمى : وفيه ابن لهيعه وفيه كلام (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٤)

(٣) الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٤١٤ كتاب التفسير (سورة السجدة) وقال صحيح واقره الذهبى ولفظه ولا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ...اعين جزاء بما كانوا يعملون » .

قال الحافظ المنذرى : ابو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، وقيل سمع (الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٧)

المعنى : عبدالله : سيدنا عبدالله بن سلام كان حبرا وعالما انبأنا عما فى التوراة لسيدنا موسى ، وقد أوفقه كلام الله عز وجل فى قرآنه عن جزاء المتهجد العابد الذاكر المستغفر سحرا .

* وعن عبد بن أبى قيس رضى الله عنه قال : قالت عائشة رضى الله عنها : « لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدا »[1] رواه ابو داود

المعنى : لا تدع : لا تترك . لا : الناهية

لا يدعه : كان لا يتركه

مرض أو كسل : أعياه التعب : ولحق به العناء .

* وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان رضى الله عنه لينظر ما اجتهاده قال : « فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له ، فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ، فإذا صلى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل .

منهم : من عليه ولا له ، ومنهم : من له ولا عليه ومنهم : من لا له ولا عليه ، فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب فرسه فى المعاصى ، فذلك عليه ولا له . ومن له ولا عليه : فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس ، فقام يصلى فذلك له ولا عليه ، ومن لا له ولا عليه : فرجل صلى ثم نام فلا له ولا عليه : إياك والحقحقة وعليك بالقصد ودوامه » . رواه الطبرانى فى الكبير موقوفا .

المعنى : ـ ماجتهاده : ما اسم استفهام مبتدأ : أى شىء بلغ اجتهاده .

كفارات : ـ مزيلات الصغائر وسائر الخطايا التى يقترفها الانسان .

المقتلة : ما لم تفعل الكبائر التى أوعد الله بها العقاب الأليم ونهى عنها وشدد على مرتكبيها مثل الزنا ، والسرقة ، والشرك بالله ، والسحر ، والربا ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقذف المحصنات الغافلات ، والغيبة والنميمة ، والكبر والحسد ، والفتنة .

من له : أى يجاهد نفسه فى التوبة من المعاصى وكثرة الاستغفار والانابة إلى الله والاقلاع عن الشرور والتهجد .

فركب : أى استرسل فى إدراك شهوات نفسه وأطلق لها العنان فى فعل الموبقات ، فذلك أوزاره جمة وسيئاته كثيرة وعذابه أليم وحسابه عسير .

فذلك : ـ له الثواب الجزيل ولا ذنب عليه .

نام : ـ لا له ولا عليه .

ودوامه : ـ اى استمر فى العبادة جهد الطاقة ، ولا تتعب نفسك بكثرة السهر واترك الغلو فى العبادة ، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها ، وفيه ان الانسان يصلى العشاء وينام رجاء آن الله يوفقه بالقيام للتهجد ، لينال من الله النعيم ، ويجاب دعاؤه ، ويحذر أن يسهر فى معصية ويسامر فى غضب الله ،

وفيه النهى عن المغالاة فى العبادة « إن الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

الحقحقة : بحاءين مهملتين مفتوحتين وقافين ، الأولى ساكنة ، والثانية مفتوحة : هو أشد السير ، وقيل : هو أن يجتهد فى السير ويلح فيه ، حتى تعطب راحلته ، أو تقف ، وقيل غير ذلك .

* وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا :(ليس فى الدنيا حسد إلا فى اثنتين : الرجل يغبط ان يعطيه الله المال الكثير فينفق منه فيكثر النفقة ، يقول الآخر : لو كان لى مال لأنفقته مثل ما ينفق هذا وأحسن فهو يحسده ، ورجل يقرأ القرآن فيقوم الليل ورجل إلى جنبه لا يعلم القرآن فهو يحسده على قيامه وعلى ما علمه الله عز وجل القرآن ، فيقول : لو علمنى الله مثل هذا لقمت مثل ما يقوم)(١) رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى : -

حسد : هنا غبطة : أي تتمنى أن تفعل خيرا مثله وليس الحسد المذموم الذى هو تمنى زوال النعمة عن اخيك .

ما علمه الله عز وجل من القرآن : - يبين رسول الله ﷺ خصلتين نتمنى ان تتحلى بهما أيها المسلم :

أ - خلة الانفاق والجود على إنشاء مشروعات الخير وتشييد الصالحات وتنظر إلى المحسنين ، فتتمنى أن يكون لك مال لتعمل مثلهم .

ب - خلة التقوى المنبعثة من قراءة القرآن الداعية إلى التهجد الغارسة دوحات العلم النافع فى قلب حافظه ، فتتمنى ان تفقه القرآن وتقرأه لتظهر تعاليمه وتثمر أوراقه فى حديقتك .

الحسد : -

يطلق ويراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام بالاتفاق ويطلق ويراد به الغبطة وهو تمنى حالة كحالة المغبط من غير تمنى زوالها عنه ، وهو المراد فى هذا الحديث وفى نظائره ، فإن كانت الحالة التى عليها المغبط محمودة فهو تمن محمود ، وإن كانت مذمومة فهو تمن مذموم يأثم عليه المتمنى .

* وعن عبدالله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار،ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)(١) رواه مسلم

وعن يزيد بن الاخنس وكانت له صحبة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (لا تنافس إلا فى اثنتين : رجل اعطاه الله قرآنا ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، فيقول رجل لو أن الله اعطانى ما اعطى فلانا ، فأقوم به كما يقوم ، ورجل اعطاه الله مالا ، فهو ينفق منه ويتصدق ، فيقول رجل مثل ذلك)

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفى اسناده بعض ضعف ورواه البزار بإسناد ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٦)

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التمنى رقم / ٥ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٤٥

رواه الطبرانى فى الكبير .

تنافس : التسابق فى الخير وانتهاز فرص نيل الثواب .

آناء : ساعاته جمع إنا بالكسر والقصر أو جمع آناء بالفتح والمد قال تعالى ﴿ **ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾[١]

والمعنى انه يعظ الناس به فى أوقات الليل ان سنحت الفرصة وكذا فى النهار مع العمل به ، ويقرأ امام الفقراء ويحترم قراءته ونفسه ثم رسخ الايمان بقلبه ، فتهجد وذكر الله فى السحر .

ينفق : ينشىء به الاعمال الصالحات ومشروعات تفيد الابناء ، ويوجد اعمالا للعاطلين ، ويكسو عريانا ويطعم جائعا ويصرف فى وجوه البر ويزكى

ـ وعن فضالة بن عبيد وتميم الدارى رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من قرأ عشر آيات فى ليلة كتب له قنطار والقنطار خير من الدنيا وما فيها فإذا كان يوم القيامة ، يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهى إلى آخر آية معهُ يقول ربك عز وجل للعبد : اقبض ، فيقول العبد بيده : يارب أنت أعلم يقول لهذه الخلد ولهذه النعيم)[٢] . رواه الطبرانى

ظاهره من أى سورة ينال ثوابا لو وزن لرجحت كفته عن القنطار ، وهذا خير من نعيم الدنيا الفانى على ان الله تعالى يتفضل ويرقيه إلى درجات عالية كل آية درجة يصعد بها إلى العلياء والعز والنعيم المقيم لما فى الآيات من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه ، بمعنى انه يتهجد وبعد فاتحة الكتاب يقرأ ما تيسر من القرآن يحفظ الله له ذلك ذخيرة عنده يوم القيامة ويجازيه ، وما من كمال إلا وعند الله اكمل منه ، قال ﷺ : (ان فى الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه المقنطرين ﴾[٤]

ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)[٣] رواه ابو داود

لم يكتب من الغافلين : أى صلى نافلة وتلا فى صلاته عشر آيات عد من الذاكرين الله كثيرا ومحيت عنه الغفلة ، ومن قام اى تهجد فى صلاته فقرأ مائة آية ، كتبه الله من الطائعين الخاشعين العابدين وفيه (تفكر ساعة خير من قنوت ليلة)

---

(١) سورة طه آية رقم ١٣٠

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط ، قال الهيثمى : وفيه اسماعيل بن عياش ، ولكنه من روايته عن الشاميين وهى مقبولة (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الجهاد رقم / ٤ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٢٢ والترمذى فى أبواب الجنة رقم ٤ وأحمد ٢ / ٣٣٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى سننه واللفظ له وابن حبان ولفظه : ومن قام بمائتى آية كتب من المقنطرين ـ قال فى عون المعبود : قال السندى : والحديث سكت عنه المنذرى أ هـ (المنهل العذب ٨ / ١٥ ـ ١٦ ، عون المعبود ٤ / ٢٧٤ ابواب قيام الليل ، باب تحزيب القرآن ، موارد الظمآن ١٧٢ رقم ٦٦٢ كتاب المواقيت ، باب القراءة فى الليل .

وقال ابن الانبارى : القنوت على أربعة اقسام :
الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت أ . هـ ومنه :
أ- ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ وقيل اى الصلاة أفضل ؟
قال : طول القنوت اى الاشتغال بالعبادة ورفض كل من سواه سبحانه وتعالى فعليك أخى بكثرة القراءة فى الصلاة عسى ان تنال هذه الصفة قال تعالى :
(ب) ﴿ ان إبراهيم كان أمة قانتا ﴾[١]
(ج) ﴿ يامريم اقنتى لربك ﴾[٢]
(د) ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾[٣]

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال :(القنطار اثنا عشر ألف أوقية . . الأوقية خير مما بين السماء والأرض)[٤] رواه ابن حبان فى صحيحه

- وعن ابى امامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ومن قرأ اربعمائة آية كتب من العابدين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ومن قرأ الف آية اصبح له قنطار والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية خير مما بين السماء والأرض . أو قال : خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين)[٥] رواه الطبرانى

المعنى : -

الحافظين : الذين أجادوا معرفته وعد من المطهرين المقربين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾[٦] ما شاء الله زيادة التلاوة فى الصلاة ، تنقى صحائف القارىء ، وتطهره من الآثام ، وتجعله فى صفوف الابرار الصالحين الذين يخافون الله جل وعلا الذين يعنيهم الله بقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان)[٧]

الخاشعين : المتواضعين الذين يعنيهم الله بقوله :﴿ فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٨] .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٠
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٣
(٣) سورة الاحزاب آية رقم ٣١
(٤) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ١٧٢ حديث رقم ٦٦٣
(٥) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه يحيى بن عقبة بن أبى العيزار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧ - ٢٦٨)
(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٧) سورة الرحمن آية رقم ٤٦
(٨) سورة الحج الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥

المخبتين : زيادة التواضع والذلة لله يقال أخبت لله .
أى زاد تواضعا : الموجب : الذى اتى بفعل يوجب له الجنة وكذلك من أتى بفعل يوجب له النار
أربع خصال حازها المخبتون : أولا : خوف الله،ثانيا : الصبر عند المصائب،ثالثا : إقامة الصلاة .
رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .
صلاة التهجد سعادة وهى ثمرات دوحات نبتت فى قلوب المتقين فأزهرت .
أى الصلاة بالليل بعد العشاء وأصله ترك الهجود وهو النوم : قال ابن فارس : المتهجد : المصلى ليلا وفى نسخة من الليل
أريد ان ابين للمسلمين ان القيام ليلا لذكر الله يجلب هناءة الضمير وقرة العين وإنشراح الصدر .
أولا : لازالة سلطة الشيطان عليه وقهره وفك عقد كسله (فأصبح نشيطا)
ثانيا : سبب دخول الجنة وحصن منيع من النار ، وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر ملكين اخذاه الى النار ، فقابله آخر قال : (لن تراع لن تراع) فقص الرؤيا على أخته (السيدة حفصة) فقصتها على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل) فما ترك التهجد بعدئذ .
قال شراح الحديث : فيه ان القيام بالليل يمنع عذاب النار ، وأى فرح وعز وشعور بالنجاة والسرور من ان يضمن الانسان لنفسه السلامة من جهنم والفوز بجنة اعدها الله للمحسنين الصالحين .
ثالثا : يقف الخلائق للحساب إلا المتهجد فيمر بسلام .
رابعا : لعل المتهجد يتفق دعاؤه ساعة تفتحت لها أبواب رحمة الله تعالى فيجاب دعاؤه وينال سؤاله وتقضى آماله فينجح ويربح .
خامسا : اخبرنا الصادق المصدوق ﷺ ان قيام الليل يجدد للجسم نشاطه ويبعث الصحة ، ويقوى دورة الدم وينقيه باستنشاق نسيم السحر العليل البليل الجميل .
ويعطى الرئتين قوة ومناعة وتصح العينان ، ويسلم الرأس من عوارض الزكام والصداع ، وتطرد الأدواء عن الجسم (ومطردة للداء عن الجسد) كما قال ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام : (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة)[1]
صدق أيها المسلم واحى هذه العادة الجميلة لتحيا حياة الابرار وتعيش عيشة الاخيار الاطهار .
سادسا : تبادل الثقة بين الزوجين : الرجل يوقظ زوجته أو هى توقظ زوجها وقد دعا لهما ﷺ بالرحمة ان فعلا ذلك ، هذه هى السعادة ان يتعاونا على طاعة الله وهنا تتجدد عرى الصداقة وتقوى روابط الأسرة ، ويزول سوء التفاهم ، وتشرق أنوار السعادة على هذا البيت ، فيخرج الزوج إلى عمله قرير العين ، مثلوج الفؤاد ، آمنا على عرضه ، مطمئنا على بيته وقديما قيل (رأس الحكمة مخافة الله) وأترك للقارىء حوادث سوء النية للزوج أو الزوجة اللذين لا يخافان الله وإنها لكثيرة : شقاق وكدر وغضب ومحاكم وتبرج ونزاع وإسراف وقلة أدب ، وهكذا مما يجره عدم العمل بكتاب رب العالمين

(١) ١ - سورة النجم آيات رقم : ٢ - ٦

وسنة سيد المرسلين ونسيان قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾(١) وقوله ﷺ : (فصلى وأيقظ امرأته) .

سابعا : عد ﷺ قيام الليل شرفا وسيادة ، وعلو نفس طماعة إلى كسب المعالى ، وجنى ثمار المحامد ، ولو كشف الله بصيرته لرأى جمال الهيئة وأنوار ملائكة الرحمة ، وفرح الحور العين بعمله ، وتجليات المولى جل وعلا عليه بالرحمة واستظلاله بظل الله ، والناس غافلون ، وقد نفى ﷺ الخيبة فى طلبه والخسران فى عمله ، وكفل له الربح والفلاح وأمنه الله من المكاره وزال عنه الاخطار .

ثامنا : تخفيف الطعام فى العشاء من سنة رسول الله ﷺ لتستريح المعدة ، ويهدأ نومه وهذا نهاية الطب ومجلب للصحة .

أدلة التهجد من القرآن

قال تعالى : **﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾**(٢) .

قيل المراد بالصلاة صلاة المغرب ثم بين مبدأ الوقت ومنتهاه وقال ﷺ : (أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر وقيل : لغروبها (وقرآن الفجر) صلاة الصبح تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد قدرة الخالق جل وعلا من تبدل ظلمة الليل بضياء النهار والنوم بالانتباه ، ليعتبر العقلاء ، فيقوموا لذكر الله وشاهدنا (ومن الليل فتهجد به) اى وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة ، والضمير للقرآن (نافلة لك) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك رجاء مقام يحمده القائم فيه وكل من عرفه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى)(٣) ثم دعا ﷺ بدعاء (أدخلنى) أى فى القبر إدخالا مرضيا (وأخرجنى) اى منه عند البعث إخراجا ملقى بالكرامة ، أو أدخلنى يارب المدينة أو مكة ظاهرا عليها ، أو فيما جعلتنى من أعباء الرسالة ، وأخرجنى من مكة سالما آمنا من المشركين ، أو أخرجنى مما حملتنى من عباء الرسالة مؤديا حقه ، أو أدخلنى الغار وأخرجنى سالما وقونى بحجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكا ينصر الاسلام على الكفر . والحق الاسلام ، والباطل الشرك كان مضمحلا غير ثابت .

عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل ينكت بمخصرته فى عين واحد واحد منها فيقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب

---

(١) سورة طه آية رقم ١٣٢
(٢) سورة الاسراء الآيات رقم ٧٨ - ٨١
(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ / ٤٤١ ، ٥٢٨ عن أبى هريرة

لوجهه حتى ألقى جميعها ، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر فقال يا على : ارم به فصعد فرمى به فكسره[١] .

قال الشرقاوى : فى صحيح النووى انه نسخ عنه التهجد كما نسخ عن أمته قال : ونقله الشيخ ابو حامد عن النص وهو الاصح أو الصحيح ففى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ما يدل عليه أو فضيلة لك فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحينئذ فلم يكن فعل ذلك يكفر شيئا ، ويرجع التكاليف كلها فى حقه عليه الصلاة والسلام قرة عين وإلهام طبع ، وتكون صلاته فى الدنيا مثل تسبيح اهل الجنة فى الجنة لا على وجه الكلفة والتكليف ، وهذا كله مفرع على طريقة إمام الحرمين من أن التكليف يستلزم الوعيد ، وأما على طريقة القاضئ حيث يقول : لو أوجب الله تعالى شيئا لوجب وإن لم يكن وعيد فلا يمتنع حينئذ بقاء التكاليف فى حقه عليه الصلاة والسلام على ما كانت عليه مع طمأنينته عليه الصلاة والسلام من ناحية الوعيد ، وعلى كلا التقديرين فهو معصوم ولاذنب ولاعتب ، وأما أمره بالاستغفار فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ فهو تعبد على الفرض والتقدير : أى استغفر مما عساه ان يقع لولا عصمتك .

ب ـ ﴿ ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[٢]

ج ـ ﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾[٣] .

روى انه عليه الصلاة والسلام كان يصلى متلففا بمرط مفروش على عائشة رضى الله عنها وأصله المتزمل فأدغم التاء فى الزاى من تزمل الزمل : تحمل الحمل : أى ياأيها المتحمل أعباء النبوة قم إلى الصلاة أو داوم عليها **﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾[٤]**
قولا : أى القرآن لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذا كان عليه ان يتحملها ويحملها أمته **﴿ إن ناشئة الليل ﴾** اى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام .

أو قيام الليل على ان الناشئة له أو العبادة التى تنشأ بالليل : أى تحدث أو ساعات الليل ؛ لأنها تحدث واحدة بعد اخرى **﴿ هى أشد وطأ ﴾** أى كلفة او ثبات قدم وقرىء **﴿ وطاء ﴾** أى مواطأة القلب اللسان لها أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والاخلاص **﴿ وأقوم قيلا ﴾** اى وأشد مقالا أو اثبت قراءة لحضور القلب وهذه الاصوات .

﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾[٥] أى تقلبا فى مهماتك

---

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة الاسراء ، وفى كتاب المظالم ومسلم فى كتاب الجهاد ، الترمذى فى تفسير سورة الاسراء ـ وقال حسن صحيح ـ وأحمد ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٢) سورة الذاريات آيات : ١٥ ـ ١٩ .(٣) سورة المزمل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة المزمل آيات ٥ ، ٦

(٥) المزمل الآيات : ٧ ـ ٨

واشتغالا بها فعليك بالتهجد فإن مناجاة الحق تستدعى فراغا (قرىء سبخا) أى فراغا تفرغ قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه ودم على ذكر ربك ليلا ونهارا وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم (وتبتل) وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه .

أيها المسلم : هل تقتدى بسيدنا رسول الله ﷺ امره الله بالتهجد ، فزاد كمالا . ونصره الله ، ودانت له الأرض ، وعز ملكه وانتشر دينه ﷺ ونال الشفاعة العظمى وخصه الله بمحامد ومكارم وأخلاق .

قال تعالى : ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] ﷺ (غير ممنون) غير مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فانه تعالى يعطيك بلا توسط ، لأنك تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » ألست تقرأ القرآن ؟ بلى اقرأ قد أفلح المؤمنون اللهم صلى عليه وانفعنا بسنته ووفقنا لنهج منهجه إنك عزيز حكيم . وقد اخبر الله تعالى فى محكم كتابه انه ﷺ وأصحابه قاموا بالتهجد خير قيام ، قال جل وعلا : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾[3] (ادنى) استعار الادنى للاقل ، لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعدا منه ويقوم بذلك جماعة من أصحابك ولا يعلم مقادير ساعات الليل والنهار كما هى إلا الله سبحانه وتعالى ، ولن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة ، كما رفع التبعة عن التائب (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) : فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل : فاقرءوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم والضرب فى الأرض المسافرة للتجارة أو لتحصيل العلم .

﴿ فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة

التحذير من صلاة الانسان وقراءته حال النعاس

عن عائشة رضى الله عنها ان النبى ﷺ قال :(أذا نعس احدكم فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن احدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) . رواه مالك والبخارى ومسلم

اذا نعس احدكم وهو يصلى فلينصرف فلعله يدعو على نفسه وهو لا يدرى .

وعن انس رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال :(اذا نعس احدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما

---

(١) سورة (ن) الآيتان : ٣ ـ ٤

(٢) سورة المزمل الآية رقم : ٢٠

يقرؤه .) رواه البخارى والنسائى إلا انه قال :(اذا نعس احدكم فى صلاته فلينصرف وليرقد)[١]

نعس : اخذه النوم يقال نعس نعسة ونعاسا وهو الوسن وأول النوم ، نهى ﷺ ان يستمر الناعس فى صلاته خشية ان يدعو على نفسه وهو لا يدرى وخشية عدم إتمام الأركان ، فليقطع صلاته ولينم حتى يذهب عنه النوم ، وحتى يذهب ليفعل الوسائل التى تزيل وسنه ، وفيه ان المصلى لابد ان يملك شعوره ويعلم حركاته واقواله وان المتهجد اذا لم يذهب نومه بل غلبه ينام أحسن من الاستمرار فى الصلاة خوفا من الخلط وسب نفسه .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قام احدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع)[٢] رواه مسلم .

المعنى : استعجم : استغلق

على لسانه : اى ثقلت عليه القراءة كالأعجمى لغلبة النعاس .

قال العلقمى : قال القرطبى : القرآن مرفوع على انه فاعل استعجم اى صارت قراءته كالعجمية لاختلاف حروف النائم وعدم بيانها .

فليضجع : قال المناوى : للنوم ندبا ان خف النعاس بحيث يعقل القول ، أو وجوبا ان غلبه بحيث أفضى الى الاخلال بواجب . أ . هـ .

وقال العلقمى : لئلا يغير كلام الله ويبدله أ . هـ

وقال الحفنى : والتقييد بالليل للغالب من ان النوم فى الليل وإلا فالنوم فى النهار كذلك . أ . هـ

واقول : ينام إذا كان فى تهجد ليلا أو نافلة نهارا ، أما اذا كان يصلى الفرض وينام فيقطع صلاته ويرش على وجهه الماء ويذهب النوم عنه ويصلى خشية ان يضيع الوقت وخوفا من ذهاب الفضيلة ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

التحذير من نوم الانسان الى الصباح
وترك قيام شىء من الليل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى اصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال فى أذنه)[٣] رواه البخارى ومسلم .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوضوء رقم ٥٣ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٢ ، وأبو داود فى كتاب صلاة التطوع رقم /١٨ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٦ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب صلاة الليل رقم ٣ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٠٧ ، واحمد فى مسنده ٦ /٥٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٣ / ١٤٢ ، ١٥٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٣ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم ١٨ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، واحمد ٢ / ٣١٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ١٣ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠٥ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٥ ، وابن ماجه فى ابواب الامامة رقم ١٧٤ ، وأحمد ١ / ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ / ٢٦٠ ، ٤٢٧

المعنى : بال : قيل معناه سخر منه وظهر عليه حتى نام عن طاعة الله عز وجل كقول الشاعر :
بال سهيل فى الفضيخ ففسد .
أى لما كان الفضيخ يفسد بطلوع سهيل كان ظهوره عليه مفسدا له وعن الحسن مرسلا ان النبى ﷺ قال : (فإذا نام شغر الشيطان برجله فبال فى اذنه) وسهيل الفضيخ كوكبان وشغر رفع احدى رجليه ليبول ، والمعنى ان الشيطان يسلح على الغافل تارك التهجد وهو كالتغوط للانسان .
وروى الطبرانى فى الأوسط حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه قال رسول الله ﷺ :(اذا اراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك فقال له : (قم فقد اصبحت فصل واذكر ربك فيأتيه الشيطان فيقول : عليك ليل طويل وسوف تقوم ، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين وان هو اطاع الشيطان حتى اصبح بال فى اذنه)
المعنى : ملك : من ملائكة الرحمة الحفظة .
فصل : قربت من السحر فتهجد
قرير العين : مسرورا اقر الله عينه اعطاه حتى تفرح فلا تطمح إلى من هو فوقه ودمعة السرور باردة والحزن حارة .
وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا اصبح خبيث النفس كسلان)[1] رواه مالك والبخارى ومسلم .
فيصبح نشيطا طيب النفس قد أصاب خيرا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب خيرا .
وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(قالت ام سليمان بن داود لسليمان : يابنى : لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة)[2] رواه ابن ماجه
فقيرا : خاليا من الحسنات .
وعنه رضى الله عنه ايضا ان النبى ﷺ قال :(ما من مسلم ذكر ولا انثى ينام الا وعليه جرير معقود فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا وقد انحلت عقده كلها وان استيقظ ولم يذكر الله اصبح وعقده عليه ، واصبح ثقيلا كسلان ولم يصب خيرا) .[1] رواه ابن حبان و ابن خزيمة .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١
(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٧٤
(١) هذا الحديث رواه ابن ماجه فى صحيحه بهذا اللفظ
قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ بعد ذكره لهذه الرواية : رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما واللفظ لابن حبان وتقدم لفظ ابن خزيمة أ هـ

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ان الله يبغض كل جعظرى جواظ صخاب فى الاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة)[1] رواه ابن حبان .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الشديد الغليظ

الجواظ : الأكول

والصخاب : الصياح .

المعنى : يخبر ﷺ ان الله تعالى خلق الانسان للعمل والعبادة ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[2]

أى لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، وجعل خلقهم مغيابها مبالغة فى ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع ان الدليل يمنعه . لنا فى ظاهره قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** ﴾[3] ذرأ خلق وقد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة ، وهو منقول عن على رضى الله عنه وقيل:إلا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : كل عبادة فى القرآن توحيد والكل يوحدونه فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾[4] ﴿ **ما أريد منهم من رزق** ﴾ اى ما أريد أى أحد منكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا بما انتم كالمخلوقين له أو المأجورين به ، والمراد ان يبين ان شأنه مع عباده ليس شأن السادة من عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ، والله تعالى يرزق كل من يفتقر الى الرزق ، وفيه إيماء باستغنائه عنه . . فسبحانه غنى شديد القوة ، واذا عرفت معنى هذه الآية علمت ان الذى خلق ليأكل مذموم وتراه معتنيا بملذاته وترفه ، فيغلظ جسمه ويتضخم ، ثم يتفنن فى الطعام والشراب وينسى حقوق الله ويترك الصدقة ، ثم يكثر اللغط والسباب والفسوق والصياح ، ولا يذكر الله تعالى ، فالله ينتقم منه ويعذبه يوم القيامة ، ويمنع عنه سبحانه وتعالى رحمته ، ويحمل عليه سخطه (حمار بالنهار) اى شغال لجمع الدنيا ولا يفقه فى الدين ، وعالم بظاهر الحياة بلا عمل صالح . قال تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾

---

(١) الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه والاصبهانى (الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧)
(٢) سورة الذاريات الآيات رقم : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
(٣) سورة الاعراف الآية رقم ١٧٩
(٤) سورة الأنعام الآية رقم ٢٣
(٥) سورة الروم الآية رقم ٧

وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض قوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ اى بئس المستقر وبئس المقام جهنم .

قال ابن ابى حاتم عند قوله : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ حدثنا ابى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحارث قال : (إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى الى بعض ابوابها ، قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاساود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة) .

وقال ايضا عن عبيد بن عمير قال : ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب امثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشقارهم فكشطت لحومهم الى اقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الامام احمد بسنده عن انس عن مالك عن النبى ﷺ قال : (إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة ياحنان يامنان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا ، فينطلق جبريل فيجد اهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتنى به فانه فى مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له ياعبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى فيقول يارب ما كنت ارجو اذ اخرجتنى منها ان تردنى فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى)[1]

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أى ليسوا بمبذرين فى انفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصرون فى حقهم ، فلا يكفونهم بل عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا .

﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ .

قال الامام أحمد عن ابى الدرداء عن النبى ﷺ (من فقه الرجل قصده فى معيشته) .

وقال الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وقال الحافظ البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد فى الغني وما أحسن القصد فى الفقر وما أحسن القصد فى العبادة) .

وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن

---

(١) الحديث رواه احمد ٣ / ٢٣٠

وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) .

قال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية،حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تزانى حليلة جارك » . قال عبدالله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر)[1] وقال النسائى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ، (لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا)[2] وقال الامام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الانصارى سمعت ابا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : (ما تقولون فى الزنا ؟) قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بإمرأة جاره) قال (فما تقولون فى السرقة ؟) قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام . قال : (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من ان يسرق من بيت جاره)[3] وقال ابو بكر بن ابى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال : (ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له) . وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث ان ناسا من اهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم اتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابن ابى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل (إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك ان تقتل ولدك وتغذم كلبك ، وينهاك ان تزنى بحليلة جارك) قال سفيان وهو قوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاما**) . روى عن عبدالله ابن عمرو أنه قال : أثاما : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) نكالا : كنا نحدث انه واد فى جهنم .

وقد ذكر لنا ان لقمان كان يقول : يابنى ! إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ذكر فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى إمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بئران فى قعر

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (تفسير سورة البقرة ٢٥ ، وفى التوحيد رقم ٤٠ ، ٤٦ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤١ ، ١٤٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٤ ، واحمد ١ / ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

(٢) الحديث رواه أحمد ٤ / ٣٣٩

(٣) الحديث رواه أحمد ٦ / ٨

جهنم أجارنا الله منها ، بمنه وكرمه . وقال السدى (يلق أثاما) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا عنه وهو قوله تعالى : ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة** ﴾ أى يكرر عليه ويغلظ . ﴿ **يخلد فيه مهانا** ﴾ أى حقيرا ذليلا .

قال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على ان من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللمم** ﴾ . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[1] وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات: إحداها ان تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية ، الثانية ان تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر، الثالثة ان تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)[2] وروى فى الصحيح عنه ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل وما هن يارسول الله ؟ قال : (الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا . والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[3] وفى الصحيح عنه ﷺ ، انه سئل أى الذنب أكبر عند الله قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل ثم أى ، قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ واختلف الناس فى الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبدالله بن مسعود : هى أربعة وقال غيره هى إحدى عشر ، وقال آخر هى سبعون ، وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى : الشرك بالله ، والاصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والآمن مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنتان فى الفرج وهما : الزنا واللواطة . واثنتان فى اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة حديث رقم ١٤ ، ١٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٣٦ ، وابن ماجه فى ابواب الطهارة رقم ٧٨ ، ١٠٦ ، وأحمد ٢ / ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم ٣٥ ، وفى كتاب الايمان رقم ١٦ ، وفى كتاب الاستتابة رقم ١ ، وفى كتاب الديات رقم ٢ ، وفى كتاب الشهادات رقم ١٠ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٣ ، ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والترمذى فى أبواب البر رقم ٤ ، وفى أبواب البيوع رقم ٣ ، وفى أبواب الشهادات رقم ٣ ، وفى تفسير سورة ٤ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٣ ، وفى كتاب القسامة رقم ٤٩ ، والدارمى فى كتاب الديات رقم ٩ وأحمد ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوصايا رقم ٢٣ وفى كتاب الطب رقم ٤٨ ، وفى كتاب الحدود رقم / ٤٤ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والنسائى فى كتاب الوصايا رقم ١٢

الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهى عقوق الوالدين . والذين لا يحصرونها بعدد منهم من قال : كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقرن به من ذلك شىء فهو صغيرة . وقيل كل ما رتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة . وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة،وقيل كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة . وقيل كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة للجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر . فانظر الى من عصى أمره وانتهك محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهى مستوية فى هذه المفسدة . قالوا ويوضح هذا ان الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب . قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى . ولهذا لو شرب رجل خمرا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان اتى بإحدى المفسدتين وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب . قالوا ويدل على هذا ان المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية . فإن ملكا عظيما مطاعا لو أمر أحد مملوكيه ان يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب له فى شغل الى جانب الدار فعصياه وخالفا امره لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء ، قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة ، وهو جار المسجد اقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائة درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لا يستويان فى منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة اذا كان كل منهما مصرا على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة ان يقال إن الله عز وجل ارسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) سورة الحجر آية ٨٥
(٣) سورة الطلاق آية ١٢

الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٢] فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه وأن الشرك ظلم كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر بتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى ، فلما كان الشرك بالله منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق . وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه ان يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له فى الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عشرة . فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا ، وذلك غاية الجهل به كما انه غاية الظلم منه . . . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهى ان المشرك إنما قصده لعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، أو انه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدخلنى عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء وكان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا فى النار وموجبا سفك دماء اصحابه واستباحة حريمه وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو انه هل يجوز ان يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع ان تأتى به شريعة بل جاءت بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه الذى هو اقبح من كل قبيح ، وما السبب فى كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٣] . .

وتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فإنه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع ، الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود واسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته

---

(١) سورة المائدة آية ٩٧
(٢) سورة الحديد آية ٢٥
(٣) سورة النساء الآية رقم ٤٨ ، ١١٦

ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد انه سبحانه لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والشرك الأول نوعان ، احدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون اذ قال : وما رب العالمين ؟ . . وقال تعالى مخبرا عنه انه قال : ﴿ **وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾[1] .

فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ، لكن لا يستلزم اصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التى ترجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كمال المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون ههنا شيئان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوما اصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه اذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثانى شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل اسماءه وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق افعال نفسه ، وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وارادته ، ولهذا كانوا من اشباه المجوس ، ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم فى ربه اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احيى وأميت ، فهذا جعل نفسه ندا لله يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك ان تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأت الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزاما على طرد الدليل ان كان حقا ، ومن هذا شرك كثيرا ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم ، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ، ومن هؤلاء من يزعم ان معبوده هو الإله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم انه إله من جملة الآلهة ، وانه اذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم ان معبودهم الادنى ، يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه والفوقانى يقربه إلى ما هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله

---

(١) سورة غافر الآية رقم ٣٦ ، ٣٧

سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة ، فهو اسهل من هذا الشرك وأخف امرا ، فإنه يصدر ممن يعتقد انه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخالق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : (الشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل . قالوا وكيف ننجو منه يارسول الله ؟ قال : قل : (اللهم إنى أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم) فالرياء كله شرك . قال تعالى : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾**(١) اى كما انه إله واحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى ان تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالالهية يجب ان يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا) وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : **﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾**(٢) فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذى اتى به شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : **﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء ﴾** .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر ، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شىء منه مغفور فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بان يحب مخلوقا كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : **﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ﴾**(٣) وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم : ، **تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾**(٤) . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والاماتة والأحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٢
(٢) سورة البينة الآية رقم ٥
(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٥
(٤) سورة الشعراء الآية رقم ٩٧ ، ٩٨

الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذى ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ، فأى ظلم أقبح من هذا ، وأى حكم أشد جورا منه ، حيث عدل مَن لا عدل له يخلقَه ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾[1] فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الاقوال والأفعال ، والارادات ، والنيات ، فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ، وفى الصحيحين عنه انه قال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . .) وفى الصحيح عنه ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)[2] وفى الصحيح ايضا عنه ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك ، وفى مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[3] .وقال : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)[4] وقال : (إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[5] فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه) وقد قال النبى ﷺ اللهم لا تجعل قبرى وثنا

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١

تعليق قصير جدا على هذه الأحاديث

قال الحافظ فى الفتح ٢ / ٧١ ط : الحلبى : قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم الله ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجدا فى جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل فى ذلك الوعيد أ هـ والكلام كثير فى الرد على من يرى غير ذلك (كصاحب هذا الكتاب) ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٤٣٥

(٣) الحديث رواه ابو داود فى كتاب الجنائز رقم ٧٨ ، والترمذى فى ابواب الصلاة ١٢١ ، والنسائى فى كتاب الجنائز رقم ١٠٤ ، وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب المغازى رقم ٢٤ ، ومسلم فى كتاب الجهاد حديث رقم ١٠٦ ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، واحمد ١ / ٢٨٨ ، ٢ / ٣١٧ ، ٤٩٢

(٥) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصلاة رقم ٤٨ ، ٥٤ ، وفى كتاب الجنائز رقم ٧٠ ، وفى كتاب مناقب الانصار رقم ٣٧ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١٦ ، وفى كتاب الفتن حديث رقم ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣١ ، والنسائى فى كتاب المساجد رقم ١٣ .

يعبد)[١] . وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين وسد الذريعة ، بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس ، وأما السجود لغير الله ، فقال لا ينبغى لأحد ان يسجد لأحد إلا الله ، ولا ينبغى فى كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو فى غاية الامتناع شرعا . كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ﴾[٢] وقال : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾[٣]وقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ﴾[٤] وقوله عن الملائكة : ﴿ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾[٥] ...

فصل

ومن الشرك به سبحانه ـ الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وصححه الحاكم وابن حبان)[٧] .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبى ﷺ انه قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : أجعلتنى لله ندا . قل ، ما شاء الله وحده)[٦] وهذا مع أن الله قد آثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك . وأنا فى حسب الله وحسبك . وما لى إلا الله وأنت . وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك . والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض . ويقول : والله وحياة فلان أو يقول : نذرا لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان أو أرجو الله وفلانا ، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت . ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبى ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ فى شىء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل والانابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدا . والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وفى مسند الامام أحمد ان رجلا اتى به إلى النبى ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال قد عرف الحق لأهله) .

---

(١) الحديث رواه مالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٦ .
(٢) سورة مريم الآية ٩٢
(٣) سورة يس الآية ٦٩
(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ ، ٢١١
(٥) سورة الفرقان الآية ١٨
(٦) الحديث رواه احمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى ابواب النذور رقم / ٩ ، والنسائى فى كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى ابواب الكفارات رقم / ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم / ٦
(٧) الحديث رواه أحمد ٢/٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى أبواب النذور رقم ٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى أبواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم ٦ .
(٨) الحديث رواه احمد ١ / ٢١٤ ، ٢٢٤ ٢٨٣ ، ٣٤٧

فصل

وأما الشرك فى الارادات والنيات ، فذلك البحر الذى لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، فمن أراد بعمله غير وجه الله نوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك فى نيته وإرادته ، والاخلاص ان يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الاسلام كما قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[١] **وهى ملة إبراهيم عليه السلام التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .**

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة إن فتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول : ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه فى الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأوكسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبها والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الالهية ، فإن من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق ، فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره ، تشبها بمن له الأمر كله ، فأزمة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها احد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد فمن اقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات ، ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب ان تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة ان يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة ان يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك اقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده انه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، ومن خصائص الالهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الاصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال ان تأتى به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدى الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره ، فقد شبه المخلوق به ومنها

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٨٥

التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . واما فى جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى اطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيقة بان يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت اقدام خلقه وفى الصحيح عنه ﷺ قال ﴿ **يقول الله عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منهما عذبته** ﴾[١] وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والالهية كما قال النبى ﷺ : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون . يقال لهم : احيوا ما خلقتم)[٢] .

وفى الصحيحين عنه ﷺ انه قال : (قال الله عز وجل : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة »[٣] فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به فى صنعة صوره ، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال : « إن اخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك إلا الله »[٤] وفى لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الاملاك)[٥] فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض اسماءه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا** ﴾[٦]

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾[٧] وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله**

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب البر حديث رقم ١٣٦ ، وأبو داود فى كتاب اللباس رقم ٢٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم ١٦ ، واحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ٤٢٧ ٤٤٢ ٦ / ١٩

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب اللباس رقم ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ والترمذى فى أبواب المواقيت رقم ١٤٩

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد رقم ٥٦ ، واحمد ٢ / ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٥٢٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ١١٤ ، وأبو داود فى كتاب الأدب رقم ٦٢ ، والترمذى فى أبواب الأدب رقم ٦٦ ، وأحمد ٢ / ٢٤٤

(٥) الحديث رواه احمد ٢ / ٣١٥

(٦) سورة الفتح الآية رقم ٦

(٧) سورة فصلت الآية رقم ٢٣

تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾[١] أى فما ظنكم ، اى يجازيكم به إذا لا قيتموه وقد عبدتم غيره ، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره ، وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ، حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من انه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وانه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء الغنى عن كل شيء الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقض لحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع فى العقول والفطر ، وقبحه مستقر فى الفطر السليمه فوق كل قبيح ، يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع ، وهذا خالص حقه فمن اقبح الظلم ان يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾[٢] أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به متفرد ، وهو الالهية التى

لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسوائى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمنى حق عظمتى ولا أفردنى بما انا متفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾[٣] إلى قوله ﴿ لقوي عزيز ﴾ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وان يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾[٤] فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لايليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا ، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق اسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم . ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته

(١) سورة الصافات الآيات رقم ٨٥ - ٨٧
(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٨
(٣) سورة الحج الآيتان ٧٣ ، ٧٤
(٤) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

ومشيئته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه ما لا يشاء ويشاء مالا يكون ، فتعالى عن قولة أشباه المجوس علوا كبيرا ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أيعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البته ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، فهو سبحانه الذى جبر العبد عليه،وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول ان السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه وإليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ، ثم يعاقب عليه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس . والطائفتان ما قدر الله حق قدره ، وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه عن عرشه ان يكون مستويا عليه ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتعرج الملائكة والروح،وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء الى الأرض ، ثم تعرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله فى كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان ان يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه ، وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة مجيئه واتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئة يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التى نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله سبحانه يحل فى جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود ، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزو وضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته،أهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب . تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ، وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين ، انه ارسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ، ويقول : قال كذا وامر بكذا ، ونهى عن كذا . وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول : الله اباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقربه ، ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث ادلة تصديقه شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة،ومعلوم ان هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وروبيته تعالى الله عن قول الجاحدين . علوا كبيرا . فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز ان يعذب أولياءه ، ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كل الامرين بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه

للخبر لا للمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم انه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه ، والمسىء فيه بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين،وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه امره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلله الفضلة من قلبه وعلمه ، وقوله وعمله وماله وسواه المقدم فى ذلك ، لأنه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو فى قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه ان ساعده القدر قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى ان يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ، فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما اشرك معه أبغض الخلق اليه واهونهم عليه وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان . إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾[1] .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا . ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾[2]

فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم انه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهى التى تخاطبهم وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم انه يعبد من امره بعبادته وعبادة امه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم . لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عبد مبين . وان اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١

للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول أغراضه ، ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له وإشراكه مع الله الذى هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس** ﴾ . اى من اغوائهم واضلالهم ﴿ **وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾[1]

فهذه اشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وانه لا يغفره بغير التوبة منه ، وإنه يوجب الخلود فى النار ، وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاغيره ،كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال ان يأذن فى مشاركته فى ذلك او يرضى به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر ينافيان ذلك ، ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فصل

ويلى ذلك فى كبر المفسدة القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم اثما عند الله فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما ان من اقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقربيا اليه خيرا ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا امر مستقر فى سائر الفطر والعقول فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عباده واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة اعظم له واجلالاءفداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى عن امام المعطلة فرعون انه انكر على موسى ما أخبر به من ان ربه فوق السموات ﴿ **ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب اسباب السماوات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا** ﴾ ، واحتج الشيخ ابو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب ، وهو كتاب اجتماع

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٨

الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية فى اثبات العلوم . والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما اخبر به عن نفسه واخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا ، كانت من اكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لان المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، وقال إبليس لعنه الله ؛أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى بلا اله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الاهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ؛لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع،وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك،والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله،والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ ، والعاصى ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطىء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى قامت به السموات والأرض وأرسل الله سبحانه رسله-صلى الله عليهم وسلم-وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، كان أى الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه وتعالى القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعى فى إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبى ، ويليه من قتل إماما عادلا ، أو عالما يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم فى دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا ، الخلود فى النار ، وغضب الجبار ولعنته واعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه . فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن احمد،والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلابد ان يستوفى له فى دار العدل . قالوا فما استوفاه الوارث ، فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك بظلامته حصل له باستيفاء وارثه ، وهذا اصح القولين فى المسألة ان حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهى وجهان لاصحاب الشافعى واحمد وغيرهما ، ورأت طائفة انه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذى قد جناه قد اقيم عليه حده ، قالوا:وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ، وقد

قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ **ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾[1] وهذا فى حق التائب وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه ، قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق فى المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق للمظلوم المقتول وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولى ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح او العفو وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا ، وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من مال إلى الوارث فقد برىء من عهدته فى الآخرة ، كما برىء منها فى الدنيا . وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلماته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به فى طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بإدراكه ، وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع ، لانه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد ، وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من اخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى له كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه واخذه بل حال بينه وبينه ظلما وعدوانا فالطلب له فى الآخرة ، وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التى احرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فى حق المطالبة لمن تلف على ملكه ، فينبغى أن يقال ، فإذا كان المال عقارا وأرضا أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ما له استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا ، وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقهم منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم اولى بها من بعض والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس**

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣

جميعا ﴾[١] وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا معلوم ان إثم قاتل مائة أعظم إثما عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم ان التشبيه فى مقدار الاثم والعقوبة،والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[٣] وذلكُ لا يوجب ان لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبى ﷺ : (من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله)[٤] اى مع العشاء كما جاء فى لفظ آخر وأصرح من هذا قوله : من صام رمضان وأتبعه ستة من شوال فكأنما صام الدهر)[٥] وقوله ﷺ من قرأ قل هو الله فكأنما قرأ ثلث القرآن)[٦] ومعلوم ان ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به . فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء فى جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتى احد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فإن قيل ففى اى شىء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعا ، قيل : فى وجوه متعددة:أحدها ان كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ ، مخالف لأمره متعرض لعقوبته،وكلا منهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود فى نار جهنم واعدلهم عذابا عظيما ، وان تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبيا أو إماما عادلا أو عالما يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس . الثانى انهما سواء فى استحقاق ازهاق النفس ، الثالث انهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفسا بغير استحقاق بل لمجرد الفساد فى الأرض ولأخذ ماله فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وامكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانسانى ، ومنها انه يسمى قاتلا أو فاسقا أو ظالما أو عاصيا بقتله واحدا ، كما يسمى ذلك بقتله الناس جميعا ، ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا اتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما اتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذى مؤمنا واحدا فقد آذى جميع المؤمنين وفى اذى جميع المؤمنين اذى جميع الناس كلهم ، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فإيذاء الخفير إيذاء المخفر وقد قال النبى ﷺ : ـ (لا تقتل النفس ظلما بغير حق إلا كان على ابن ادم الأول كفل منها،لأنه أول من سن القتل ولم يجىء هذا الوعيد فى أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٢

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٦

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاذان رقم ٣٤ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ٢٦٠ ، والترمذى فى ابواب الصلاة رقم ٢٨ ،واحمد ١ / ٥٨ ، ٦٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصوم رقم ٥٩ ، وفى كتاب النكاح رقم ١ ، ومسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، والترمذى فى ابواب الصوم رقم ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، والنسائى فى كتاب الصيام رقم ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، وابن ماجه فى ابواب الصيام / ٣٢ ، واحمد ٥ / ١٤٦ .

(٤) الحديث لفظه :(من قرأ قل هو الله احد فكأنما قرأ بثلث القرآن) رواه احمد والنسائى فى اليوم والليلة عن ابى بن كعب ، أو عن رجل من الانصار ـ قال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح)
(المسند ٥ / ١٤١ ،مجمع الزوائد ٧ / ١٤٧ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٧ ط : الحلبى

وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل،لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبى - ﷺ - عمرو بن لحى الخزاعى يعذب أعظم العذاب فى النار ، لأنه أول من غير دين ابراهيم - عليه السلام - وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ (١) ، أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى جامع الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : (يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يارب سل هذا فيما قتلنى فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ (٢) ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة قال الترمذى : هذا حديث حسن (٣) .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : (أول ما ينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم ألا يأكل الا طيبا فليفعل ومن استطاع الايحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل)(٤)

وفى جامع الترمذى عن نافع قال : (نظر عبد الله بن عمر يوما الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك) قال الترمذى هذا حديث حسن .

وفى صحيح البخارى - أيضا - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - : (لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراما) (٥) .

وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال : (من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه : (سباب المؤمن فسوق . وقتاله كفر) (٦) .

وفيهما أيضا عنه - ﷺ - (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) (٧) .

وفى صحيح البخارى عنه ﷺ : (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد مسيرة

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤١

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب تفسير القرآن » ج٤ ص٣٠٦ - ٣٠٧ عن ابن عباس بلفظ « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسهبيده وأوداجه تشخب دما يقول : يارب قتلنى هذا حتى يدنيه من العرش ، قال : فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية . . » الخ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) صحيح البخارى كتاب الاحكام - باب من شاق شق الله عليه » من حديث طويل » من سَمّعَ الله به يوم القيامة . . الخ عن جندب .

(٥) الترغيب والترهيب . . كتاب الحدود . . باب الترهيب من قتل النفس . . الخ ج٣ ص٢٩٢ حديث رقم ٤ وهذا جزء من حديث ابن عمر . ثم قال المنذرى : رواه البخارى والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٦) الترغيب والترهيب كتاب الادب وغيرمباب« الترهيب من السباب واللعن . . الخ » ج٣ ص٤٦٦ الحديث رقم ٢ عن ابن مسعود - رضى الله عنه - بلفظه . .

(٧) صحيح البخارى كتاب العلم - باب « الانصات للعلماء » ج١ ص٤١ عن جرير ان النبى - ﷺ - قال له فى حجة الوداع : استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .
وانظر سنن الترمذى كتاب الفتن ابواب القدر ج٣ ص٣٢٩ حديث رقم ٢٢٨٩ .

أربعين عاما)[1] .

هذه عقوبة قاتل عدو الله اذا كان معاهدا فى عهده وامانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن .

واذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرآها النبى - ﷺ - فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها . فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم . وفى بعض السنن عنه - ﷺ - (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) .

﴿ مفسدة الزنا ﴾

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته واخته وأمه وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنه الله - سبحانه - بها فى كتابه ورسوله - ﷺ - فى سننه . قال الامام احمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنا وقد أكد الله سبحانه حرمته بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ [2] ، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار وفى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجبُّ ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [3] . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناها قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا)[4] ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الآخرة وخزى ونكال ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ الى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [5] . وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وانه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اثم العدوان ، ووقع فى اللوم ،

---

(١) « الترغيب والترهيب » كتاب الحدود باب « من قتل معاهداً . . الخ ج٣ ص٢٩٨ ، حديث رقم ٢٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه . وقال المنذرى : رواه البخارى واللفظ له ، والنسائى إلا انه قال : من قتل قتيلا من أهل الذمة » وانظر البيهقى ج٨ ص١٣٣ باب ما جاء فى اثم من قتل ذميا . . الخ بزيادة « بغير حق » وقال رواه البخارى فى الصحيح عن قيس بن جعفر . . الخ

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٦٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٣٢

(٤) صحيح البخارى « القسامة فى الجاهلية » ج٥ ص٥٦ عن عمرو بن ميمون بلفظ قال :«رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم »

(٥) سورة المؤمنون الآيات من ١ ـ ٧

فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ونظير هذا أنه ذم الانسان ، وانه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل اذا مسه الخير منع وبخل ، واذا مسه الشر جزع إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر عنهم ﴿ **الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ وأمر الله - تعالى - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[1] . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستغر الشرر .

﴿ أثر المعاصى ﴾

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها :

حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور ، ولما جلس الامام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعـاصى
وقال : اعلم بان العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصى

ومنها حرمان الرزق :

وفى المسند أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه و، تقدم ولما أن كانت تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصى .

ومنها وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريا بتركها ، وشكا رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له :

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان .

ومنها الوحشة التى تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما يبعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته

(١) سورة غافر الآية : ١٩

ولده وأقاربه وبيته وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه وقال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خلق دابتى وامرأتى ،

وفى تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه .

وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا ، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا .

وياالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى .

ومنها ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم اذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة . وهو لا يشعر كأعمى أخرج فى ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا فى الوجه حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : ان للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق .

وان للسيئة سوادا فى الوجه ، وظلمة فى القبر والقلب ووهنا فى البدن ، ونقصا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق .

ومنها أن المعاصى توهن القلب والبدن ، وأما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه .

وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون الى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم . ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا انه يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة اخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة ، منعته من عدة أكلات أطيب منها . والله المستعان .

ومنها أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فإن البر كما يزيد فى العمر فالفجور ينقص .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه ، وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصى .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده قالوا : ولاتمنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والآجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وان كانت بقضاء الله - عز وجل - فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة ، وهى حياة القلب ، ولهذا جعل الله ـ سبحانه وتعالى . . الكافر ميتا غير حى ، كما قال سبحانه ﴿ أموات غير أحياء ﴾[1] فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الانسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته ، بالله ، فتلك ساعات عمره .

فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد اذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول :﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[2] فلا يخلو اما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ، فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا ، وان كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضرارها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة ان عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وايثار مرضاته .

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة سيئة بعدها ، وان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

فالعبد اذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملنى أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية . . كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات . أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، حتى ان كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر :

وكانت دوائى وهى دائى بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله ـ سبحانه ـ برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ، ومجلسه اليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا اكثر من أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٢١

(٢) سورة الفجر من الآية : ٢٤

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه ارادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك .

ومنها ان ينسخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يافلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال النبى - ﷺ - (كل أمتى معافى إلا المجاهرين وان من الاجهار ان يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يافلان عملت البارحة يوم كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه)[١] .

ومنها أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلك الله - عز وجل - فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو فى الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائى ، ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب أعدائى ، ولا تطعموا مطاعم أعدائى ، فتكونوا أعدائى، كما هم أعدائى .

وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى - ﷺ - قال : (بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم)[٢] .

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم واذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى : ﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم** ﴾[٣] . وان عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم لهم فى قلوبهم أحقر شىء وأهونه .

ومنها ان العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله .

(١) الحديث فى رياض الصالحين-باب ستر عورات المسلمين والنهى عن اشاعتها لغير ضرورة-ص١٢٦ ولفظه ، عن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كل أمتى معافى الا المجاهرين ، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يافلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله » متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد المجلد الثانى ط دار الفكر العربى ص٥٠ بلفظه عن ابن عمر .

(٣) سورة الحج من الآية : ١٨

وقد ذكر البخارى فى صحيح على بن مسعود قال : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال : هكذا فطار)[١] .

ومنها ان غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال ابو هريرة : ان الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : ان البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

ومنها ان المعصية تورث الذل ولابد ، فان العز كل العز فى طاعة الله ـ تعالى ـ قال تعالى : **﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾**[٢] . فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها إلا فى طاعته ، وكان من دعاء بعض السلف (اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك) . قال الحسن البصرى : انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ان ذل المعصية لا تفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك .

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك واحبار سوء ورهبانها

ومنها أن المعاصى تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفىء نور العقل ، ولابد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص ، وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر ، فانه لو حضر عقله لحجزه

عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته . شهود عليه ، ناظرون اليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، ولفظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذه بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم .

ومنها ان الذنوب اذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾**[٣] قال:هو الذنب بعد الذنب وقال

---

(١) شرح السنة للامام البغوى كتاب الدعوات ـ باب التوبة ـ ج٥ ص٨٦ ط/ المكتب الاسلامى عن الحاريث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض ، فحدثنا بحديثين:حديث عن نفسه ، وحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف ان يقع ، وان الفاجر يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أشد فرحا بتوبة عبده . . . الخ

وانظر صحيح البخارى ج١١ ص١٠٢ باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٣) سورة المطففين آية : ١٤

الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ، وأصل هذا ان القلب يصدى من المعصية فاذا زادت غلب الصدى حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . .

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ـ ﷺ ـ فانه لعن على معاص والتى غيرها اكبر منها ، فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة،والواصلة والموصلة،والنامصة والمتنمصة،والواشرة والمستوشرة ، ولعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الأرض وهى اعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من رسم دابة فى وجهها،ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة فى دبرها ، وأخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب الى غير ابيه ، وأخبر ان من أشار الى اخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة ، وقد لعن الله من أفسد فى الأرض وقطع رحمه واذاه وأذى رسوله ، ولعن من كتم ما انزل الله ـ سبحانه ـ من البينات والهدى ، ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ، ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم ، ولعن رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل يلبس لباس المرأة ، والمرأة تلبس لباس الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش وهو الواسطة فى الرشوة ، ولعن على اشياء أخر غير هذه لولم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو الى تركه .

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ـ ودعوة الملائكة فان الله ـ سبحانه ـ أمر نبيه ان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وقال تعالى : **﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾** (١) . فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها .

---

(١) سورة غافر الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩

ومن عقوبات المعاصى ـ ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمره بن جندب قال : (كان النبى ـ ﷺ ـ مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة : انه أتانى الليلة آتيان وأنهما انبعثا لى وانهما قالا لى : انطلق وانى انطلقت معهما وإنا اتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتى احد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه،ومنخره الى قفاه،وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : سبحان الله ما هذان ؟ فقال لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور واذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة واذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : فقالا لى : انطلق انطلق قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا فى النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجرا قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فاتينا على رجل كريه المرأى كأكره ما أنت راء رجلا مرأىواذا هو عنده نار يحثها ويسعى حولها قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع واذا بين ظهرانى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال : قلت : ما هذا ؟ وما هؤلاء ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال : قالا لى : ارق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فد خلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قال لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر قال : واذا نهر معترض يجرى كان ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال : قالا لى : هذه جنة عدن وهناك منزلك قال : فسما بصرى صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالا لى : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما فذرانى أدخله قالا : أما الآن فلا،وأنت داخله قال : قلت لهما : فإنى رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت قال : قالا لى : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزوانى ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا ، وأما الرجل

الكريه المنظر الذى عند النار يحشها ويسعى حولها ، فانه مالك خازن جهنم ، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى - ولد على الفطرة . فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين فقال رسول الله - ﷺ - وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ﴾[١] .

ومن آثار الذنوب والمعاصى انها تحدث فى الأرض انواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى : **﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾** قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ **﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾**[٢] . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما انى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء ، وقال قتادة : اما البر فأهل العمور وأما البحر فأهل القرى والريف قلت : وقد سمى الله - تعالى - الماء العذب بحرا فقال : **﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾**[٣] . وليس فى العالم بحر حلو واقفا وانما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه ، وقال ابن زيد : ظهر الفساد فى البر والبحر قال : الذنوب ، قلت : أراد ان الذنب سبب الفساد الذى ظهر وان أراد ان الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله : **﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾** لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ، والظاهر - والله أعلم - ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : **﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾** فهذا حالنا وانما أذاقنا الشىء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصى فى الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله - ﷺ - على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستقاء من أبيارهم حتى أمر الا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الامام احمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة الحبة بقدر نواة الثمر وهى فى صبرة مكتوب عليها كان هذا ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله - سبحانه وتعلى - بما أحدث العباد من الذنوب .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص١٢٥ وما بعدها ورد الحديث عن سمره بن جندب مع اختلاف فى اللفظ .
(٢) سورة الروم الآية : ٤١
(٣) سورة الفرقان من الآية : ٥٣

وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الآن ، وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها . . وانما حدثت من قرب ، وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق فقد روى الترمذى فى جامعه عن النبى - ﷺ - انه قال :(خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعا[1] ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله ان يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة أخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه - ﷺ - فيملأ الارض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقمة الواحدة يكفى الفئام من الناس وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله - تعالى - التى محقتها الذنوب والكفر ، ولا ريب ان العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقية آثارها سارية فى الأرض تطلب ما يشاء ، كلها من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار فى الأرض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصى من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولا وآخرا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهنا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء ، وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شىء من الروح والرحمة والبركة .

ومن عقوباتها : انها تطفىء من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فان الغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبى - ﷺ - أغير الخلق على الأمة ، والله - سبحانه - أشد غيرة منه كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال :(اتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير منى)[2] وفى الصحيح ايضا عنه انه قال - ﷺ - فى خطبة الكسوف (يا أمة محمد ، ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته)[3] وفى الصحيح - أيضا - عنه - انه قال : (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا احد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك اثنى على نفسه)[4] فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان . والله - سبحانه -

---

(١) مسند الامام احمد ج٢ ص٣١٢ ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ : «خلق الله - عز وجل - آدم على صورته طوله ستون ذراعا . . الخ

وانظر كنز العمال ج٦ ص١٢٩ حديث رقم ١٥١٢٩ وعن ابى هريرة بلفظ « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعا . . الخ »

(٢) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظه .
وانظر مسند الامام احمد ج٤ ص٢٤٨ ورد الحديث عن المغيرة بن شعبه مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظ « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزنى عبده أو أمته

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٨١

مع شدة غيرته يحب ان يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ، ولاجل ذلك ارسل رسله وانزل كتبه اعذارا وانذارا وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيرته من تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه ، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذر ولاتدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر . وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : (إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة من غير ريبة)[1] وذكر الحديث وإنما الممدوح اختزان الغيرة بالعذر فيغار فى محل الغيرة ويعذر فى موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا .

ولما جمع ـ سبحانه ـ صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له بل هو مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه ـ سبحانه ـ فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له ، فانه ـ سبحانه ـ رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف ، حتى يحب أهل الحفاء ، جميل يحب ما يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ، ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والارادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة ، وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به ، والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس ، وقد تضعف فى القلب حدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ، ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك ، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له فى تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ج٩ ص١٥٦ كتاب السر ـ باب الخيلاء فى الحرب ـ ورد الحديث عن جابر بن عتيك بلفظ : « ان من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغض الله ، فاما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض فالغيرة فى غير ريبة .. الخ

قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصى الجاموس التى تدفع بها عن نفسه وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير،وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه ـ ﷺ ـ انه قال :(الحياء خيركله)[1]وقال : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت)[2]وفيه تفسيران : أحدهما : انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح ، اذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يوافقها . وهذا تفسير ابى عبيدة والثانى : ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغى تركه ما يستحى فيه من الله ، وهذا تفسير الامام احمد فى رواية ابن هانى فعلى الاول : يكون تهديدا كقوله :﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾[3]وعلى الثانى : يكون اذنا واباحة . فان قيل:فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار احد المعنيين يوجب اعتبار الآخر ، والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله،والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء ، واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال : فديت من لا يفلح .

والحياء مشتق من الحياة والغيث سمى حيا بالقصر،لان به حياة الأرض والنبات والدواب . وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطالبه حثيثا ، ومن استحى من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستح من الله ـ تعالى ـ من معصيته لم يستح الله من عقوبته .

ومن عقوباتها : انها تضعف فى القلب تعظيم الرب ـ جل جلاله ـ وتضعف وقاره فى قلب العبد ولابد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر وقال : انما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعى فى عفوه لا ضعف عظمته فى قلبى ، وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله ـ تعالى ـ وجلاله فى قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل ، وكفى بالعاصى عقوبة ان يضمحل من قلبه تعظيم الله ـ جل جلاله ـ وتعظيم حرماته ويهون عليه ، ومن بعض عقوبة هذا ان يرفع الله ـ عز وجل ـ مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته

(١) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ ص٢٦ باب « ما جاء فى الحياء ».. ورد الحديث بلفظه عن انس
(٢) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ باب « ما جاء فى الحياء » ص٢٧ ورد الحديث بلفظه عن حذيفة .
(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٠

يعظم الناس حرماته ، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع الا ينتهك الناس حرماته ، ام كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ، أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار - سبحانه - الى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وانه اركس اربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وانه نسيهم كما نسوه واهانهم كما اهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا امره ، ولهذا قال تعالى : فى آية سجود المخلوقات له : ﴿ ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾ (١) . فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد ان اهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من اكرم .

ومن عقوباتها : انها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) فأمر بتقواه ونهى ان يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى : أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره ، فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط فى سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنما هى سحابة صيف أو حبال طيف .

أحلام نوم أو كظل زائل   ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض .

من كل شىء اذا ضيعته عوض   وليس فى الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شىء ما سواه ولا يعوض منه شىء ، ويغنى عن كل شىء ولا يغنى عنه شىء ، ويمنع من كل شىء ولا يمنع منه شىء ، ويجير من كل شىء ولا يجير منه شىء ، كيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره ، حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان اذا باشر القلب منعه عن المعاصى ، فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه

(١) سورة الحج من الآية : ١٨
(٢) سورة الحشر الآيتان : ١٨ ، ١٩

ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين ارادة المعاصى فضلا عن مواقعتها ، فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فان اراد الله به خيرا أقره فى دائرة عموم المؤمنين ، فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبى - ﷺ - (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، اياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد) . ومن فاته رفقة المؤمنين خرج عن دائرة الايمان ، فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الاجر العظيم ﴿ **وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما** ﴾[١] .

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾[٢] ومنها استغفار حملة العرش لهم ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾[٣] .

ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا** ﴾[٤] ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿ **اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾[٥]. ومنها ان لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[٦] ومنها معية الله لاهل الايمان ﴿ **وإن الله مع المؤمنين** ﴾[٧] ومنها الرفعة فى الدنيا والآخرة ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[٨] ومنها اعطاهم كفلين من رحمته واعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم، ومنها الود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وانبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم الخوف يوم يشتد الخوف ﴿ **من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٦] ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم المستقيم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾[١٠] .

والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان ، فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئا يخرجه من دائرة الايمان ، ويحول بينه وبينه ، ولكن لا تخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب واصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٦
(٢) سورة الحج من الآية : ٣٨
(٣) سورة غافر من الآية : ٧
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٧
(٥) سورة الانفال من الآية : ١٢
(٦) سورة المنافقون من الآية : ٨
(٧) سورة الأنفال من الآية : ١٩
(٨) سورة المجادلة من الآية : ١١
(٩) سورة المائدة من الآية : ٦٩
(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤

الاسلام بالكلية ، ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم : انتم تخافون الذنوب وانا أخاف الكفر .

ومن عقوباتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة،هذا ان لم ترده عن وجهته الى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسير ، فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان .

فالذنب إما يميت القلب ، وإما يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ، ولابد حتى ينتهى ضعفه الى الاشياء الثمانية التى استعاذ منها النبى - ﷺ - وهى الهم ، والحزن ، والكسل ، والعجز ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فإن المكروه والوارد على القلب ان كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وان كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان ، فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وان كان لعدم ارادته فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فان عدم النفع منه ان كان ببدنه فهو الجبن ، وان كان بماله فهو البخل ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان استيلاء الغير عليه ان كان بحق فهو من ضلع الدين ، وان كان بباطل فهو من قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال النعم ، وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه .

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فمازالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال على بن ابى طالب - رضى الله عنه : مانزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى :﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾[1]وقال تعالى : ﴿ **ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[2]فاخبر الله تعالى انه لا يغير نعمته التى انعم بها على احد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره واسباب رضاه باسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[3]فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[4]وفى بعض الآثار الالهية عن الرب - تبارك وتعالى - انه قال : ﴿ **وعزتى وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه الى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب عبدى الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما اكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره الى ما يحب** ﴾ وقد أحسن القائل :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان الذنوب تزيل النعم

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٣٠
(٢) سورة الأنفال من الآية : ٥٢
(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦
(٤) سورة الرعد من الآية : ١١

وحطها بطاعة رب العباد | فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت | فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى | لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم | شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شىء عليهم أضر | من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن | قصور واخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعم | وكان الذى نالهم كالحلم

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الرعب والخوف فى قلب العاصى فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائرإن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وان سمع وقع قدم خاف ان يكون نذيرا بالعطب ، يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصدا اليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء .

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا | ان المخاوف والاجرام فى قرن

ومن عقوباتها : انها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشا مذ وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبينه ، وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووزان بين لذة المعصية وما يولد فيه من الخوف والوحشة . لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف ..

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب | فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب ـ سبحانه ـ وكلما اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وان كان ملابسا له قريبا منه ، ويجد أنسا قويا بينه وبين من يحب ، وان كان بعيداً عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها ، وحشة الشرك الكفر ، ولا تجد أحدا يلابس شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب مالابسه منه فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه .

ومن عقوباتها : انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى

الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها الا تركها ، وقد أجمع السائرون الى الله ان القلوب لا تعطى مناها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولايصح ذلك إلا بمخالفة هواها ، وهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته ، فإن استحكم المرض قتل أو كاد ، وكما ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة لايشبه نعيم أهلها نعيم البتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ﴾[1] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة كذلك أعنى : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وإنقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة ، وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئا غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ، فهو يضرب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه . وأنواع المعارضات ، فاذا سلبه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار، وأما فى البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجى عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طربا وفرحا وانسا بربه ، واشتياقا اليه ، وارتياحا بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم : فى حال نزعه واطرباه ، ويقول آخر : ان كان اهل الجنة فى مثل هذا الحال انهم لفى عيش طيب ، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن فى هذا العقد وهو يرى انه قد غبن اذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين ، فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول - ﷺ - وقد بعتها بغاية الهوان .

اذا كان هذا فعله عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾[2]

---

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ - ١٤

(٢) سورة الحج من الآية : ١٨

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصر القلب وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية ، وقد قال مالك للشافعى - رحمهما الله تعالى - لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إنى أرى الله - تعالى - قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم - فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ويا سرة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها ، فاذا كانت عند الموت ظهرت فى البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبى - ﷺ -: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وان الله ينورها بصلاتى عليهم.)[1] فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل احد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها ، فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾[2]. والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنها قوله تعالى :﴿ يدسه فى التراب ﴾[3] فالعاصى يدس نفسه فى المعصية ويخفى مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به،قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهى أذل شيء وأحقره وأصغره لله - تعالى - وبهذا الذل حصل لها هذا الشرف والعز والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

ومن عقوباتها أن العاصى دائما فى أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوء حالا عن أسير أسره أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ، وكيف يخطو خطوة واحدة اذا تقيد القلب طرقته الآفات ، وكلما نزل استوحشه جانب بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات ، وفى الحديث : (الشيطان ذئب الانسان) وكما ان الشاة التى لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد اذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد ، وانما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب الى الهلاك ، فأحمى ما تكون الشاة اذا قربت من الراعى ، وانما يأخذ الذئب القاصى من الغنم ، وهى أبعدهن من الراعى ، وأصل هذا كله

---

(١) سنن الدار قطنى كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر ج٢ ص٧٧ حديث رقم ٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن انس .
(٢) سورة الشمس الآيتان : ٩ - ١٠
(٣) سورة النحل من الآية : ٥٩

أن القلب اذا كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد العبد عن الله ، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة اعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك اعظم من ذلك كله .

ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فان أكرم الخلق عند الله اتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده ، فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده ، واذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ، ساقط القدر ، ذرى الحال ، لا حرمة له ، فلا فرح له ، ولا سرور ، فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل هم وغم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة .

ومن أعظم نعم الله على العبد ان يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار *إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[١] أى خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سأله ابراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قال : ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾[٢] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وعن نبيه : ﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾[٣] وقال لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾[٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

ومن عقوباتها : انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعابد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والرضى ، ونحوها ، وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسيء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التى توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان .

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب . ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[٥] .

---

(١) سورة ص الأيتان : ٤٥ ـ ٤٦
(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٤
(٣) سورة مريم الآية : ٥٠
(٤) سورة الشرح الآية : ٤
(٥) سورة الحج الآية : ١٨

ومن عقوباتها : انها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن انما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾(١) .

وكقوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(٣) .

ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعص من هو فى قضيته وفى داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضب عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه وروح رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر الى وجهه فى زمرة أوليائه ، الى أضعاف اضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه ، وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

واما تأثيرها فى نقصان العقل العيشى فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت ان الطريق الذى يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش انما هو فى رضاء من النعم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه ، ففى رضاه قرة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به ، بل اذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضا منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من نعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال سبحانه : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجعون ﴾(٤) .

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر ، والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا .

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين وربه ـ تبارك وتعالى ـ واذا وقعت

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧

(٢) سورة المائدة من الآية : ١٠٠ ، وسورة الطلاق من الآية : ١٠

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦٩

(٤) سورة النساء من الآية : ١٠٤

القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طرفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين اعداء عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ، فلا تعلم نفس مالهذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وانواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله ـ سبحانه ـ وبين الشيطان فان اعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وان تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾[١] يقول سبحانه لعباده :أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتى كلهم ان يسجدوا له تكريما وتشريفا فأطاعونى ، وأبى عدوى وعدوه فعصى أمرى وخرج عن طاعتى ، فكيف يحسن بكم بعد هذا ان تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعوه فى معصيتى ، وتوالوه فى خلاف مرضاتى ، وهم أعدا عدو لكم ، فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى اعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعى انك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم ، فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه اعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل ان يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ **وهم لكم عدو** ﴾ وكما نبه على قبحها بقوله تعالى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ فتبين ان عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته ، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال بئس للظالمين بدلا ، ويشبه ان يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفا عجيبا ، وهو انى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتى فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة ان عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة .

ومن عقوباتها : انها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجملة انها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وألو استقاموا على الطريقه لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه** ﴾[٣] .

وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفى الحديث : (ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وان الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط »[٤] وقد تقدم الأثر الذى

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٥٠

(٢) سورة الأعراف من الآية : ٩٦

(٣) سورة الجن الآية : ١٦٠ وجزء من الآية : ١٧

(٤) كشف الخفاء ج١ ص٢٦٨ حديث رقم ٧٠٧ ورد بلفظ . . ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت النفس حتى تستكمل =

ذكره احمد فى كتاب الزهد (أنا الله اذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى ، واذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد ، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه) وقد تقدم ان عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، أو الانابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به فى الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض،واذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له فى شيء له من ذاته البتة . عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ، وانما كانت معصية الله سببا لمحق بركة الرزق والأجل ؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل ، والشرب ، واللبس ، والركوب ، والجماع ، لما فى مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها،وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فان الرب هو الذى يبارك وحده والبركة كلها منه ، وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك الا ما نسب اليه ، اعنى الى محبته وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب الى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريبا من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه ، وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه السبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه ابليس وجعله ابعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر ، والرزق ، والعلم ، والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصى الله به ، أو بدن ، أو جاه ، أو علم ، أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ، ولهذا من الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ الف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه . والعلم وفى الترمذى عنه - ﷺ - (الدنيا ملعونة

= رزقها ، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب . . وانظر حلية الأولياء ج١٠ ص٢٧ عن ابى امامة قال : قال رسول الله - ﷺ - « ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق ان يطلبه بمعصية فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

ملعون ما فيها إلا ذكر الله ـ عز وجل ـ وما والاه أو عالما أو متعلما)[١] وفى أثر آخر :(ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله هذا هو الذى فيه البركة خاصة والله المستعان .

ومن عقوباتها انها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئا لأن يكون من العلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : علية ، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعليين فى الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما فى مسند احمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال : (جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعليين)[٢] وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو ان العبد قد ينزل نزولا بعيدا أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض لا يفىء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال : (ان العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)[٣] فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته او الى أرفع منها بحسب يقظته ، ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته ، وقد لا يصل اليها ، وقد يرتفع عنها ، فانه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون اضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت ، ومنهم من يكون نزوله الى معصية اما صغيرة وإما كبيرة ، فهذا يحتاج فى عودته الى درجته الى توبة نصوح ، وانابة صادقة ، واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التى كان فيها بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أولايعود بناء على أن التوبة تأثيرها فى اسقاط العقوبة ، واما الدرجة التى فاتته فانه لايصل اليها قالوا : وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع ، وربح بجملة أعماله ، فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى اعلى

---

(١) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٧٧ كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة حديث رقم ٤١١٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد-باب ما قيل فى الرماح ج٤ ص٤٩ عن ابن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ « جعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى »
وانظر مسند الامام احمد ج٢ ص٥٠ فقد ورد هذا الحديث جزءا من روايتين لابن عمر .

(٣) صحيح البخارى كتاب الرقاق ـ باب حفظ اللسان ج١١ ص٣٠٨ حديث رقم ٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨ الروايتان عن ابى هريرة فقد ذكر الحديث مع اختلاف يسير فى الفاظ الحديث الذى معنا .
وانظر مسند الامام احمد المجلد الثانى ص٣٧٩ فقد ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ « ان العبد يتكلم بالكلمة يزل بها فى النار ابعد ما بين الشرق والغرب »

وبينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود فان الذى لم ينزل يعلو عليه ولابد ، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكما مقبولا فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته ، ومنهم من يعود الى درجته . قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله ، وقد تقوى على هذه الأمور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ، ومولاه،والى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه من ان يشمخ بها أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدى ربه مستحيا خائفا منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته ، عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل :

استأثر الله بالوفى وبالحمد ... وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن اليه اذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه ، فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذى لاشىء أعظم منه ، الكبير الذى لاشىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ، ولا أجمل ، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فان مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله أهل السموات والأرض ، ولولا ان رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لزلزلت الأرض بمن قابله بمالا تليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض ، من معاصى العباد قال تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾[1] فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ، وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، وقد أخرج الله ـ سبحانه ـ الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه ولعن إبليس

(١) سورة فاطر الآية : ٤١

وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى درج الجنان لذى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على اعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته ، هذا كله اذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى امر يقدح فى اصل ايمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد اسلامه من رأسه .

ومن عقوباتها : انها تجترىء على العبد مالم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترىء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغرير وانسائه ما مصلحته فى ذكره ومضرته فى نسيانه ، فتجترىء عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصيته الله أزا وتجترىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى فى غيبته وحضوره ،ويجترىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف : انى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق امرأتى ودابتى .

وكذلك يجترىء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التى ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجترىء عليه نفسه فتتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب ـ تبارك وتعالى ـ الذى من دخله كان من الآمنين فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شىء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وارشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التى ترد المرض وتقاومه،فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ، ولابد للعبد من شىء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم .

وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى ، فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فان كل احد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وألبسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفى ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما ان أسفههم من عكس الأمر والمعاصى تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه فى تحصيل هذا العلم . وايثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم

وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له فى الدارين ، فاذا وقع فى مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض ، فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه شيئا ، والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب ، فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم ملكها ، وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصى وتضعف أعنى النفس المطمئنة وان كانت الامارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت هذه ، فبقى الحكم والتصرف للأمارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة ، فهذا ميت فى الدنيا ميت فى البرزخ غير حى فى الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط ، والمقصود ان العبد اذا وقع فى شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شىء له : فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله ـ تعالى ـ والانابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور ، بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه ان تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصى لمن له جند يدفع عنه الاعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع اخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه ان يستفرغوا وسعهم فى الدفع عنه بغير قوة ، هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر ، وهو ان يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله ـ تعالى ـ فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل : لا إله إلا الله ، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها ، وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فقال شاه رخ غلبتك ، ثم قضى ، وقيل ، لآخر : قل لا آله إلا الله فقال : يارب قائلة يوما وقد تعبت .: أين الطريق الى حمام منجاب ثم قضى وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يهزى بالغناء ويقول:تاتا نتنتا ، فقال : وما ينفعنى ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ، ذلك فقال : وما يغنى عنى وما أعلم أنى صليت لله ـ تعالى ـ صلاة ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى،وقيل لآخر ذلك:فقال:كلما أردت ان أقولها فلسانى يمسك عنها،وهناك بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتى قضى ، وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه : لا إله إلا الله وهو يقول : هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى ، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، واذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال ادراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصى وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ـ تعالى ـ وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه؛لينال منه فرصته؛فان ذلك آخر العمل فاقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو فى تلك

الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء** ﴾[١] فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله - سبحانه - قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا فبعيد من قلبه بعيد من الله - تعالى - غافل عنه متعبد لهواه ، مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصية الله ان يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالأيمان ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾[٢] .

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه	هل أتاك تواقيع أم انت تملكه
جمعت شيئين أمنا واتباع هوى	هذا واحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شىء منك زهدك فى	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذاً بالله أنت أم	المغبون فى البيع غبنا سوف تدركه

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد ، فإذا عمى القلب وضعف فإته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه فى نفسه وفى غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته ، فان كمال الانسان مداره فى أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وايثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله - تعالى - فى الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين وهما اللذان أثنى الله بهما - سبحانه - على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - فى قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾[٣] فالأيدى: القوة فى تنفيذ الحق ، والأبصار: البصائر فى الدين فوصفهم بكمال ادراك الحق ، وكمال تنفيذه .

وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام : فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله - تعالى - القسم الثانى : عكس هؤلاء من لا بصيرة له فى الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم اكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحمى الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار، القسم الثالث : من له بصيرة فى الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه .
القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة فى الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحما ، والدواء النافع سما ، وليس فى هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ، ولا هو موضعا لها سوى القسم الأول قال

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧
(٢) سورة القلم الآيتان : ٣٩ - ٤٠
(٣) سورة ص الاية : ٤٥

الله ـ تعالى :﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنايوقنون ﴾[١] فأخبر ـ سبحانه ـ ان بالصبر واليقين نالوا الامامة فى الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله ـ سبحانه ـ من جملة ـ الخاسرين وأقسم بالعصر الذى هو زمن سعى الخاسرين والدائخين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوابالصبر ﴾[٢]فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه ويحثه عليه ، فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين ، فمعلوم ان المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب ، فلا يدرك الحق كما ينبغى ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس ادراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقا ، والحق باطلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا ، فينتكس فى سيره ويرجع عن سفره الى الدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التى رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيمتلىء نورا،فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ، فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الأنس .

فيا نظرة من قلب حر منور — يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذه الشيطان وطنه ، وأعده مسكنه،إذا تصبح بطلعته حياه وقال : فديت من لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه .

أنا قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها — فأنت قرين لى بكل مكان
فان كنت فى دار الشقاء فإننى — وأنت جميعا فى شقا وهوان

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[٣] .

فأخبر ـ سبحانه ـ ان من عشى عن ذكره وهو كتابه الذى أنزل على رسوله ـ ﷺ ـ وبارك فيه

---

(١) سورة السجدة آية : ٢٤

(٢) سورة العصر الآيات : ١ ـ ٢ ـ ٣

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩

فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له فى إعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه لا فى الاقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير .

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما ... بأسحم واج عوض لا يتفرق

ثم أخبر ـ سبحانه ـ ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ، ويحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدى ، حتى اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ـ كنت لى فى الدنيا أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق ، وأغويتنى حتى هلكت،وبئس القرين انت لى اليوم ، ولما كان المصاب اذا شاركه غيره مصيبته حصل بالتأسى نوع تخفيف وتسلية-اخبر الله ـ سبحانه ـ ان هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وان القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وان كانت المصائب فى الدنيا اذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولى ... على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل اخى ولكن ... أعزى النفس عنه بالتأسى
ألا يا صخر لا أنساك حتى ... افارق عيشتى وورود رمسى

فمنع الله ـ سبحانه ـ هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾.

ومن عقوباتها : انها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه ، وذلك ان الله ـ سبحانه ـ ابتلى هذا الانسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، صاحبه ينام ولا ينام عنه ، ويغفل لا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده فى معاداته بكل حال ، ولا يدع أمرا يكيده به يقدر على ايصاله اليه إلا أوصله ، ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن ، وقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل ، ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم ، لا يفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم ان يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، اذ فاتنا شركة صالحيهم فى الجنة ، ولما علم ـ سبحانه ـ ان آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها ، وأمد عدوهم ـ أيضا ـ بجند وعساكر يلقاهم به ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر التى هى بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من انفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه وهى التوراة

والانجيل والقرآن ، ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه ـ سبحانه ـ ثم أمرهم ان يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد ان يعرف قدرها فلينظر الى المشترى من هو ، والى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، والى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ، ثم أكد ـ سبحانه ـ معهم هذا الأمر بقوله : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[1].

ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب المخلوقات اليه الا لأن الجهاد أحب شيء اليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم اليه وسيلة ، فعقد ـ سبحانه ـ لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذى هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعقب بعضهم بعضا كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ، ويصبرونه ويقولون : انما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده ـ سبحانه ـ بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله ـ ﷺ ـ وانزل اليه كتابه ، فازداد قوة الى قوته ، ومددا الى مدده ، وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيرا له ومدبرا ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتا له ومؤيدا وناصرا ، وباليقين كاشفا له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله ـ تعالى ـ أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر امر جيشه ، والمعرفة تضع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والايمان يثبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ، ثم مد ـ سبحانه ـ القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعة ، والأذن صاحب خبرة ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له ان يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى ـ سبحانه ـ الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون ، وهؤلاء جنده ، وان جندنا لهم الغالبون ، وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم فى أربع كلمات فقال :

﴿ **يأأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[2].

ولا يتم امر هذا الجهاد الا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهى مقاومته ومنازلته ، فاذا صابر عدوه احتاج الى امر آخر وهو المرابطة وهى لزوم ثغر القلب وحراسته، لئلا يدخل منه العدو ، ولزوم ثغر العين، والأذن واللسان، والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه ، فهؤلاء أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ـ صلى

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ ـ ١٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

الله عليهم وسلم ـ أجمعين ـ وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم ـ وقد خلوا المكان الذى أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان ـ واجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر ، فانظر الآن فيك الى إلتقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى ، اقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب فى حصنه جالسا على كرسى مملكته ، أمره نافذ فى أعوانه وجنده قد حصنوا به ، يقاتلون عنه ، ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، فقيل له هى النفس ، فقال لأعوانه : أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها ، فاذا اطمئنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم ، فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ، ولاتخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها ، وان غلبتم فاجتهدوا فى اضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل الى القلب ، فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئا ، فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين ان يكون نظره اعتبارا ، بل اجعلوا نظره تفرحا واستحسانا وتلهيا ، فان استرق نظرة عبرة فأفسدوهاعليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانه اقرب اليه واعلق بنفسه وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم ، فانى ما أفسدت بنى آدم بشىء مثل النظر فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة الى انخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهو نوا عليه أمره ، وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع،والتأمل والتجمل صفته ، وحسن هذه الصورة التى انما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له هذه الصورة مظهرة من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد ، فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من اخوان النصارى،فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا ـ واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائى واكبر جندى بل انا من جنده وأعوانه .

ثم امنعوا ثغر الأذن ان يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا الا تدخلوا منه الا الباطل ، فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه ، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، أمزجوه بما تهوى النفس مزجا ، وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه بأخواتها ، فكلما صادفتم منه استحسان شىء فالهجوا له بذكره ، وإياكم ان يدخل من هذا الثغر شىء من كلام الله أو كلام رسوله ـ ﷺ ـ أو كلام النصحاء ، فان غلبتم على ذلك ودخل شىء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بإدخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه ، وان هذا امر قد

حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه ، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، واما بإرخاصه على النفوس ، وان الاشتغال ينبغى ان يكون بما هو أعلى عند الناس واعز عليهم واغرب عندهم،وزبونه اكثر ، وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغى،والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه،ويخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه ، واذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء مالا يطيق ، والقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب ـ تعالى ـ بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ـ ﷺ ـ فى قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ، ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزا ، ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألنى فأعطيه تحركا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم من صفاته أعراضا ، ثم يتوصلون الى نفى ما وصف به نفسه بهذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التى نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل فى قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشىء بلفظ ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾[1] فسماه زخرفا وهوالقول الباطل،لان صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به ، والمقصود ان الشيطان قد لزم ثغر الاذن ان يدخل فيها ما يضر العبد ، ويمنع ان يدخل اليها ما ينفعه ، وان دخله بغير اختياره أفسده عليه .

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوا ان يجرى عليه شىء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده ، أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم فى هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم . أحدهما : التكلم بالباطل فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبرجندكم وأعوانكم ، الثانى : السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثانى أنفع إخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، فالرباط الرباط على هذا الثغر ان يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق ، واعلموا يابنى ان ثغر اللسان هو الذى أهلك منه بنوا آدم وأكبهم منه على مناخرهم فى النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ، وأوصيكم بوصية فاحفظوا : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه اعادتها ، وكونوا

---

(1) سورة الأنعام من الآية : ١١٢

أعوانا على الانس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد ، أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] . أما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتى أو بعضها ، وقد حذرهم ذلك رسول الله - ﷺ - وقال لهم : إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الاسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير ، فإذا أراد أحدهم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له فى نفسه : أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء ، أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال : أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقة مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعبوتها وآفاتها ثم اقعدوا على المعاصى فحسنوها فى عين بنى آدن وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا اكبر أعوانكم على ذلك النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ، ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطن بما يضركم أو تمشى فيه ، واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع مواردها عنها فإذا انقطعت مواردها عنها وقويت موارد النفس الأمارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تجيكم بما تكرهونه البتة مع أنها لا تخالفكم فى شيء تشيرون به عليها بل إذا اشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن الحرب الدائم واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما . أحدهما : جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن الله - تعالى - والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب إذا غفل عن الله - تعالى - تمكنتم منه ومن أعوانه/الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٦ ، ١٧

خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم ، وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها ، وكونوا له أعوانا على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصتكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين ، واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه فانه بالحرى ألا يملكها عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وأمزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه الى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وانما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحدا بنى آدم أخاه ، واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، واياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك .

وقال : إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ . وقال لهم : إنما تطفأ النار بالماء وقد أوصاهم الله ان يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وانسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى ، واعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى ، فإذا رأيتم الرجل مخالفا لهواه فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه ، والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال : ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب ان العبد يسعى بنفسه ، فى هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد فى حرمانها من حظوظها واشراقها ، وهو يزعم أنه يسعى فى حظها ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها ، وهو يزعم انه يسعى فى صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها ، وكان بعض السلف يقول فى خطبته ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم انه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها ، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها ، فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسى نفسه فأى شىء يذكره وما معنى نسيانه نفسه قيل:نعم ينسى نفسه أعظم

نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[(١)] فلما نسوا ربهم - سبحانه - نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[(٢)] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه ، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه ، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو انساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها واصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها ، وأيضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعى فى إزالة عللها وامراضها إلتى تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به الي التلف ، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة ، فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية فى النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له آن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذى عقده لنفسه فى هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته ، فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب ، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة ، وحظهم فيها فى حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ، فكيف أبيع حاضرا نقدا شاهدا فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار اخرى غير هذه ، وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله فى أهلها:﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾[(٣)]وقال فيهم :﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[(٤)] فإذا كان يومالتغابن ظهر لهم الغبن فى هذه التجارة ، فتنقطع عليهم النفوس حسرات ، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيا بباق ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله - تعالى - والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها فى هذا الزمن القصير الذى هو فى الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾[(٥)]وقال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * الى ربك منتهاها * انما أنت منذر من يخشاها * كأنهم

---

(١) سورة الحشر من الآية : ١٩
(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧
(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٦
(٤) سورة البقرة من الآية : ١٦
(٥) سورة يونس من الآية : ٤٥

يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾[4] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وان لهم دارا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء ، رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم ربح تجارتهم ومقدار ما شروه ، وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يغد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[5] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ،فتاجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ، ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[6] ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[7] والمقصود ان الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ لكل شىء سببا وآفة ـ سببا يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره ، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصيته الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ، فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير .

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له ، وأنفعهم له ، ومن سعادته فى قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان ، فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

---

(١) سورة النازعات الآيات : ٤٢ ـ ٤٦
(٢) سورة الاحقاف من الآية : ٣٥
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١١٢ ـ ١١٤
(٤) سورة طه الآيات : ١٠٢ ـ ١٠٤
(٥) سورة التوبة اية : ١١١
(٦) سورة التوبة آية : ١١٢
(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١

بعيدة ، وفى بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ، وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأت ، وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان ، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وان افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه ، قال الله ـ تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ،نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾[١] واذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده ، قال تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾[٢] ويقول الملك عند الموت لا تخف الموت ،وفى القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى خلوته ، ويحدثه فى سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر الذى يروى مرفوعا وموقوفا !! للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ، والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفى الحديث : (إن السكينة تنطق على لسان عمر ـ رضى الله عنه) وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقى فى القلب الحق ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقى الباطل فى القلب ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومحاورته وموالاته ، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما اختصم بين يدى النبى ـ ﷺ ـ رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله ، لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس) واذا دعا العبد المسلم فى ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال : ولك بمثل ذلك ، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه ، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام العبد المؤمن بات فى شعاره ملك ، فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ فى أذاه وطرده عنه وابعاده ، فإنه ضيفه

---

(١) سورة فصلت الآية : ٣٠ وجزء من الآية : ٣١

(٢) سورة الانفال من الآية : ١٢

وجاره ، وإذا كان اكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم ، وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال : لا جزاك الله خيرا ، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان ، قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم : ان معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم ، والأهم ممن لا يستحى من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون ﴾[1] أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون آن يريكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مراد هلاك العبد فى دنياه وآخرته فإن الذنوب هى أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولابد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التى متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها ، وهى عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره ، وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فانها تستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصنته ... مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهى واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا والله المستعان .

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرا فى قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع السارق فى ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس،وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطىء ذكرا مثله ، وقتل

(١) سورة الانفطار الآيات : ١٠ - ١٢

المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع طبعيا وما ليس فى الطباع داعيا إليه اكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا ، كأكل الرجيع،وشرب الدم وأكل الميتة وما كان فى الطباع داعيا إلى ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعى الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعى الطباع الى الزنا من أقوى الدواعى كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع : الجلد مع زيادة التعذيب ، ولما كان اللواطة فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعى السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد ، وتأمل حكمته فى افساد العضو الذى باشر به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد ، فان قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية ؟ قيل بوجوه :

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية اذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك .

الثانى : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة ، والمقصود أن الذنوب انما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله على العبد وقد يرفعها عمن تاب وأحسن .

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية .

فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففها ولا يكاد الرب ـ تعالى ـ يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم تف إحداهما برفع موجب الذنب ، ولم يكن فى زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب ـ تبارك وتعالى ـ لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة : فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأوا الناس المنكر فاشتركوا فى ترك انكاره ، أوشك أن يعمهم الله ـ تعالى ـ بعقابه ، وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله ـ سبحانه ـ على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب به وهو الزنا واللواطة ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد رحمه الله : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله : (أى الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل

ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل تصديقها فى كتابه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ﴾(١) الآية . . والنبى - ﷺ - ذكر كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السأل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا .

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنا أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق ، فالزنا بالمرأة التى لها زوج أعظم إثما وعقوبة من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج ، وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثما وجرما من الزنا بغير ذات البعل ، فإن كان زوجها جارا له إنضاف الى ذلك سوء الجوار ، وإذا أجاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق ، وقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال :(٢) (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ولا بائقة اعظم من الزنا بإمرأته ، فالزنا بمائة إمرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار ، فان كان الجار أخا له أو قريبا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائبا فى طاعة الله كالصلاة ، وطلب العلم ، والجهاد ، تضاعف الإثم ، حتى إن الزانى بإمرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقول : خذ من حسناته ما شئت قال - النبى - ﷺ (٣) : (فما ظنكم أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم فى أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقا يجب عليه) فان اتفق أن تكون المرأة رحما منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق على أن يكون الزانى محصنا كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخا كان أعظم إثما وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الاثم والعقوبة . والله المستعان .

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال فى الاختفاء ، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالصقور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترفع مفسدة سرقته إلى القتل ولا تندفع بالجلد ،

---

(١) مسند الامام احمد ج١ ص٣٨٠ ورد هذا الحديث وكذا فى ص٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ من رواية عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض الفاظه .
انظر سنن النسائى ج٧ ص٨٢ باب ذكر اعظم الذنوب ورد هذا الحديث عن عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه . سورة الفرقان من الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان تحريم ايذاء الجار ج١ ص٦٨ حديث رقم ٧٣ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة باب حرمة نساء المجاهدين ، واثم من خانهم فيهن ج٣ رقم ١٥٠٨ برقم ١٣٩ .

فأحسن ما دفعت به مفسدته أبانة العضو الذى تسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف فدارت عقوباته ـ سبحانه ـ الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع :

العتق وهو أعلاها .

والاطعام والصيام .

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام :

قسم فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد .

وقسم لم يترتب عليه حد فشرع فيه كفارة كالوطء فى نهار رمضان ، والوطء فى الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ والحنث فى اليمين ، وغير ذلك .

وقسم لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان :

احدهما ما كان الوازع عنه طبيعيا كأكل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثانى ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة ، والقبلة واللمس ، والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، وطرده الوطء فى الحيض ، والنفاس ، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح فإنه لا يباح فى وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثانى : ما عقد لله من نذر ، أو ما لله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجبا ، وقد يكون مستحبا ، وقد يكون مباحا ، وإنما الكفارة حل لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، فإن ذلك من باب الجوابر .

والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية بل إن كان فيها حد اكتفى به كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة فى المعصية التى لا حد فيها فيه وجهان ، وهذا كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة .

فقيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية .

وقيل : لا تعزير فى ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية .

وأما العقوبات القدرية فهى نوعان :

نوع على القلوب والنفوس .

ونوع على الأبدان والأموال .
والتى على القلوب نوعان :
أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب .
والثانى : قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها .
وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهى أصل عقوبة الأبدان ، وهذه العقوبة تقوى وتتزايد حتى تسرى من القلب الى البدن ، كما يسرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقا بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهى المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .
والتى على الأبدان ـ أيضا ـ نوعان :
نوع فى الدنيا .
ونوع فى الآخرة . وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتب عليه فى الشدة والخفة ، فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبى ـ ﷺ ـ يستعيذ منهما فى خطبته بقوله : (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .
وقد اختلف فى معنى قوله : ومن سيئات أعمالنا . هل معناه السىء عن أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أو يكون بمعنى من ، وقيل : معناه من عقوباتها التى تسوء ، فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التى تسوءنا ، ويرجح هذا القول ان الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهى تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه أو هى أصله .
ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهو السيئات التى تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾[1] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السىء وقاهم جزاء السىء وإن كان قوله : ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ .
فإن قيل : فقد سألوه ـ سبحانه ـ أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد السيئة التى سألوا وقايتها الأعمال السيئة ، ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى ـ ﷺ ـ ولا يرد على هذا قوله : ﴿ يومئذ ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم . وهى سيئات فى نفسها .
قيل : وقاية السيئات نوعان :

(١) سورة غافر من الآية : ٩

أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثانى : وقاية جزاؤها بالمغفرة فلا يعاقب عليها .

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية ، وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدى استغفارهم وتوسلهم إلى الله ـ سبحانه ـ بسعة علمه وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته ، فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شىء .

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذى يحبها .

ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو ـ سبحانه ـ وإن كان لايخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم الجنة ، يدخلونها برحمته التى منها : أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك ، وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضى ـ سبحانه وتعالى ـ ما يشاء ، ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر ، والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام فى الدار الآخرة ، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتيب الاحراق على النار ، والكسر على الانكار ، والاغتراف على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض للأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة للذنب ، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيرا ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدرى أنه يعمل ، وعمله على التدريج شيئا فشيئا كما تعمل السموم ، والأشياء الضارة حذو القذفة بالقذفة ، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم . . وكل ساعة . . والله المستعان .

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الذنوب ، وجوز وصولها إليك ،

واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفى العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على القلوب ، وجعل الأكنة عليها ، والرين عليها ، والطبع عليها ، وتقليب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها ، واركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - انه قال : القلوب أربعة :

فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن .

وقلب أغلف فذلك قلب الكافر .

وقلب منكوس فذلك قلب المنافق .

وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما .

ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات وعين الأعمى والألوان ولسان الأخرس والكلام[١] وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات ، والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية . (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[٢] وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر كيف وقد قال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾[٣] .وقال : ﴿ **عبس وتولى * ان جاءه الأعمى** ﴾[٤] وإنما المراد :أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبى - ﷺ - (ليس الشديد بالصرعة ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب) وقوله - ﷺ - (ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه) ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين . وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جو الأحوال البر والخير ومعالى الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق قال بعض السلف : إن هذه القلوب جوالة : فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحشر ، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يسمخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك . وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ **وما**

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص١٧ ورد الحديث

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

(٣) سورة النور من الآية : ٦١

(٤) سورة عبس الآيتان : ١ - ٢

من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾[١] قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب ، وأخلاق الخنزير ، وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس فى ثيابه لحمًا بتطوس الطاووس فى ريشه ، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، قال : منهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الذئاب ، ومنهم أشباه الثعالب التى يروغ كروغانها ، وقد شبه الله ـ تعالى ـ أهل الجهل والغى بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهورا خفيا يراه المتفرسون ، ويظهر فى الأعمال ظهورا يراه كل أحد ، ولايزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام ، فيقلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بستر الله عليه ، ومستدرج بنعم الله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، وأستهزاؤه بالمستهزىء ، وازاغته لقلب الزائغ عن الحق . ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، ويفسد ويرى انه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى انه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى وهو يرى انه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم انه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب .

ومنها حجاب القلب عن الرب فى الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى : **﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾**[٢] .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا اليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وان يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقر به عينا ، وتطيب به نفسا ، بل كانت الذنوب حجابا بينهم وبين قلوبهم وحجابا بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى : **﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾**[٣]وفسرت المعيشة الضنك، بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه ـ سبحانه ـ رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وان تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى يقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من

---

(١) سورة الانعام من الآية : ٣٨

(٢) سورة المطففين من الآية : ١٥

(٣) سورة طه من الآية : ١٢٤

سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى سكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله - ﷺ - فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بأهلها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله - تعالى - انما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحا كما قال تعالى : **﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾**(١) فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين ، ونظير هذا قوله تعالى : **﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾**(٢) ونظيرها قوله تعالى: **﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾**(٣) .

ففاز المتقون المحسنون بنعم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ، فان طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقال الآخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة : ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى - ﷺ - إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)(٤) .

ولا تظن أن قوله تعالى : **﴿ إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم ﴾**(٥) يختص بيوم الميعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة ، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب - تعالى - ومحبته والعمل على موافقته ، وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم . وقد أثنى الله - تعالى - على خليله - عليه السلام - بسلامة القلب فقال : **﴿ وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾**(٦) وقال حاكيا عنه أنه قال : **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾**(٧)

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل ارادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى

(١) سورة النحل الاية : ٩٧

(٢) سورة النحل الآية : ٣٠

(٣) سورة هود من الآية : ٣

(٤) سنن الترمذى أبواب الدعوات ج٥ ص١٩٤ الحديث ٣٥٧٧ من رواية انس ابن مالك الحديث بلفظه ولم يرد فيه : « وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٥) سورة الانفطار الأيتان : ١٣ ، ١٤

(٦) سورة الصافات الأيتان : ٨٣ ، ٨٤

(٧) سورة الشعراء الأيتان : ٨٨ ، ٨٩

جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ ، وفى جنة يوم المعاد ، ولا يتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهو يناقض التجريد ، والإخلاص يعم ، وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن إفراد الأشخاص لا تحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله ان يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شىء منه إلى هذه الدعوة وليس شىء أنفع منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم ، وان عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، ومانريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص ، وقد لا يقوم ، ومايقوم فيه بشروط الإخلاص ، قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه ، وقد صرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار فى الخلق فمستقل ومستكثر ، وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم ، وما حلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب ـ تبارك وتعالى ـ على صراط مستقيم فى قضائه وقدره وأمره ونهيه ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو على صراط مستقيم ، ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما ، دعاهم جميعا اليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا الفضل وهذا العدل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطا مستقيما يوصلهم الى جنته ، ثم صرف عنه من صرف فى الدنيا وأقام من أقام فى الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نورا ظاهرا لهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفىء نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه ، كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا وحرم من الشرب هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله ـ سبحانه ـ فى الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لاشك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها ونموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط فى الدنيا والآخرة .

* التوبة معروضة بعد *

قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾[١] .

هذا استثناء مما سبق فالذين سبق الحديث عنهم من أهل الكبائر شاءت رحمة الله الواسعة ألا تقنط أحدا ﴿ قل ياعبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٢] .

وقد قال ﷺ فى حديثه الجامع :(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الى آخر الحديث)[٣] قال فى نهايته (والتوبة معروضة بعد) وفى قوله جل شأنه : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم الى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بـدلن بعد حـره خريفـا ... وبعـد طول النفس الـوجيفا

يعنى: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها. وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا .

وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السىء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبى العالية وقتادة وجماعة آخرين .

(والقول الثانى): إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف ـ رضى الله عنهم ـ فعن أبى ذر رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول :نحوا عنه كبار[٤]

---

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٣) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان نقصان الايمان بالمعاصى .. الخ ج١ ص٧٧ حديث رقم ١٠٤ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٤) صحيح مسلم كتاب الايمان باب ـ أدنى أهل الجنة منزلة فيها ـ ج١ ص١٧٧ حديث رقم ٣١٤ من رواية ابى ذر مع اختلاف بعض الفاظه .

وانظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٧ .

ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا ، وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها ههنا) قال فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، انفرد باخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم بسنده عن أبي مالك الاشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - (أذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطنى صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميده ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة)[1] .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن سلمان قال : (يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر فى أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر فى أعلاها فإذا هى قد بدلت حسنات)[2] .

وقال أيضا حدثنا أبي عن هشام بن عمار بسنده عن أبي العنبسى عن أبيه عن أبي هريرة قال : (ليأتيني الله - عز وجل - بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم ياأبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات)[3] .

وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا حرفا وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا فعند ذلك محا الله النسيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا :(هاؤم اقرءواكتابيه)[4]فهم أكثر اهل الجنة .

وقال على بن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال فى الآخرة .

وقال مكحول يغفرها لهم فيجلعها حسنات رواهما ابن أبي حاتم[5] .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابى جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : (جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ولو[6]

---

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨٢ ط دار الفكر الحديث بلفظه أخرجه الطبرانى عن أبي مالك الأشعرى .

(٢) الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨٠ ط/ دار الفكر ورد الحديث بلفظ عن سلمان وأخرجه عبد بن حميد وابن ابى حاتم .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة . وانظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨١ بلفظ . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردوية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ (ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يارسول الله ؟ قال : ﴿ الذين بدل الله سيئاتهم حسنات ﴾

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ ورد الحديث بلفظه عن أبي الضيف .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه - عن أبي جابر انه سمع مكحولا .

(٦) وانظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨١ فقد ورد الحديث وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن مكحول غير أن به اختلافا فى بعض ألفاظه .

قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبه ؟ فقال النبى - ﷺ - أسلمت) قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبى - ﷺ - (فان الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات) فقال يارسول الله وغدراتى وفجراتى ؟ فقال (وغدراتك وفجراتك) فولى الرجل يكبر ويهلل .

وروى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن أبى فروة أنه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال (أسلمت ؟) فقال نعم ، قال (فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها) قال وغدراتى وفجراتى ؟

قال (نعم) فمازال يكبر حتى توارى . رواه الطبرانى من طريق أبى فروة الرهاوى عن ياسين الزيات عن أبى سلمة الحمصى عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا[1] .

وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبى عبيد الشماسى عن أبيه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (جاءتنى امرأة فقالت هل لى من توبة ؟ إنى زنيت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهى تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبى - ﷺ - الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله - ﷺ -: (بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟) ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - إلا من تاب ﴾[2] الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذى جعل لى مخرجا، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا .

فقال تعالى :﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾[3] أى فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[4] .

وتلك من صفات عباد الرحمن وما أجلها من صفة وما أعظمها من فضيلة وهم أهل الفضائل والكرم وقد ورد فى تفسير ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أقوال لأئمة التفسير نبينها فيما يلى :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ - ١٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه .
وانظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ج٢ ص٥٢٥ عن أبى بكر بن أبى عاصم عن أبى طويل شطب المدود مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة الفرقان من الآيتان : ٦٨ - ٧٠

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٧١

(٤) سورة الفرقان الآيتان : ٧٢ - ٧٤

قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس ـ وغيرهم : هو أعياد المشركين وقال عمرو بن قيس : هى المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهرى : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء فى الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[1] وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى شهادة الزور وهى الكذب معتمدا على غيره كما فى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا : قلنا : بلى يارسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[2] . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضرونه ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى لا يحضرون الزور واذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء ولهذا قال ﴿ مروا كراما ﴾ وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما)[3] .

وحدثنا الحسين بن محمد بسنده عن ميسرة قال بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما) ثم تلا ابراهيم بن ميسرة ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ .

وهذه ـ أيضا ـ من صفات المؤمنين ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[4] بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾[5] فقوله ﴿ لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ أى بخلاف الكافر الذى اذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد قوله : ﴿ لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

وقال قتادة قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ .

يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حمران عن ابن عون قال سألت الشعبى قلت الرجل

(١) سنن الدارمى ج٢ كتاب الأشربة باب النهى عن القعود على مائدة يدار عليها الخمر ج٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر .
(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب ج٨ ص٤ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه ـ رضى الله عنه .
(٣) أنظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٤٠ فقد ورد ذلك عن ابن أبى حاتم .

(٤) سورة الانفال الآية : ٢
(٥) سورة التوبة الآية : ١٢٤ وجزء من الآية ١٢٥

يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعنى أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين: قال الإمام ابن القيم - رحمة الله تعالى - فى تفسير هذه الآية :

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما ، لم يسمعوه ، وعميانا : لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به .

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبى : يخرون عليها سمعا وبصرا .

وقال الفراء : واذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه : فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قعد يشتمنى ، كقولك : قام يشتمنى وأقبل يشتمنى .

والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صما وعميانا .

وقال الزجاج : المعنى إذا تليت عليهم آيات ربهم خروا سجدا وبكيا سامعين ، مبصرين ، كما أمروا به .

وقال ابن قتيبه : أى لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها .

قلت : ههنا أمران : ذكر الخرور وتسليط النفى عليه : وهل خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه . فلهم عليها خرور بالقلب خضوعا أو بالبدن سجودا أو ليس هناك خرور ، وعبر به عن القعود .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾[1].

يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال : قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم فى الدنيا والآخرة ، قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين .

وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو لد ولد أو أخا أو حميا مطيعا لله - عز وجل - قال ابن جريج فى قوله ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله - تعالى - لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الامام احمد بسنده عن جبير بن نصير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله - ﷺ - لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجلعت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله - ﷺ - أقوام اكبهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله اذ أخرجكم من بطون

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٤

أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى - ﷺ - على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقرعينه . وهو يعلم أن حبيبه فى النار وأنها التى قال الله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه[1] .

وقوله تعالى ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ .

قال ابن عباس والحسين والسدى وقتادة والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير ، وقال غيرهم ، هداة مهتدين دعاة الى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا الى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية)[2] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أى المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهى الجنة . . قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدى : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بما صبروا ﴾ أى على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أى فى الجنة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والاكرام . ويلقون التوقير والاحترام . فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أى مقيمين لايظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ أى حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ أى لا يبالى ولا يكترث بكم اذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا ، قال مجاهد وعمرو بن شعيب ﴿ ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول لولا إيمانكم وأخبر

---

(١) صحيح مسلم ج٦ ص٢ ،٣ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه .

(٢) الترغيب والترهيب « كتاب العلم » باب من علم ومن لم يعلم » ج١ ص٩٩ حديث ٩٩ عن أبى هريرة بلفظ : « قال رسول الله - ﷺ - : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) وقال : رواه مسلم وغيره .

(٣) سورة هود من الآية : ١٠٨

تعالى الكفار انه لا حاجة له بهم اذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب اليهم الايمان كما حببه الى المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون .

﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أى فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعنى مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم وقال الحسن البصرى ﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أى: يوم القيامة ولا منافاة بينهما ، آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة .

﴿ سورة الشعراء ﴾

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آية واحدة : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى آخره ، عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون فى عد الكوفى والشامى وست فى عد الباقين .

كلماتها الف ومائتان وسبع وسبعون . وحروفها خمسة آلاف وخمسمائة وثنتان وأربعون .

وسميت سورة الشعراء لاختتامها بذكرهم فى قوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ .

مقصود السورة وجلما اشتملت عليه : ذكر القسم ببيان آيات القرآن وتسلية الرسول عن تأخير المنكرين عن الايمان وذكر موسى وهارون ومناظرة فرعون الملعون ، وذكر السحرة ومكرهم فى الابتداء ، وإيمانهم وانقيادهم فى الانتهاء ، وسفر موسى ببنى اسرائيل من مصر وطلب فرعون إياهم ، وانفلاق البحر وإغراق القبط وذكر الجبل ، وذكر المناجاة ودعاء ابراهيم الخليل .

وذكر استغاثة الكفار من عذاب النيران ، وقصة نوح وذكر الطوفان ، وتعدى عاد وذكر هود ، وذكر عقوبة ثمود ، وذكر قوم لوط وخبثهم ، وقصة شعيب وهلاك أصحاب الأيكة لعبثهم ، وتنزيل جبريل على النبى بالقرآن العربى وتفصيل حال الأمم السالفة الكثيرة وأمر الرسول - ﷺ - بإنذار العشيرة ، وتواضعه للمؤمنين ، وأخلاقه اللينة وبيان غواية شعراء الجاهلية وأن العذاب منقلب الذين يظلمون فى قوله : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ سبق فى الأنبياء . ﴿ فسيأتيهم ﴾ سبق فى الأنعام ، وكذا ﴿ أو لم يروا ﴾ وما تعلق بقصة موسى وفرعون سبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ مذكور فى ثمانية مواضع : أولها : فى محمد - ﷺ - وان لم يتقدم ذكره صريحا ، فقد تقدم كناية ووضوحا ، والثانية : فى قصة موسى ، ثم ابراهيم، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ثم شعيب .

قوله ﴿ ألا تتقون ﴾ الى قوله : ﴿ العالمين ﴾ مذكور فى خمسة مواضع فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ـ عليهم السلام ـ ثم كرر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، فصار ثمانية مواضع ، وليس فى ذكر النبى ـ ﷺ ـ ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ لذكرها فى مواضع وليس فى قصة موسى؛ لأنه رباه فرعون حيث قال : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ ولا فى قصة ابراهيم ؛ لأن أباه فى المخاطبين حيث يقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ وهو رباه فاستحيا موسى وابراهيم ان يقولا : ما أسألكم عليه من أجر ، وان كانا منزهين من طلب الأجر .

قوله : فى قصة ابراهيم : ﴿ ما تعبدون ﴾ وفى الصافات ﴿ ماذا تعبدون ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ لمجرد الاستفهام فأجابوا فقالوا : ﴿ نعبد أصناما ﴾ و﴿ ماذا ﴾ فيه مبالغة وقد تضمن فى الصافات معنى التوبيخ فلما وبخهم ولم يجيبوا زاد فى التوبيخ فقال ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ فجاء فى كل سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده .

قوله : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * واذا مرضت فهو يشفين ﴾ زاد ﴿ هو ﴾ فى الاطعام والشفاء؛لأنهما مما يدعى الانسان ، فيقال : زيد يطعم وعمرو يداوى . فأكد إعلاما لأن ذلك منه ـ سبحانه وتعالى ـ لا من غيره وأما الخلق والموت والحياة فلا يدعيها مدع . فاطلق .

قوله فى قصة صالح : ﴿ ما أنت ﴾ بغير واو وفى قصة شعيب ﴿ وما أنت ﴾ لأنه فى قصة صالح بدل من الأول وفى الثانية عطف وخصت الأولى بالبدل،لأن صالحا قلل فى الخطاب ، فقللوا فى الجواب وأكثر شعيب فى الخطاب فأكثروا فى الجواب .

﴿ فضلها ﴾

عن البراء بن عازب ان النبى ـ ﷺ ـ قال : (إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المئين مكان الانجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى) .

﴿ مناسبتها ﴾

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(أ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر فى موضوعات سالفتها .

(ب) إن كلتيهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(ج) إن كلتيهما ختمت بإيعاد المكذبين .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ

﴿٣﴾ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿ تفسير المفردات ﴾

(لعلك) لعل : هنا للاستفهام الذى يراد به الانكار ، وقال العسكرى : إنها للنهى ، و(باخع نفسك) : أى مهلكها من شدة الحزن . وأصل البخع . ان تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح . و(ذكر) : أى : موعظة (أنباء) والمراد بالأنباء ما سجل بهم من العذاب و(زوج) : أى صنف ، والكريم من كل شىء : المرضى المحمود منه .

﴿ التفسير ﴾

(قوله تعالى : ﴿ ط . س . م . بعض حروف الهجاء وفيها اشارة الى الكتاب المعجز الذى أعجز فحول البلاغة واساطين البيان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[١] ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى :هذه آيات القرآن الواضحة البينة التى تزاحم الشمس فى الجلاء ، وترسل اشعتها الكاشفة تبدد غياهب الظلمات وتحيى كل موات فهى روح ونور ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أى: لا تقتل نفسك عليهم حزنا وهما وكمدا وغما قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٣] وقال جل شأنه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ قال مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أى: قاتل نفسك قال الشاعر :

(١) سورة الاسراء الآية : ٨٨
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ـ ٥٣
(٣) سورة فاطر الآية : ٨

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه   لشيء نحّته عن يديه المقادر

قوله تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أى لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختيارى وقال تعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[3] وقال جل شأنه ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[4] وقال تبارك اسمه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾[6] وقال عز وجل ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[7] ولذلك لما اقترحوا على رسول الله ما اقترحوه من الآيات ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾[8] لما اقترحوا تلك الآيات كان الرد عليهم ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ وفى التعبير بخضوع الاعناق ما يفيد الرضوخ والقهر والجبر وليس هذا موافقا لحقيقة الايمان إذ الإيمان تصديق ناشىء عن رضا ويقين فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل فالايمان عمل من أعمال القلوب لا يستوى مع القسر والقهر .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ هذا شأنهم وديدنهم وهجيرهم تكذيب وجحود وعناد وإصرار ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾[9] وقال تعالى ﴿ وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون ﴾[10] وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾[11] ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾[12] أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[13]

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦
(٢) سورة يونس الآية : ٩٩
(٣) سورة هود الآيتان : ١١٨ ـ ١١٩
(٤) سورة الكهف من الآية : ٢٩٠
(٥) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣
(٦) سورة البلد الآية : ١٠
(٧) سورة الشمس الآيات : ٧ ـ ١٠
(٨) سورة الاسراء من الآيات : ٩٠ ـ ٩٣
(٩) سورة نوح الآيات : ٥ ـ ٧
(١٠) سورة يس الآية : ٣٠
(١١) سورة المؤمنون آية : ٤٤
(١٢) سورة الشعراء الآية : ٦
(١٣) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(١) .

وفى هذا تنبيه على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه للذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثورى عن رجل عن الشعبى : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

تباركت ربنا وتعاليت يامن قلت وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(٢) .

ويامن قلت وقولك الصدق : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾(٣) .

﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه . ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾(٤) وقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾(٥) وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾(٦) ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أى : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

---

(١) سورة الشعراء الأيات : ٧ ، ٨ ، ٩
(٢) سورة لقمان الأيتان : ٩ ، ١١
(٣) سورة ق الآيات : من ٧ - ١١
(٤) سورة يوسف الآية : ١٠٣
(٥) سورة الأنعام الآية : ١١٦
(٦) سورة الرعد الآية : ١

مع موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ
رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ
(١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥)
فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ
نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى
رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ
فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ
رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن
كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ
جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ
وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ
(٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟
حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تفسير المفردات

﴿ **كلا** ﴾ كلمة زجر وردع والمراد اتق بالله وانزجر عن خوفك منهم . ﴿ **بآياتنا** ﴾ المراد هنا معجزاتنا . ﴿ **ففرت منكم** ﴾ خرجت من بينكم إلى مدين . ﴿ **مبين** ﴾ : أى : ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، ﴿ **الملأ** ﴾ : إشراف القوم ، ﴿ **عليم** ﴾ : أى : خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أى : فبم تشيرون ، ﴿ **أرجه وأخاه** ﴾ : أى : أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة . ﴿ **حاشرين** ﴾ أى : اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة ﴿ **الميقات** ﴾ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام ﴿ **اليوم المعلوم** ﴾ هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله : ﴿ **موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ ، ﴿ **وبعزة فرعون** ﴾ : أى : قوته التى يمتنع بها من الضيم ، ﴿ **تلقف** ﴾ أى : تبتلع بسرعة . ﴿ **يأفكون** ﴾ أى : يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، ﴿ **من خلاف** ﴾ أى : بقطع الايادى اليمنى

والأرجل اليسرى ، لا ضير ، أى : لا ضرر علينا فيما ذكرت ، ﴿ ينقلبون ﴾ أى : راجعون . ﴿ اسرى ﴾ : سار ليلا ، ﴿ متبعون ﴾ : أى : يتبعكم فرعون وجنوده ﴿ والشرذمة ﴾: الطائفة القليلة من الناس ، ﴿ غائظون ﴾ أى : فاعلون ما يغيظنا ﴿ حاذرون ﴾ : أى من دأبنا الحذر فى الأمور ، كنوز أى : أموال كنزوها وخزنوها فى باطن الأرض ، ﴿ ومقام كريم ﴾ : أى : قصور عالية ودور فخمة ، ﴿ أورثناها ﴾ : أى ملكناها لهم تمليك الميراث ، ﴿ مشرقين ﴾ : أى داخلين فى وقت الشروق ، ﴿ تراءى الجمعان ﴾ أى : تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، ﴿ لمدركون ﴾ أى : سيدركوننا ويلحقون بنا ، ﴿ كلا ﴾ : أى لن يدركوكم ، ﴿ انفلق ﴾ : انشق ، ﴿ الفرق ﴾ الجزء المنفرق منه ، ﴿ والطود ﴾ : الجبل ، ﴿ وأزلفنا ﴾ أى : قربنا . ﴿ وثم ﴾ : أى هناك ، ﴿ لآية أى : لعظة وعبرة توجب الايمان بموسى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وقبيح لجاجهم سلى رسوله ﷺ - على ذلك بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم وانه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، فحاق بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم فى اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ، وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

التفسير

هذا جزء من قصة موسى على نبيا وعليه الصلاة والسلام - وقد جاء بعد ذلك الحديث عن إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب

كلمة عن القصة فى القرآن

الحدث التاريخى والقصة

إن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من الخيال ، ولا يطرقها طارق منه . . ثم هى مع هذا « قصة » حيث سمى القرآن كل ما جاء على هذا النحو قصصا ، فقال تعالى مخاطبا النبى الكريم : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾[2] .

---

(١)سورة طه الآية : ٥٩

(١)سورة يوسف الآية : ٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ٦٢

هكذا أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدَّث به من أخبار القرون الأولى فى مجال الرسالات السماوية ، وما كان يقع فى محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين مواكب النور وجحافل الظلام .

والقصص القرآنى كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو ـ والأمر كذلك ـ وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدى التاريخ من وثائق ، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة .

الشخصية والحادثة

يقوم العمل القصصى على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث . . بمعنى ان تكون الشخصية هى الفلك الذى تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هى المركز الذى تدور فى دائرته الشخصيات : وقد تتوازن فى العمل القصصى الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع مرة بعد مرة . . ! ويلاحظ فى القصص التاريخى غلبة الشخصية على الحدث . . فيكون الشخص هو محور الحركة فى القصة ، وهو منطلق الأحداث الجارية فيها . .

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخى أشخاصا لا أحداثا . .

وفى القصص القرآنى نرى تدبيرا عجيبا معجزا ، فى توزيع المشاهد القصصية توزيعا محكما متوازنا ، بين الحدث والشخصية . . فلا تجد موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها . . وإنما تلتقى الشخصية مع الحادثة أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون هو الذى يصبح بطل الموقف . فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويكون صوته اندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطانا على المشاهدين أو المستمعين !

فالاشخاص فى القصص القرآنى ـ أيا كانوا ـ ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد ابراز معالمهم وكشف احوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم . . وإنما يعوض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية فى مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفى صراعها مع الخير والشر وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار . .

إن الشخصية فى القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذى تؤدى فيه دورها كشاهد من شواهد الانسانية ، فى قوتها أو ضعفها ، وفى استقامتها أو انحرافها ، وفى هداها أو ضلالها ، وفى رشدها أو غيها ، وفى حكمتها أو سفاهتها . . إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الانسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها فى مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه . . إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الاحسان والسوء فيهم . . !

ومن أجل هذا ، كان ذلك الذى نشهده فى القصص القرآنى ، من عرض الشخصية فى معارض

كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيرا من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة فى القرآن الكريم ، وذلك فى أزمنة متباعدة ، فى عرض القرآن لها ، حسب نزوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصدا اصليا لذكرت احداثها ومواقفها فى معرض واحد . . فكنا نجد قصة موسى مثلا فى سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم ، وعيسى ، ونوح وغيرهم . . ولكن الذى كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى غايتها فى موقفه منها أو موقفها منه . . ثم ينتهى المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن ـ طال أو قصر ـ طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذى يقال عنه فى القصص القرآنى ليس تكرارا للحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولا ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة .

وإنما الذى دعا إلى هذا القول هو ظهور الشخصية فى مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل التكرار الممل الذى لا تدعو اليه داعية ، مِنْ حال أو مقام !

إن الشخصية فى القصص القرآنى ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظورا إليه نظرة القصص التاريخى إلى شخصياته ، وعرضهم فى معارض البطولة . . فى أى مجال من مجالاتها .

وإنما الأحداث والوقائع . . أولا ، ثم الشخصيات التى تلبست بها أو لابستها الأحداث . . ثانيا . . لأن مناط العبرة والعظة إنما هو فى الحدث ، وفى موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسىء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف . . ومن خلال هذه المواقف التى يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها . . وهذا ما جاء القصص القرآنى من أجله . .

لا تكرار فى القصص القرآنى

والذى يتتبع القصص القرآنى يجد ان أحداثه كلها تقريبا تدور فى محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الاله الواحد ، الخالق ، رب العالمين . . . ولذلك كانت دعوات الأنبياء هى الشخصية الغالبة فى القصص القرآنى ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم وهكذا . . والملحظ الذى نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو انه لو كانت الشخصية ـ لا الحادثة ـ هى مناط القصة ودافعها الأصلى لجاءت قصة كل نبى أو كل شخصية غير نبى فى موضع واحد من القرآن ، فى سورة أو بعض سورة . . ولما كان هناك داع لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن ، ولكن اذا نحن اعتبرنا الحادثة ـ لا الشخصية ـ هى محور القصة ـ لم نجد هذا التمزق فى الشخصيات ، وإنما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة كاملة وان كان هذا لا يمنع من ان نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من حدث وفى أكثر من موقف ، مع تباعد الزمان والمكان . كما ان هذا لا يمنع من ان تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها

إلى بعض فى مساق واحد ، وفى عرض متصل ، فى سورة أو بعض سورة !

وهذا ما نجده فعلا فى القصص القرآنى !

ففى أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت احداث كثيرة لعدد من الانبياء حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وان اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وفى هذا الجمع ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما فى الانسان من عناد وكنود ، وأن الانسان هو الانسان حيث اختلف زمانه ومكانه .

مفهوم القصة فى القرآن

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصا ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحى ، ومع المحتوى الفنى للقصة ، كما تعرف فى الآداب الانسانية قديما وحديثا ؟

ونحن ننظر فى المعنى اللغوى للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذى قام عليه اصل التسمية للقصص القرآنى . . فالقصة مشتقة من القص وهى تتبع الأثر ، قال تعالى : ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾[1] أى : تتبعى آثاره ، على ما انتهى إليه أمره .

ومن هذا قولهم قص الأثر نظر فيه ، واقتفى آثاره وشواهده . . يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت فى أثر فلان قصصا .

وفى القرآن ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾[2] . . وقص عليه الرؤيا والحديث . . .

وفى القرآن ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾[3] .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف فى عصرنا بتصوير « البصمات » أو رفع الآثار وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .

والقصة فى القرآن إنما تتبع احداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى علاضيه ! ومن هنا كانت تسميه الأخبار التى جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل فى المعنى العام للكلمة خبرا أو نبأ . وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى ، وان كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام واعجاز . . . فاستعمل النبأ والأنباء فى الأخبار عن الاحداث التى مضى الزمن بعيدا بها ، ولفها فى اطوائه . . على حين انه استعمل الخبر والاخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التى لا تزال شواهدها قائمة ماثلة للعيان .

ففى النبأ والأنباء يقول تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾[4] ويقول سبحانه فى شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ **ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** ﴾[5] ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين .

---

(١) سورة القصص الآية : ١١
(٢) سورة الكهف الآية : ٦٤
(٣) سورة يوسف الآية : ٥
(٤) سورة الكهف الآية : ٣
(٥) سورة هود الآية : ١٠٠

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. الآية ﴾ [(١)] وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين !

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [(٢)] .

ويقول جل شأنه فيما يكون من احداث يوم القيامة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ [(٣)] والتحدث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة .

وانظر فى قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ [(٤)] تجد أن القصص القرآنى إنما هو من قبيل الأنباء .. أى الأخبار التى بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر فى القصص القرآنى نجد انه يجىء بمادته كلها من الماضى البعيد دون أن يكون فيه شىء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلة

ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن ان يجىء بقصص يصور الأحداث الواقعة الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية ، أو بأحداث مستقبلة تتنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى فى كثير من القصص الأدبية التى يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة فى ضباب الأحداث المطلة على الحياة ، أو فى المستقبل الذى ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصص القرآنى مثل هذا القصص الأدبى ؟

والجواب عن هذا من وجوه :

فأولا : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية فى اوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وابان عن وجه الحق فيها ﴿ كما ترى ذلك فى حديث الافك ، وفى وقعة بدر وأحد وحنين ، وفى بيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن الكريم فى أحوال وشئون ملابسة لنزوله كذلك جاء القرآن الكريم مخبرا عن أحداث ووقائع مستقبلة . فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذى كان دائرا بين الفرس والروم ، وان معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها للروم على الفرس . قال تعالى : ﴿ ال م غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين الآية ﴾ [(٥)] كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا فى قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [(٦)] كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه ﴿ سيهزم

---

(١) سورة هود الآية : ٤٩

(٢) سورة محمد الآية : ٣١

(٣) سورة الزلزلة الآيتان : ٤ ، ٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣

(٥) سورة الروم الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٦) سورة النصر الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

الجمع ويولون الدبر ﴾[1] وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأسأل : أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ؟ ورسول الله ﷺ ـ يقرأ : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فرأيت الجمع المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون ان تفقد لمحة واحدة من ملامحها ، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت ـ كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة فى جانب ، وإلى صورها الواقعة فى المرآة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصا ، لأن القصة تتبع للآثار الماضية والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام !

وثانيا : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل وتتحرك ، وتلد عظات وعبرا . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة أو المستقبلة التى يكشف القرآن عن وجهها إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذى يتم بمجرد نزول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث .

وثالثا : الاشتقاق اللغوى للقصة هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، والفاتهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة ، وهكذا كان القصص القرآنى ، ولهذا جاء ، قال تعالى : **﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾**[2] .

ورابعا : فى القصص الأدبى الذى يعالج الحياة الواقعة أو المتوقعة يختلط فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشطحات والرؤى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة فى هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة ـ وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل رجما بالغيب ، ولا خيالا من الخيالات ، ولا حلما من الأحلام ، ولكنه الصدق المصفى ، والحق المبين . . ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التى جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذى لابد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التى تثير الدهش والاستغراب ، والتى يلعب فيها الخيال فى عقول الناس دورا كبيرا . فصان الله سبحانه أخبار الغيب التى نطق بها القرآن من أن تقع فى نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .

القصة والحكاية

ومع هذا يلقانا سؤال آخر ، هو !

لماذا لم يطلق على القصص القرآنى اسم الحكاية بدلا من القصص ؟ والحكاية كما نرى هى أقرب شىء إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضى وتشخيصا ، ومحاكاة له ، لاسيما أن لفظ

---

(١) سورة القمر الآية : ٤٥

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١

« القصص » يوحى بأن جانبا من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التى تدل على محاكاة مماثلة للحدث أو الاحداث ، دون تزيد عليها ؟

والجواب عن هذا ، هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها ، وإنما هو بعث لها ، وإعادة لوجودها فى النظم المعجز الذى ينقل إلينا الماضى أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة فى زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التى عرضها القرآن اذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشىء وتتبعه ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآنى هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشىء من الخيال ، ولم يدخل عليها شىء غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على مالم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق ، مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذى لا يصلح عليه القصص الأدبى بحال أبدا .

اعتراضات وتمويهات

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول بأن القصص القرآنى تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت دون أن يدخل عليها بشىء من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف بحيث يغير من وجوهها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها .

وتتلخص هذه الاعتراضات فى :-

أولا : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملابساته ، فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى المشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزيئاتها لكان ذلك ـ على استحالته ـ ضربا ، بل ضروبا من العبث الذى يدعو إلى الملل والسآمة ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر على احتمال هذا اللغو والسخف تصور ـ مثلا ـ حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع كل يوم على مرأى ومشهد من الناس ، ولتكن سيارة صدمت شخصا ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقاتها . . وانظر أتستطيع قوة بشرية أن ترصد مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ ـ السيارة ، لونها ، شكلها ، رقمها ، سائقها ، هيئته ـ طوله ـ عمره ـ ثم الشخص الذى صدم . . أوصافه الجسدية وكيف صدم ، وإيه كانت الصدمة ، ومدى آثارها ـ ثم اجتماع الناس ـ والتفافهم حول الحادثة ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والاسعاف ـ ثم انجلاء الموقف ـ وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة من صورها وما دار فى محيطها .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جدا مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حسبان أحد . .

فكم من الناس من شهدوا هذا الحادث مثلا ؟ وكم الذكور وكم الاناث منهم ؟ وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ؟ وماذا يلبس كل واحد ؟ ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة فى نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أو انصرف إلى وجهة أخرى ؟ إن لكل انسان من هؤلاء قصة طويلة .. لا تكاد تنتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوفا من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة - يمكن أن يجتمع منها كتاب ضخم لو تتبعها متتبع ، ثم يبقى بعد ذلك كثير من مجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين : أولهما : استحالة نقل الحدث مهما صغر نقلا كاملا ، بملابساته جميعها مما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : ان نقل جميع الملابسات التى تتلبس بالحادث - على فرض امكانها - لا داعى إليها فى التعرف على وجه الحادثة والاستدلال على مشخصاتها والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفى من هذه المشخصات ما يصور الملامح الواضحة للحادث ويشخصه .

وبدهى ان القصص القرآنى إذ نقل صورا من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب وبعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لا تدعو الحاجة إليه .. فى تصويرها وتشخصيها !

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى .. فإنه يعنى أن هذا القصص لم يجىء بالواقع كله بل أخذ بعضا وأعرض عن بعض .. ويعنى أيضا أن هناك تفاوتا واختلافا كثيرا أو قليلا بين هذا القصص وبين الواقع ..

وهذا يعنى - مرة ثالثة - أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما .. وهذا يعنى - مرة رابعة - ان هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما يتصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية من الروايات ، وهذا يعنى أخيرا ان انباء القصص القرآنى ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق .

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن القرآن الكريم شأنه شأن القصص الأدبى .. لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منها قصصا فنيا ، الأمر الذى جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى تجد النفس إقبالا عليه ، لما فيه من جدة وغرابة ولما فى هذه الجدة والغرابة من إثارة

وثانيا : يقدم أصحاب هذا الرأى أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه .. حيث إن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة تتغاير بها صور الحوادث وألوانها .

فمثلا :

فى قصة موسى !

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله - سبحانه وتعالى - له وذلك فى أكثر من موضع من القرآن .

ففى سورة طه ، يقول تعالى : ﴿ وهل آتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .. فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى .. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه ، فتردى .. وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .. قال ألقها يا موس فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى - لنريك من آياتنا الكبرى ﴾[١]

وفى سورة القصص تجىء هذه الأحداث هكذا .. يقول الله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئته ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٢] .

وفى سورة النمل تجىء القصة هكذا . ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، إذ قال موسى لأهله امكثوا إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم - وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ، ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٣].

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التى وردت فيها هذه القصة هى سور « مكية » ومعنى هذا ان الداعى الذى جاءت له هذه القصة هو هو لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الاسلامية فى مواجهة قريش ، ولم يجىء بعد الدور الذى واجهت فيه البلاء مواجهة مباشرة بعد الهجرة !

وإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف فى وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت

---

(١) سورة طه الآيات : من ٩ - ٢٣

(٢) سورة القصص الآيات : من ٢٩ - ٣٢

(٣) سورة النمل الآيات : من ٦ - ١٢

إليه ، فيتغير الاسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فعن أى داع إذن كان هذا التكرار ؟ .

والآن نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف فى هذه المواقف التى عرضتها هذه الآيات القرآنية فى السور الثلاث ، ولهذا الجانب الذى عرضته من قصة موسى - عليه السلام - وذلك لنرى وجه هذا التكرار وهل كان لمجرد التأكيد والتقرير بعرض الوقائع فى هذا اللون من التكرار - أم أن ذلك كان لإضافات جديدة تزاد على كل عرض منها . لتكتمل من ذلك كله الصورة التى يراد تقريرها . . والتى تمثل فى مجموعها الواقع كما وقع !؟

وننظر فى هذا فنرى ان الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

(١) موسى فى طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى نارا موقدة .

(٢) عندئذ طلب إلى أهله أن يمكثوا حيث هم . وان يذهب هو إلى حيث رأى النار .

(٣) غايته من هذا الذهاب ، وأنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ، ليوقد منها نارا يصطلى بها هو وأهله . . أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته فى هذه المتاهة الموحشة .

(٤) وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله - سبحانه وتعالى - يخبره فيه ان هذا الذى رآه ليس نارا ، وإنما هو نور الحق . . وان المتكلم هو الله - سبحانه - وانه سبحانه قد اختار موسى ليكون رسوله إلى فرعون وإلى بنى إسرائيل .

(٥) واذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله - سبحانه وتعالى - بين يديه معجزات يحاج بها فرعون ، وان هذه المعجزات - هى عصاه التى يلقيها من يده فتنقلب حية عظيمة تسعى . . ويده التى يدخلها فى جيبه ثم يخرجها فإذا هى بيضاء مشرقة وضيئة من غير سوء !

هذه هى أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التى عرضها القرآن فى ثلاثة معارض من النظم القرآنى - فى سورة : طه ، والقصص ، والنمل .

ولكى يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض - نجعل بعضها إزاء بعض على هذا النحو :

سورة طه .

١ - ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ﴾ .

٢ - ﴿ فقال لأهله امكثوا . . إنى آنست نارا ﴾ .

٣ - ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ .

٤ - ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾ . .

٥ - ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى . . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ .

٦ - ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . . لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

سورة النمل
١ ـ ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ .
٢ ـ ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .
٣ ـ ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ .
٤ ـ ﴿ وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ، ولم يعقب . يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ، فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[1] .

سورة القصص
١ ـ ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ﴾ .
٢ ـ ﴿ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .
٣ ـ ﴿ فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ .
٤ ـ ﴿ وأن ألق عصاك .. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف .. إنك من الآمنين ﴾ .
٥ ـ ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . واضمم إليك جناحك من الرهب .. فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[2] .

فهذه خمسة مشاهد أو مواقف فى هذه القصة :

ويلاحظ :

أولا : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار فى سورة النمل ، على حين قد جرى ذكره فى السورتين الأخريين : طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ، بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التى تسبق رفع الستار فى الرواية المسرحية . ومع هذا فإن فى كل حال من هذه الأحوال الثلاثة نغما خاصا يمهد به للجو الذى تعرض فيه القصة .. ففى سورة (طه) كانت القصة امتدادا لتعداد ما حوى القرآن الذى نزل على النبى الكريم من آيات ، وعبر وعظات ، منها

---

(١) سورة النمل الآيات من ٦ ـ ١٢
(٢) سورة القصص الآيات من ٢٩ ـ ٣٢

القصص ، وفيه قصة موسى هذه . . وكذلك الشأن فى سورة النمل حيث تجىء القصة منبئة عن حكمة الحكيم العليم .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . . إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا ﴾ أما فى سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة موسى كلها التى بدأت من أولها فى هذه السورة ، وشملت قصة حياته من مولده ، وإلقائه فى اليم ، ونجاته ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببنى إسرائيل من مصر . .

ثانيا : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة واحدة للمشهد فى المعارض الثلاثة فى السور الثلاث كما ترى . . ففى السور الثلاث جاءت الآية التى تتصدر هذا المشهد هكذا : ﴿ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ﴾ . . مع تغيير لا يكاد يحس به ، حيث يزيد فى إحداها حرف العطف (الفاء) : (فقال) . . وفى الأخرى تقدمها الظرف (إذ) . . (إذ قال) وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذى جاءت الآية لأدائه .

ثالثا : وفى الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافا فى مقول القول لموسى . . وإن كان هذا الاختلاف اللفظى لا يغير شيئا من المعنى . . ولكن نحن بصدد البحث فى التزام القرآن بحكاية الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التى وقعت ـ فإن هذا الاختلاف يثير كثيرا من التساؤل !

ففى سورة طه يجىء بقول موسى : ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ على حين يكون قوله فى سورة القصص ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ثم يجىء قوله فى سورة (النمل) هكذا : ﴿ سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .

فهناك أمران اقتضاهما هذا الموقف الذى وقفه موسى من أهله حين رأى نارا فدعاهم إلى الانتظار حيث هم فى مكانهم لا يبرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين : أولهما : هو أن يأتى بجذوة من النار .

وثانيهما : أن يجد عند النار من يؤنس وحشتهم ، فى هذا المكان القفر الموحش .

وقد رأينا صور التعبير عن هذين الأمرين تختلف فى كل آية من الآيات الثلاث فى السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المطلوبين على الآخر ، وتارة يؤخر . . ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ومرة يكون الحديث عن النار المستجلبة بأنها جذوة ، ومرة بانها شهاب قبس ، ومرة ثالثة بأنها شهاب ، وحسب .

وفى آية يكون أحد المطلوبين (خبرا) يلتمس عند النار ، وفى آية أخرى يكون هذا المطلوب (هدى) يلتمس عند النار أيضا .

وفى سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجى (لعل) على حين يذكر المطلوب فى السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا . هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقا . . فهو موقف واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل فى هذا الموقف فكيف يتفق هذا مع هذه المقولات الثلاث

وما بينها من اختلاف ؟

إن هذا الاختلاف لو كان فى غير القرآن لما كان له هذا الشأن الذى نجده له هنا فى القرآن الكريم ، حيث إن للقرآن مقامه من الصدق فى نقل الأخبار ، والمشاهد والأحداث ، وحيث إن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذى يرجح وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء فى الإخبار عن الواقع نتقبلها من غير القرآن ، لأن المعول عليه فى نقل الأخبار هو المعنى ، وهى بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، فى جملته ، وإن اختلفت صور الأداء .

أما والقرآن هو الذى يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطلق فى جميع صوره وأشكاله . . وكل صورة من صوره فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شىء مطلقا من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق فى هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف ؟

أتريد الجواب ؟

إذن ، فلا تعجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر معا ، فإننا بين يدى أسرار محجبة ، وكنوز مصونة فى روائع الكلم ، لا تأذن بشىء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفا ، متأنيا ، متخاشعا !!

ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى فى موقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمأنينة لهم ، وإشاعة الغبطة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء فى ضوء هذه النار .

فهذا الرأى على وجاهته لا نراه يغطى هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع . والذى نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :

أولا : ان مقول موسى لأهله هو قوله : ﴿ **امكثوا إنى آنست نارا** ﴾ ولهذا جاء فى السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو إختلال فى حرف واحد . . ﴿ **إمكثوا إنى آنست نارا** ﴾ . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ، وإلا شعور واحد ينطلق منه هذا القول .

ثانيا : ان بقية مقول القول لا يعدو أن يكون أحد الصور الثلاث : ﴿ **لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾ أو ﴿ **سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون** ﴾ أو ﴿ **لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون** ﴾ . وليس فى مقدورنا أن نقطع بأى منها هو الذى كان القول الذى أسمعه موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما ـ فى رأينا ـ مما كان يدور فى خلد موسى ويخطر فى خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار التى رآها . .

فهو بين يأس ورجاء مما سنيجد عند النار . . فقد يكون موقد النار ركب تجار ، أو قطاع طرق ! . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتى بخبر راجع نفسه ، فقدر غير هذا التقدير . . ثم عاوده الأمل ثم طلع عليه الخوف . . . وهكذا . . ثم قال : لعل وعسى !! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع

إليهما . . الحصول على قبس من النار ، والعثور على الأنيس الذى يبدد مخاوف هذا المكان المخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معا ، طامع فيهما جميعا ، فهو وإن قدم أحدهما لفظا فإنه قد يكون هو المقدم فى خاطره ، ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه . . وهكذا .

والنار التى تصور أنه سيحصل عليها ليست فى تصوره لها على حال واحدة ، لأنه لا يدرى ما هو الذى يمكن ان سيحصل عليه منها ، أهو بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها . وهكذا تكون هذه الصورة المتكررة هى من منطوق موسى عليه السلام ، ومن الخواطر المتلبسة بهذا المنطوق أيضا . .

وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن ان يكون فى غير القرآن . . ولا يمكن ان يحتمله نظم غير نظم القرآن .

ثم إنه لا يمكن ان يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعا كما هو واقع فى هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكمت ألوان الصورة وتدافعت ، ولطم بعضها وجه بعض ! هذا ، ويمكن ان تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس الخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسى ، فكانت ألفاظا مسموعة من موسى أسمعها أهله ، ليكونوا على بينة مما وراء هذا الوجه الذى يتجه إليه ، ولا يدرى على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده .

وفى المشهد الرابع . . وهو الذى يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التى رآها ليست على ما تصور وتخيل ، وإنما هى نور الحق جل وعلا . . وان على موسى ـ وقد عرف هذا ـ أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغى له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمر بخلع نعليه ، وان يتهيأ لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى . . فقد اختارته العناية الالهية ليكون رسولا من رسل الله إلى عباده ـ فى هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث التى صورت بها المشاهد الثلاثة انما هى صورة واحدة ، قد توزعت توزيعا دقيقا محكما ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن ان يقوم بنفسه ، مستغنيا عن غيره ، فترى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومفترقة ! كما يمكن اذا انضم إلى المشهدين الآخرين ان يكون معهما صورة مسجدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمرات ، وما استتر وراء الكلمات ! فنحن نرى من مجموع الصور الثلاث التى تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة ان مكان هذا الحدث كان بالوادى المقدس طوى ، وانه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وان موسى سمع صوت الحق يناديه : **﴿ إنى أنا ربك . . فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله . . لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾**[1] . **﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾**[2] ـ **﴿ إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾**[3] وواضح من هذا أن هذه الكلمات التى تفرقت فى السور الثلاث يمكن أن تظهر فى مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تفكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا فى تعاطف واشتياق ، فهى

(١) سورة طه الآيات : من ١٢ ـ ١٤
(٢) سورة القصص الآية : ٣٠
(٣) سورة النمل الآية : ٩

جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى فى هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضا منه ، وهذا البعض كاف لذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع اطار الصورة ، فإزدادت وضوحا ، وإن لم تتغير محتوى ومضمونا !

وواضح أيضا أن هذا التكرار فى الحديث عن الله ـ ﴿ **إنى أنا ربك . . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . . إنى أنا الله رب العالمين . . إننى أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ هذا التكرار المتلاحق فى سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذى اهتز له موسى من اقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكنا لقلب موسى ، وامساكا لنفسه وقد كادت تذهب شعاعا !

أما فى المشهد الخامس ، وهو الذى يكشف عن المعجزات التى وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى يد موسى ، وما كان من موسى حين رأى هذه المعجزات تنفجر من بين يديه لأول مرة ـ فى هذا المشهد نرى فيه ما رأينا فى سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للمشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن ان يستقل كل مقطع منها فى سورته بتأدية المعنى الذى تؤديه الصورة مجتمعة فى مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التى كانت تطل من وراء حجاب ، فى مقطعها الذى شكلت فيه !!

ففى أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التى يعرفها لها ، والتى صحبها عليها . . الأمر الذى لا نجده فى المقطعين الآخرين .

ونرى العصا حين يؤمر موسى بإلقائها من يده تنقلب حية تسعى فى أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان فى المقطعين الآخرين . . فتكتمل بذلك الصورة الحقيقية لما صارت إليه العصا . . فهى حية فى ضخامتها ، جان فى خفتها ونشاطها وحيويتها التى تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفزع والهلع منها . . وأنت ترى فى تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسعى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذى كشف عنه ما وصفت به فى المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » . . كما نرى فى تصويرها وهى « جان » بأنها تهتز ـ ما يشعر بضخامتها لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز بل انطلاق أشبه بإنطلاق السهم . !

فالحية التى تسعى والجان الذى يهتز . . كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا . . فهى حية فى جان ، و جان فى حية . . (والجان هو فرخ الحيات) وقد جاء فى القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا . . وهو ﴿ **ثعبان مبين** ﴾ . . وهذا الوصف يناظر تماما الوصفين السابقين لها . . فهى ثعبان فى خفة الحركة ولكنه ثعبان مبين فى عظم الجسم وضخامته ! وهكذا نجد التكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكى تحمل فى كل مرة بعضا من مشخصات المشهد وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك على بعد ما بين المشبه والمشبه به . . بالتصوير (الفتوغرافى) . . اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . تصويرا كاملا صامتا . . فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج فى قراءتها إلى مهارة وحذق ،

للكشف عن مضمونها أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف (اللقطات) حتى تتجسم الأحداث وتتحرك الشخصيات وتنكشف كل خافية كانت مختبئة وراء الصورة (الفتوغرافية) إن تكرار الأحداث القصصية فى القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن . تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يرى لها وجه فى أية لغة وفى أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته ! وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدى ما يؤديه العمل السينمائى اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة ـ (طولها وعرضها وعمقها) وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوفا ! أما النظم القرآنى فإنه ينقل المشاهد بأبعادها وأعماقها وبحركاتها وسكناتها وبنطقها وصمتها وبوسوسة خواطرها . وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاث للمشهد الواحد كله . ومن تدبير القرآن فى هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات فى معرض واحد حتى لا تتراكب وتتراكم بل جعلها موزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن الكريم بحيث يمكن أن تستقل كل (لقطة) منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعا صورة واحدة . .

وإذن فالذين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة فى عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآنى قصص واقعى بجميع عناصره ومقوماته ، هذا القول إنما يستقيم فى نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام يرسل على عواهنه ويلقى به بغير حساب ولا تقدير ، ولكنه لا يستقيم أبدا عند من ينظر فى القرآن بعين بصيرته فيرى فى كل كلمة من كلمات الله عالما فسيحا لا حدود له مشرقا بأضواء الحق من أرضه وسمائه .

ثالثا : ومما يراه أصحاب هذا الرأى مؤيدا لوجهة نظرهم فيه أيضا أن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، والشخصيات التى وردت فى هذا القصص لم يكن لسانها عربيا كموسى . وفرعون ويوسف واخوته . والعزيز وامرأة العزيز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، والأنبياء وأقوامهم ، إلى كثير من الشخصيات التى نطق عنها القرآن بلسان عربى . . ففرعون مثلا نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة كقوله : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾[2] .

وإنه مما لاشك فيه أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات فى مقاطعها وحروفها ، وإنما الذى نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . فهى ترجمة أمينة صادقة لما قال ! وهذا النقل أيا كان من الدقة والاحكام فى نقل المعانى من لسان إلى لسان فإنه على أى حال صورة مخالفة للواقع ولو فى الصورة والشكل وإن لم يكن فى المضمون والمحتوى ، وأى مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس فينطقوا بغير اللغة التى نطقوا بها ؟ ففرعون ـ ولغته المصرية القديمة ـ ينطق بالعربية الفصحى ، وأصحاب الكهف

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٥١
(٢) سورة غافر الآية : ٣٦

ولا تعرف لغتهم على وجه التحديد - يتحاورون بلسان عربى مبين .. وهكذا ؟

وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها .. قالتا أتينا طائعين** ﴾[١] ..

﴿ **قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾[٢] .

والهدهد ينطق بين يدى سليمان قائلا : ﴿ **أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم** ﴾[٣]

فهذه المفارقات وأشباهها قد جعل منها بعض الدارسين منفذا آخر ينفذون به إلى القول بأن القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى الذى لا يكون قصصا إلا إذا لونه القاص بألوان من خارج الواقع وجعل لنفسه سلطانا على الأحداث فيغير ويبدل كما يقتضى الحال وتستدعى أجواء القصة .

دعاوى متهافتة :-

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مماحكات وتلبيسات متهافتة ، لا تقوم على أساس من الحجة الواضحة والمنطق المستقيم .. فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى اطوائه الأحداث التى جاء بها متلبسة بكل ما صحبها من صور وأشكال ساكنة ومتحركة فى مجال الزمان والمكان على سواء - هذا القول - مع تسليمنا به لا تقوم منه حجة أبدا على أن القصص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو كثير ..

ذلك أن الحياة كلها بأزمنتها وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها حاضرة عتيدة كلها بين يدى الحكيم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء !

وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو عرض لبعض المواقف وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى الضمير وازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة .

فالقصص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها .. وإنما يمسك من الأحداث والوقائع بما يراه مجليا عن عبرة كاشفا عن عظة ، لتنتفع بها الدعوة الاسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ، والانابة إليه .. ولا يعنيه أن يكون الحدث مدويا صارخا ، أو مزلزلا عاتيا بقدر ما تعنيه الدلالة التى يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها .. ولاشك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقتطعها القصص القرآنى من (شريط) الحياة هى الصدق الخالص ، والحق الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من

---

(١) سورة فصلت الآية : ١١

(٢) سورة النمل الآية : ١٨

(٣) سورة النمل الآيتان ٢٢ ، ٢٣

خلفه . . يقتطعها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، وينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقدها ، وقد تساقط منها ما جف من أوراقها ، وما ذبل من أغصانها . . وإذا هى ثمر طيب ، دانى القطوف ، تأخذه العين وتشتهيه النفس ! .

وإذن فليس تخليص القصص القرآنى من الزوائد والحواشى التى لا تغنى شيئا فى تصوير الحدث وعرضه فى معرض الاعتبار والعظة ـ ليس هذا التخليص إلا عملية غربلة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغثاء والزبد ، ليصفو مورده ، ويسوغ مذاقه للواردين . . وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابسات التى اتصلت بالحدث من كل جهة من جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد !

وهذا التصرف الذى كان من صنيع القرآن فى عرض الأحداث ، وفى تخير الجوانب التى تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها ـ ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن ـ وقد أباح التصرف فى الأحداث على أى وجه من الوجوه قد ـ أدخل فى القصص القرآنى ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل فى معالمه . فهذه مغالطة ـ كما قلنا ـ لأن ما جاء فى القصص القرآنى هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة فى صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخبط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شىء مما وراء هذا الظاهر !

وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها من صور . . كقول موسى لأهله :

﴿ امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾[1] .

وقوله : **﴿ امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾**[2] .

ثم قوله : **﴿ امكثوا إنى آنست نارا ، سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾**[3] .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة فى المقام الذى لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار (امكثوا) إذ لم يكن ثم سبيل إلى تردد فى هذا الأمر . وكذلك الشأن فى قوله **﴿ إنى آنست نارا ﴾** فهذا سبب ، لا سبب غيره فى دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وحيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك !

ثم كان هذا التردد الذى تذهب النفس فى شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يبغى من وراء ذهابه إلى النار . . إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدرى ماذا هنالك عندها ، ومن

---

(١) سورة طه الآية : ١١
(٢) سورة القصص الآية : ٢٩
(٣) سورة النمل الآية : ٧

موقدها .. وأخيرا أيصيب عندها خيرا أم شرا ؟ .

ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره . فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك فى ظاهر أمره وباطنه جميعا .. وإما أن يكون الاختلاف فى اللفظ عن اختلاف فى الأحوال والمواقف .. كقوله فى وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقيها من يده .. فهى مرة (حية تسعى) وهى مرة أخرى (ثعبان مبين) وهى مرة ثالثة (تهتز كأنها جان) .. فهى صور من أحوال العصا يكمل بعضها بعضا .. فهى حية فى ضخامتها ، وهى ثعبان فى خفتها ونشاطها ، وهى جان فيما تثير من رعب وفزع .. ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على تلك الوجوه التى تكشفت له منها .

وأما أن القرآن قد تحدث بلسانه العربى عن ألسنة غير عربية ، أو نطق عن دلالة الحال ، كما فى تحديثه عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجىء منه الادعاء بأن القرآن قد تقول على من نطق عنه ، وإنما هذا الذى نطق به القرآن مترجما به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال - إنما هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو أشارت إليه دلالات الأحوال . وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا فى مثل هذه الأحوال إذا أريد نقلها وعرضها فى الحياة ؟

أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجىء القرآن بالأشخاص والأحداث فيبعثها من مرقدها ويحركها على مسرح الحياة من جديد لتنطق هى بما نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟

إن قدرة الله تعالى لا يعجزها شىء .. ولكن هل تحتمل الحياة هذا لو انه حدث ؟ وهل يلقاه الناس فلا يفتتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم فى تخبط مجنون ؟ ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾[1] !

ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات التى نطق بها أصحابها كما نطقوها بألسنتهم ، أو بأصواتهم - هل يفهمون شيئا ، أو ينتفعون مما استمعوا بشىء ؟

ان القصص القرآنى لكى يكون قصصا مثمرا نافعا ، فقد جاء على وفق الحياة التى يحياها الناس ، ولم يخرج على مألوفها .. !

ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة والاضطراب ! .

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقلونها ، على تعدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة .. ثم لا يكون شىء من ذلك حائلا بينهم وبين أن يفيدوا منها وينتفعوا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .

وغاية ما يمكن أن ينظروا إليه فى هذا الأحوال ، هو الصدق فى الرواية ، والأمانة فى النقل ، والدقة فى التصوير والتعبير . وإذا كان هناك ملتمس تلتمس فيه هذه الغاية على أتم تمامها ، وأكمل كمالها فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا فى القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن .

إن القصص القرآنى وإن يكن سماوى المطلع فهو بشرى الصورة ، إنسانى المنازع والعواطف ، يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرأون

(١) سورة الاسراء الآية : ٩٥

اطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض بصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهول !

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة فى القصص القرآنى :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التى قلناها فى القصص القرآنى ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبرة والعظة منها ، كما انه تخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الصورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات .. وهو : إذا كان ما فى القصص القرآنى هو مجرد أحداث تاريخية . فكيف تحسب هذه الأحداث فى عداد القصص ؟ ومن أى باب تدخل إليه ؟ وهى ليست إلا تاريخا ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية ؟ وفى القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، مع هذا فلم تدخل فى القصص القرآنى المعروف ! فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص ؟

والجواب عن هذا من وجهين :

أولا : الاسلوب الذى جاء عليه القرآن من هذا النظم الرائع المعجز المفجر هو فى ذاته آية الآيات فى فن الكلام .. ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فنا عاليا لا يطاول .. من فنون القول ، وكان أى لون من ألوان الحقائق معجبا مثيرا إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته فى هذا النظم المعجب المعجز !

وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو لسامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولى ، فى مجال النثر أو الشعر ، وفى مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية ـ أو الآيات من الكتاب الكريم ـ لك ان تطلق عليها الوصف الذى يروعك ويروقك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة .. لا تعنى بذلك الاسلوب الذى نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعنى ما دخل عليك منها من آثار فنية ، ملكت عليك عقلك وقلبك .. وهذا ما كان من قريش وهى تستمع من القرآن فتأخذها منه روعة ، وتغشاها من تلقائه سطوة .. ثم لا تدرى ماذا تقول فيه .. فتقول مرة .. إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة : أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر ،

وهكذا تمضى فى تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالا أشبه بهذه الأحوال التى تجدها للشعر ، وللسحر ، وللأخبار الغريبة التى يحدِّث بها الكهان وأصحاب الأساطير .. وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ اثرا ، وأصدق خبرا ..

ومن أجل هذا اراد بعضهم ان يكيد للنبى ، وهو يدعو قريشا إلى الاسلام ، فجلب قينات يعزفن ويغنين ، ليجذب قريشا إليه ، وليملأ أسماعهم بتلك الألحان والأغانى ، التى استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فما التفت احد إلى هذا

العبث إزاء ما كان يملأ به القرآن الآذان والقلوب من آياته البينات المعجزة ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾[١] . وحين لم ينفع هذا شيئا من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، حتى لا يخلص منه إلى الآذان ما ينفذ إلى القلوب منه من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصبيانى ، فقال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[٢] .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهشة والإثارة ، بما لا تستطيع اروع آيات الفن الكلامى ان تبلغ أقل القليل منه .. متفرقة ومجتمعة ! ..

وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية فى النظم القرآنى لها من الإثارة الفنية ما لا يحدثه أروع الملاحم ، وأكثرها إغرابا فى الخيال .. حتى لو كانت هذه الأحداث التى يعرضها القرآن تساق مساعق الخبر ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتكاك بغيرها من الأحداث .

ثانيا : اذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه ، وما لهذا النظم من روعة آسرة وسلطان قاهر متحكم فى العقول والقلوب ، فإن اطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التى جاء بها لا تأباه هذه الأحداث ، بل إنها فى هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ولا عرض للأحداث وإنما هى - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة فى الأرض الموات !

وإذن فليست الأحداث التى جاء بها القصص القرآنى محتاجة إلى شىء جديد من مواد التشويق والإثارة ، تضاف إليها ، لكى تكتسب ألوانا من الإثارة والتأثير .. إذ أنها فو هذا النظم القرآنى غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال والجلال .. فكل حسن إلى حسنها باهت ، وكل جمال إلى جمالها ما حل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل ! .

وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول ...

الأمثال فى القرآن :-

هذا ، وهناك امثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهى على امتداد القصص ، من حيث إنها للعبرة والعظة ، كما يقول الله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون** ﴾[٣] .

ومع هذا فلم يدخلها القرآن فى القصص ولم يعدها منه .

وماذا فى هذه التفرقة ؟ :-

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن فى كيانها من العناصر المعروفة فى القصص ما ليس فى غيرها من الحقائق التى تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .

---

(١) سورة لقمان الآية : ٦
(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦
(٣) سورة الحشر الآية : ٢١

ونعم .. فإن الذى يتأمل القصص القرآنى ، وينظر فى الأحداث والمواقف التى أطلق عليها القصص ـ يجد أن الحادثة القصصية فى القرآن حادثة متميزة بطابع خاص ، لا نجده فى تلك الأحداث التى تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة .

ففى أحداث القصص القرآنى صور من الصراع بين قوى الخير والشر ، وبين النور والظلام ، والإيمان والشرك .. والهدى والضلال ، كما أن فيها صورا من الحوار والجدل الذى تنشأ عنه (أزمة) الحدث أو عقدته ، وأخيرا تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو تحل العقدة ..

ثم إن هذه القصص أيضا لا تعدم مشاهدة وجه المرأة كما تعرفها الحياة . فى عقلها وطيشها ، وفى حبها وبغضها ، وفى قوتها وضعفها ..

والمرأة كما نعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما ان الحوار المنتج للأزمات ، والمولد لحلولها عنصر قوى فيها أيضا . وبهذين العنصرين ـ الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها ـ بهذين العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . (القصة) !

وهذا وذاك جميعه من واقع الحياة ومن صميمها ..

لم تشبه شائبة توليد ، أو تخييل (المرجع : القصصى القرآنى فى منطوقه ومفهومه . للاستاذ عبد الكريم الخطيب)

والآن إلى كليم الله موسى :

قوله تعالى : ﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون** ﴾[١] .

أى : اذكر لقومك وقت نداء ربك موسى من جانب الطور الأيمن وقوله له : ائت القوم الظالمين قوم فرعون . الذين عم ظلمهم البلاد والعباد ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ واعجب معى لهذا الموقف الرهيب : موسى عندما خرج من مصر قال : ﴿ **رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾[٣] . ولما التقى بشيخ مدين وقص عليه القصص قال : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾[٤] . ولما ناداه ربه من جانب الطور الأيمن قال له : ﴿ **ائت القوم الظالمين** ﴾ ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** ﴾[٥] .

فانظر إلى مراحل الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، وعاقبته خسران مبين ، وعقابه أليم . قال جلت قدرته : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة**

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ١٠ ، ١١
(٢) سورة القصص الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) سورة القصص الآية : ٢١
(٤) سورة القصص الآية : ٢٥
(٥) سورة التحريم الآية : ١١

يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يتقون ؟ ﴾ أى ألا يتقون الله ؟ ألا يحذرون عقوبته ؟ ألا يخافون عذابه ؟ ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾[٣] .

هذا تضرع من كليم الله موسى لربه : إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى من تكذيبهم ولا ينطلق لسانى بالدعوة من شدة ما يصيبنى من التكذيب . فأرسل إلى هارون أى : أرسل جبريل بالوحى لتشد به عضدى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى . أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾[٥] تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴾[٦] وليس الخوف من القتل فى حد ذاته ، فالمرسلون يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا . إنما الخوف من أن يقتلوه قبل أن يبلغ رسالات ربه ويؤدى أمانة الدعوة . وقصة القتل هى التى وردت فى قوله جل ذكره : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

والخلاصة أن موسى سأل ربه أمرين : أحدهما أن يرسل معه أخاه هارون كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ﴾[٧] فاستجاب له ربه . قال تعالى : ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[٨] . وقال عز وجل : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾[٩] .

---

(١) سورة القصص الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢
(٢) سورة المطففين الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤
(٤) سورة طه الآيات : ٢٥ - ٣٦
(٥) سورة الشعراء الآية : ١٤
(٦) سورة القصص الآية : ٣٣
(٧) سورة القصص الآية : ٣٤
(٨) سورة القصص الآية : ٣٥
(٩) سورة مريم الآيات : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

والامر الاخر آن يصرف الله عنه شرهم حتى يتمكن من إبلاغ الدعوة فاستجاب له ربه ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾[١].

وفى سورة الشعراء ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾[٢]: والمراد بالآيات المعجزات الباهرات وخوارق العادات كالعصا واليد . ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾[٣].

وما أعظم قوله جل ذكره : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[٤].

وما أكرم قوله جل ذكره : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل ﴾[٦]. :

وإنما جاء بلفظ الرسول مفردا نظرا إلى توحيد دعوتهما كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[٧] فرسل الله جميعا قد عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعا . قال تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾[٨] وقال : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾[٩] وقال : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾[١٠] . وقال : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾[١١] . وقال : ﴿ كذب أصحاب لئيكة المرسلين ﴾[١٢] . وقد جاء موسى إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾[١٣] . وقال جل شأنه : ﴿ فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾[١٤] .

---

(١) سورة طه الايتان : ٤٥ ، ٤٦
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥
(٣) سورة الأنفال الآية : ١٢
(٤) سورة التوبة الآية : ٤٠
(٥) سورة النحل الآية : ١٢٨
(٦) سورة الشعراء الايتان : ١٦ ، ١٧
(٧) سورة الحاقة الايتان : ٩ ، ١٠
(٨) سورة الشعراء الآية : ١٠٥
(٩) سورة الشعراء الآية : ١٢٣
(١٠) سورة الشعراء الآية : ١٤١
(١١) سورة الشعراء الآية : ١٦٠
(١٢) سورة الشعراء الآية : ١٧٦
(١٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
(١٤) سورة طه الآية : ٤٧

﴿ وكان فرعون قد استعبد بنى إسرائيل وأعمل فيهم القتل فذبح الأبناء واستحيى النساء ، وطغى وبغى وتجاوز كل حد حتى لقد تجاوز حدود العبودية ، فحشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾[١] وقال فرعون ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[٢] .

لقد ظل استعباده لبنى إسرائيل قرونا فأراد ربك ان يرفع عنهم تلك القيود ، وأن يخرجهم عن تلك الأسوار والحدود .

قوله تعالى : ﴿ قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾[٣] فى الكلام جمل طواها القرآن كما يطوى البرق معصرات الغمام وذلك للعلم بها . وكما قال العلامة ابن مالك :

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد من عندكما

والبلاغة الايجاز كما جاء فى قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق ﴾[٤] . وتقدير الكلام : فأرسلوه فذهب إلى يوسف فى سجنه وجلس معه ثم قال له : يوسف أيها الصديق :

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾[٥] أى فذهب وألقى الخطاب فقرأته وقالت : إنى ألقى إلى كتاب كريم .

فقد يطوى القرآن جملا تعلم من سياق الكلام . أى فذهب موسى إلى فرعون واستأذن فى الدخول عليه وأبلغه رسالة ربه فقال فرعون : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾[٦] أى أبعد أن ربيناك فى بيوتنا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا وأنعمنا عليك بنعمنا ردحا من الزمن تقابل الاحسان بكفران النعمة وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة .

ـ وقوله ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾[٧] أى وقتلت ذلك القبطى الذى وكزته وهو من خواصى فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والاحسان إليك . وخلاصة ما سلف ـ أنه عدد نعماءه عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه وهو بهذا أيضا قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى وترك أمر التربية لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها فى توجيه الرسالة فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم سواء أكانوا أنعموا

---

(١) سورة النازعات الآيتان : ٣٣ ، ٣٤
(٢) سورة القصص الآية : ٣٨
(٣) سورة الشعراء الآية : ١٨
(٤) سورة يوسف الآيتان : ٤٥ ، ٤٦
(٥) سورة النمل الآيتان : ٢٨ ، ٢٩
(٦) سورة الشعراء الآية ١٨
(٧) سورة الشعراء الآية : ١٩

عليه أم لم ينعموا .

﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ [١] أى قال موسى مجيبا فرعون : فعلتى هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكزتى تأتى على نفسه فإنى إنما تعمدت الوكز للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

﴿ ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ﴾ [٢] أى فخرجت هاربا منكم حين توقعت مكروها يصبنى حين قيل لى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [٣] فوهب لى ربى علما بالأشياء على وجه الصواب وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال ـ إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصودا لى بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى وإن أنتم أسأتم إلى : فقد أحسن إلى ربى فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال :

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل ﴾ [٤] يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا ، وتمن من المنة بمعنى الانعام : أى وما أحسنت إلى وربيتنى إلا وقد أسأت إلى بنى إسرائيل جملة فجعلتهم عبيدا وخدما تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة .

وخلاصة ذلك ـ أيفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت به إلى مجموعهم ؟ فهو ليس بشىء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع ، وكأنه قال : إن هذا ليس بنعمة لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى فكيف تذكر احسانك إلى على الخصوص وتنسى استعباد الشعب كله .

وأخذ فرعون يسأل موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ قال فرعون مارب العالمين ﴾ [٥] لأن موسى قال له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ والمراد بالعالمين هنا كل ما سوى الله تعالى مما يعلم به وجود الخالق فكان الجواب ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [٦] أى إن كان عندكم يقين وتصديق فالذى رفع السموات بلا عمد وبسط الأرض وخلق ما بينهما هو الرب المعبود بحق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان .

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لـروائـع الآيـات والآثـار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحـو أثيم الشـك والانكـار

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٠
(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١
(٣) سورة القصص الآية : ٢٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢
(٥) سورة الشعراء الآية : ٢٣
(٦) سورة الشعراء الآية : ٢٤

قوله تعالى ﴿ **قال لمن حوله ألا تستمعون ؟** ﴾ أى التفت فرعون إلى الملأ والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلها غيرى ؟

ثم زاد موسى وصف إله إيضاحا وبيانا .

﴿ **قال ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى قال : إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والانسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع ردا لما جاء به أورد ما يشك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :

﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ أى : قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه فهو يدعى أن ثمة إلها غيرى .

ثم وصف موسى الاله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان . ﴿ **قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾

أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إن فى كل أدلة على أن هناك إلها مصورا صور هذ العوالم كلها وابدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .

وقد لا ينهم أولا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم إ: إن كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم واغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر كما حكى سبحانه عنه .

﴿ **قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ أى قال له : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها وشديد أهوالها وكانت سجونه أشد من القتل لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت وكان يطرحه فى هوة عميقة تحت الأرض وحده وفى توعده بالسجن ضعف منه ، لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعا شديدا .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهريا ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .

﴿ **قال أولو جئتك بشىء مبين ؟** ﴾ أى أتفعل هذا ولو جئتك بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .

وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

﴿ **قال فات به إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعوى الرسالة فإن من يدعى النبوة لابد له من حجة على صدق ما يدعى وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ أى فبعد أن قال له فرعون مقالته ألقى عصاه فإذا هى ثعبان واضح لا لبس فيه ولا تخييل ولا تمويه وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون ، فقال : بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت .

وقد جاء فى آية أخرى ﴿ **كأنها جان** ﴾ والجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جراء الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم . ﴿ **ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ أى وأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها فإذا هى تضىء الوادى من شدة نورها وكأنها فلقة قمر . قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء تلمع للناظرين لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعناد وذكر لأشراف قومه أمورا ثلاثة :

١ ـ ﴿ **قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم** ﴾ أى قال لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل البارع فى السحر حاذق فى الشعوذة ومراده من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لا من وادى المعجزات .

ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

٢ ـ ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره** ﴾ أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر فيكثر أعوانه وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم .

٣ ـ ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أى فأشيروا علىَّ ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر فى مكافحة العدو والتغلب عليه جهد المستطاع .

قال المفتى أبو السعود : بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبده فى زعمه ، والامتثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

﴿ **قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم** ﴾ أى قالوا : أخر البت فى أمرهما ولا تعاجلهما بالعقوبة حتى تجمع لها من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ويكون لك النصر والتأييد عليه وتجتذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ليجتمع الناس فى صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه للناس فى وضح النهار جهرة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملأ : لا تفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة فى

أمره وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليم ، ظنا منهم أنهم إذا أكثروا غلبوه على أمره وتم لفرعون الغلب . فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم** ﴾ أى إن الملأ بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى وبان من الخير له أن يجمع السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قوله ـ رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى ، وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم لتكون بمحضر الجم الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله .

﴿ **وقيل للناس هل أنتم مجتمعون** ﴾ أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع من موسى الموقع الذى يريده لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين وقهر للمبطلين .

﴿ **لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين** ﴾ أى نرجو أن يكون لهم الغلبة فنتبعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

﴿ **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين** ﴾ .

أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الاحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته .

بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .

﴿ **قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ .

أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم على إبطال ما أدعيه من المعجزات فألقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حميت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء فى سورة طه ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل ما فوقها وأن النصر قد كتب لهم .

﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون صورته وحالته الأولى بتمويههم وتخييل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء فى اية أخرى ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ .

وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم كما أشار إلى ذلك

سبحانه بقوله :

﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى فخروا سجدا لله لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخييل السحرى ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا .

ثم فاهوا بما ـ يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .

﴿ **قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾ أى قالوا : آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وفى هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهارون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ولكن ذلك لم يجد فى السحرة شيئا ولم يزدهم إلا إيمانا وتسليما إذ كان حجاب الكفر قد انكشف واستبان لهم نور الحق وعلمهم ما جهل قومهم وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .

﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟** ﴾ . أى قال لهم : أتؤمنون به قبل أن تستأذنوا وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك ، والا تفتاتوا على ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؟

ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ، ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ فأنتم فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبينه .

ولاشك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطلان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى افادهم صناعة السحر ؟! ثم توعدهم فقال :

﴿ **فلسوف تعلمون** ﴾ وبال ما فعلتم ، وسوء عاقبة ما اجترحتم ، ثم بين ذلك بقوله .

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابوه غير مكترثين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

أ ـ ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أى قالوا لا ضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به ، لأن كل حى لا محالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت علىَّ الموت أم وقع الموت على ؟

٢ ـ ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟** ﴾ أى ولأنا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما

فعلنا من السحر ، واعتقدناه من الكفر ، من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، واعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

قوله تعالى : **﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴾**

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى :

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببنى اسرائيل ليلا من مصر وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا ، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع الفجر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته إمرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على ابن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن ابان بن صالح حدثنا بن فضيل عن يونس بن أبى اسحاق عن ابن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه فقال له رسول الله ﷺ : (تعاهدنا) فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : (ما حاجتك ؟) قال : ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلى ، فقال : (أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ (فقال له أصحابه وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : (إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق فقال لبنى إسرائيل ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل نحن نحدثك ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله الا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا ما يعلمه إلا عجوز من بنى إسرائيل ، فأرسل إليها فقال لها دلينى على قبر يوسف ، قالت والله لا أفعل حتى تعطينى حكمى ، فقال لها وما حكمك ؟ قالت : حكمى أن أكون معك فى الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها ـ قال ـ فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما انضبوه قالت احفروا فلما حفروا واستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار) .

وهذا حديث غريب جدا والأقرب انه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم **﴿ إن هؤلاء ﴾** يعنى بنى اسرائيل **﴿ لشرذمة قليلون ﴾** أى بطائفة قليلة **﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾** أى كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا **﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾** .

أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف ﴿ **وإنا لجميع حذرون** ﴾ أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن استأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزى فى نفسه وجنده بما اراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم** ﴾ أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم وتركوا لكم المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا ﴿ **كذلك وأورثناها بنى إسرائيل** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾[1] الآية وقال تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾ الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ **فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من انه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل ففيه نظر ، وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفى ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذى أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾ أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها ﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد ادركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا : ﴿ **إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ أى لا يصل إليكم شىء مما تحذرون فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون . وموسى عليه السلام فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يا نبى الله ههنا أمرك ربك ان تسير ؟ فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق بإذن الله .

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة ابن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله إليه[2] :

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى ٦ / ٢٩٩

﴿ **أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبى الله أين أمرك ربك ـ عز وجل ـ ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر قال : فاضربه ، وقال محمد بن اسحق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظارا لما امره الله ، وأوحى الله الى موسى ﴿ **ان اضرب بعصاك البحر** ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذى اعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد انه جاءه فكناه فقال انفلق على أبا خالد بإذن الله . قال تعالى ﴿ **فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ أى كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقا . . لكل سبط طريق ، وزاد السدى وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فسار يبسا كوجه الأرض قال الله تعالى : ﴿ **فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى** ﴾[1] وقال فى هذه القصة : ﴿ **وأزلفنا ثم الآخرين** ﴾ أى هنالك . قال ابن عباس وعطاء الخراسانى وقتادة والسدى ﴿ **وأزلفنا** ﴾ أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأتينا بهم إليه ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ . أى أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل الا هلك ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود ان موسى عليه السلام حين أسرىٰ ببنى اسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأنفرق لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعنى البحر فأقحم فرسه فسبح به فخرج فقال أين أمرت يا نبى الله ؟ .

قال : والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى ان اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم ، وفى رواية اسرائيل عن ابى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : (فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون إنطم عليهم البحر فما رئى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ أى فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[2] .

---

(١) سورة طه الآية : ٧٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى ٦/ ٣٠١

نبأ إبراهيم

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

تفسير المفردات

نبأ : النبأ الخبر المهم .

عاكفين : مقيمين على عبادتها .

خطيئتي : ذنبي

حكما : فهما وعلما وحكمة ومنه قولهم : الصمت حكم وقليل فاعله

لسان صدق : أى : ثناء حسنا
وأزلفت الجنة : قربت وأدنيت ليدخلوها .
وبرزت الجحيم : المراد ظهرت جهنم .
فكبكبوا فيها : ألقوا فيها ، والكبكبة الإلقاء على الوجه مرة بعد مرة .
كرة : رجعة إلى الدنيا

وتتلخص القصة التى ذكرت فى هذه السورة :
أ ـ فى محاجة إبراهيم لأبيه وقومه فى عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد القهار .
ب ـ ما ينتظره المؤمنون والكافرون يوم القيامة من أحوال .
جـ العبرة من القصة .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر فى أول السورة شدة حزنه ﷺ على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون فى ذلك تسلية له وليعلم أنه ليس ببدع فى الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا فقد أتى موسى بباهر المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين إلا النذر اليسير ـ اردف ذلك بقصص إبراهيم أبى الانبياء ، وخليل الرحمن وكليم الله ، ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد وآلامه كانت أمض ، فهو كان يرى أن أباه وقومه صائرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم وقد أكثر حجاجهم حتى حجهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهى لا تسمع دعاءهم (ولا يسمع الصم الدعاء) ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات الرب الذى ينبغى أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه ـ ذكر مسألته ودعاءه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه ليستغرق فى معرفة ربه ومحبته ، ويصير أقرب شبها بالملائكة الذين يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به فى دينه ودنياه وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء فى الأثر حكاية عن الله تعالى ﴿ من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ﴾ .
وبعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون وإنما ينفع العبد بعده عن الكفر والنفاق ـ ذكر هنا من وصف هذا اليوم أمورا تبين شديد أهواله ، وعظيم نكاله .

التفسير

قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم : إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ـ قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك

يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴾ .

هذا خطاب من العلى العظيم إلى نبيه الكريم محمد - ﷺ - أن يتلو على أمته خبر إبراهيم الخليل إمام الحنفاء[1] ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ﴾[2] .

لقد كان لابراهيم نبأ عظيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه لأن الداعية الصادق هو الذى يبدأ بأهله ثم بمن يعول . وهكذا فعل الصادق المعصوم محمد - ﷺ - (عندما جمع أهله وأخذ يخاطب كلا منهم يا عباس عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا)[3] . وهو الذى قال : (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول لأهله اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم)[4] .

وقد قال أحد الحكماء :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى	كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى	بالقول منك وينفع التعليم
ولا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لقد ضرب إبراهيم الشرك فى جبهتيه حطمه وجعله جذاذا ضربه فى صورة الأفلاك وضربه فى صورة الأصنام .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى آراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن

---

(١)اخرجه الترمذى - كتاب فضائل القرآن ٥/ ١٨٤ رقم ٢٩٢٦
وقال : هذا حديث حسن غريب
(٢)سورة النحل الآيات : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣
(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٤) متفق عليه من حديث عائشة

من القوم ضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى الذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشأ إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[1] .

وكذلك ضرب الشرك فى عالم الأوثان والأصنام والتماثيل اقرأ معى هذا المشهد القرآنى المهيب :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قل بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾[2] .

ثم اقرأ بعد ذلك هذا المشهد القرآنى الرائع ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٤ ، ٩٠
(٢) سورة الانبياء ٥١ ـ ٧٣

أى مقيمن على عبادتها ودعائها ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ يعنى اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون .

فهم على آثارهم يهرعون .

وتلك أمة التقليد الأعمى التى ألقى القرآن على أهلها باللائمة ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين** ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾(٢) .

إن الاسلام حرر العقل من قيود التقليد الأعمى وجعل التفكير فريضة ولذا ذم التقليد وأصحابه من أهل الضلال .

قال إبراهيم لهم ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾(٣) . أى إن كانت هذه الأصنام شيئ ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدو لها لا أبالى بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾(٣) الآية وقال هود عليه السلام ﴿ **إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم** ﴾(٤) . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله** ﴾(٥) الآية وقال تعالى ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم** ﴾ إلى قوله ﴿ **حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾(٧) . يعنى لا إله إلا الله .

قوله تعالى ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ .

وهكذا يذكر إبراهيم لهؤلاء الضالين أن لهذا الكون إلها لا شريك له بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ويؤكد تلك الحقيقة العليا فيقول ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين** ﴾ فيثبت لله تعالى صفة الخلق والايجاد . ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت . وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا**

---

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٢ ـ ٢٥
(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠
(٣) سورة يونس الآية : ٧١
(٤) سورة هود الآيات : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦
(٥) سورة الأنعام الآية : ٨١
(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤
(٧) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

تذكرون . أفرايتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . . إنا لمغرمون بل نحن محرون . أفرايتم الماء الذى تشربون . أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾[1] .

هذا هو الله الخالق البارىء المصور خالق الانسان ومبدع الأكوان ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾[2] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد .

سبحانك ربى الذى خلقنى فهو يهدين . فلا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أى هو الخالق الذى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجرى على ما قدر له وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ أى هو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسى كثيرا .

لا تجعلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

وقوله ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصلى أن يقول ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[3] . فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله ادبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم اراد بهم ربهم رشدا ﴾[4] . وكذلك قال إبراهيم ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أى وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ أى هو الذى يحيى ويميت لا يقدر على ذلك احد سواه فإنه هو الذى يبدىء ويعبد ، ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ أى لا يقدر على غفران الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ - ٧٤
(٢) سورة الأعلى الآيات : ١ - ٥
(٣) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧
(٤) سورة الجن الآية : ١٠

هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء .

قوله تعالى ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وهنا يتوجه الخليل إلى رافع السماء بلا عمد يدعوه ويسأله أن يهب له حكما قال ابن عباس : هو العلم وقال عكرمة : هو اللب .

وقيل : الحكم هو الحكمة وهى جماع كل خير فهى العلم الغزيز والحكم والصواب والعمل الموفق قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾[1] .

وقال فى شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه كلما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾[2] .

وفى شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾[3] .

قوله ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ أى : اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة .

كما قال النبى - ﷺ - عند الاحتضار : « اللهم فى الرفيق الأعلى »[4] قالها ثلاثا .

وفى الحديث فى الدعاء : ﴿ اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين ﴾[5] .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[6] .

والمرء مع من أحب فاللهم احشرنا مع هؤلاء الذين أنعمت عليهم واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك .

قوله : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أى : اجعل لى ثناء جميلا وذكرا حسنا بعدى أذكر به ويقتدى بى فى الخير كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين ﴾[7] .

قال مجاهد وقتادة : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) يعنى الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾[8] . وكقوله : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾[9] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٢٢

(٣) سورة القصص الآية : ١٤

(٤) البخارى - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله ٨/١٣٢ ، ١٣٣ مسلم - كتاب السلام - باب استحباب رقية المريض ٤/١٧٢٢

(٥) مسند الامام احمد عن عبد الله الرزقى ٣ / ٤٢٤

(٦) سورة النساء الآية : ٦٩

(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠

(٨) سورة النحل الآية : ١٢٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٢٧

قال ليث بن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة .

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للانسان عمر ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها ... فنعم الحياة وبؤسها سيان

قوله تعالى : ﴿ **واجعلنى من ورثة جنة النعيم** ﴾ وهكذا جمع إبراهيم فى دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة حيث طلب الثناء الحسن فى الدنيا وجنة النعيم فى الآخرة وكان عليه السلام كريما فقد دعا للمؤمنين بالمغفرة والرحمة حيث قال : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ (١) وهكذا دعاء الصالحين يطلبون من الله خيرى الدنيا والآخرة .
﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار** ﴾ (٢). وهكذا يحكم الله تعالى لأهل الصلاح والتقوى بأنهم ورثة الفردوس .
﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ (٣).

قوله : ﴿ **واغفر لأبى إنه كان من الضالين** ﴾ هو كقوله ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ (٤).

وهذا مما رجع عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما يتبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ (٥)
وقد قطع تعالى الالحاف فى استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء** ﴾ (٦)

وقوله ﴿ **ولا تخزنى يوم يبعثون** ﴾ وهكذا دعاء الصالحين : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . فقنا . عذاب النار . ربنا إنك من**

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤١
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٠١
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ ـ ١٠
(٤) سورة ابراهيم الآية : ٤١
(٥) سورة التوبة الآيتان : ١١٣ ، ١١٤
(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[١] .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ـ: (يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة) ﴾[٢] .

قوله : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾ أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ﴿ **ولا بنون** ﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله واخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله .

ولذا قال : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ واقرأ معى فى مشاهد القيامة قوله تعالى ﴿ **يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا** ﴾[٣] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[٤] .

وقوله عز وجل : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾[٥] .

وقوله عز وجل : ﴿ **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية . ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** ﴾[٦] .

أما أصحاب القلوب السليمة فانهم فى روح وريحان وجنة نعيم ودولة القلوب كلها اسرار لا يملك مفاتيحها الا علام الغيوب .

وللامام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ صولات وجولات فى عالم القلوب جاء فى كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) وتحت عنوان (فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت) جاء هذا العلم النافع .

قال رحمه الله تعالى :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها . انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ ـ ١٩٤

(٢) البخارى ـ كتاب الانبياء ـ باب قول الله تعالى : [واتخذ الله ابراهيم خليلا] ١٦٩/٤

(٣) سورة المعارج الآيات : ١١ ـ ١٥

(٤) سورة النازعات الآيات : ٣٤ ـ ٤١

(٥) سورة عبس الآيات : ٣٣ ـ ٤٢

(٦) سورة الحديد الآية : ١٥

فالقلب الصحيح : هو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به

كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذى قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير ، وأيضا فانه ضد المريض والسقيم والعليل .

وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خيره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله ، فسلم بلأمحبته لله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والانابة إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح الا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله منه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية وزجاء ، وخلص عمله لله ، فان أحب فى الله وان ابغض البغض فى الله وان أعطى أعطى لله وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ـ ﷺ ـ فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الإئتمام والاتگسه وحده دون كل أحد من الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهى العقائد واقوال اللسان وهى الخبر عما فى القلب وأعمال القلب وهى الارادة والمحبة والكراهة وتوابعها أعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقة وجله . هو ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل . كما قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾[1].

أى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعلة ـ وان صغرت ـ الا ينشر لها ديوانيان : لم ؟ وكيف ؟ أى لم فعلت وكيف فعلت ، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام نحو العبودية وطلب التودد والتقرب الى الرب سبحانه وتعالى . وابتغاء الوسيلة إليه .

ومحل هذا السؤال : إنه ، هل كان عليك ان تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك .

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك التعبد أى هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص والثانى عن المتابعة فان الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص وطريق التخلص من السؤال الثانى بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من ارادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع . فهذا حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١

فصل فى القلب الميت

والقلب الثانى : ضد هذا وهو القلب الميت الذى لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لايبالى إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله . حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه . وان أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه .

فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه فهو بالفكر فى تحصيل الأغراض الدنيوية مغمور وبسكره الهوى وبحب العاجلة مخمور .

ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، لا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريده الدنيا تسخطه والهوى يعميه عما سوى الباطل ويعميه فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى :

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ... ومن قربت ليلى أحب وأقربا

مخالصة هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك .

فصل فى القلب المريض

والقلب الثالث : قلب له حياة وبه علة . فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلت عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى والايمان به والاخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وايثارها والحسد على تحصيلها والحبر والكبر والعجب وحب العلو والفساد فى الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة وداع يدعوه إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا وادناهما إليه جوارا .

فالقلب الأول حى مخبت لين واع والثانى يابس ميت والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وأما الى العطب أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة . .

قلبين مفتونين وقلبا ناجيا . فالمفتونان : القلب الذى فيه مرض والقلب القاسى . والناجى : القلب

---

(١) سورة الحج الآيات : ٥٢ ـ ٥٤

المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .

وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما هيء له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته . وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد الشلاء واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، والعين لا تبصر شيئا . واما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد . فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة . فالقلب الصحيح السليم : ليس بينة وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه فهو صحيح الادراك للحق ، تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى : لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ وفى القلوب من الشبه والشكوك . فتنة لهذين القلبين . وقوة للقلب الحى السليم لأنه يردد ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم أن الحق فى خلافه فيخبت للحق ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له ، فلا يزال القلب المفتون فى مرية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح فلا يضره ما يليقه الشيطان ابدا .

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا . فأى قلب اشربها نكتت فيه نكتة سوداء . وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين . قلب اسود مرباء كالكوز مجخيا . لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، الا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)[1] فشبه عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئا فشيئا ، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب اذا عرضت عليه فتنة اشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله : (كالكوز مجخيا) أى مكبوبا منكوسا ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامیان به إلى الهلاك : أحدهما :

اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل حقا ، الثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ .

وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب ابيض قد أشرق فيه نور الايمان . وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ، فإزداد نوره وأشراقه وقوته .

---

(١) مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١ / ١٢٨ رقم ١٤٤ ، ومسند أحمد ٥/ ٣٨٦

والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ، وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغى والضلال فتن المعاصى والبدع ، فتن الظلم والجهل . فالأولى توجب فساد القصد والارادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة - رضى الله عنهم - القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة ابن اليمان : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان : مادة ايمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما)[١] .

فقوله (قلب اجرد) أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق - و (فيه سراج يزهر) وهو مصباح الايمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغى ، وبحصول السراج فيه إلى اشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار بالقلب الأغلف الى قلب الكافر ، لانه داخل فى غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكيا عن اليهود :

﴿ **وقالوا قلوبنا غلف** ﴾[٢] وهو جمع أغلف ، وهو الداخل فى غلافه ، كقلف وأقلف ، وهذه الغشاوة هى الأكنة التى ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله ، فهى أكنة على القلوب ووقر فى الاسماع ، وعمى فى الابصار ، وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾[٣] . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، ولى أصحابها على ادبارهم نفورا . وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبا** ﴾[٤] . أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه . بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة . وهذا شر القلوب وأخبثها ، فهو يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الايمان ولم يزهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب وإليه يرجع .

فى ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض** ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء**

---

(١) مسند أحمد ١٧/٣
(٢) سورة البقرة الآية : ٨٨
(٣) سورة الاسراء الآية : ٤٥
(٤) سورة النساء الآية : ٨٨
(٥) سورة البقرة الآية : ١٠
(٦) سورة الحج الآية : ٥٣

إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾[١] أمرهن ألا يلن فى كلامهن ، كما تلين المرأة المعطية الليان فى منطقها ، فيطمع الذى فى قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشن فى القول بحيث يلتحق بالفحش ، بل يقلن قولا معروفا ، وقال تعالى : **﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ـ الآية ﴾**[٢].

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾[٣] ، أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، فذكر سبحانه خمس حكم : فتنة الكافرين . فيكون ذلك زيادة فى كفرهم وضلالهم ، وقوة يقين أهل الكتاب ، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن انبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فتقوم الحجة على معاندهم ، وينقاد للايمان من يرد الله أن يهديه . وزيادة ايمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به ، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك ، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به .

فهذه أربع حكم : فتنة الكفار ، ويقين أهل الكتاب ، وزيادة ايمان المؤمنين ، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب .

والخامسة : حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض ، وعمى قلبه عن المراد بذلك ، فيقول **﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾** وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها ، قلب يفتتن به كفرا وجحودا ، وقلب يزداد به ايمانا وتصديقا ، وقلب يتيقنه ، فتقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى ، فلا يدرى ما يراد به . واليقين وعدم الريب فى هذا الموضع ، إن رجعا إلى شىء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقررا لليقين ومؤكدا له ، ونافيا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائدا إلى عموم ما أخبر الرسول به ، لدلالة هذا الخبر الذى لا يعلم الا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف هذا الخبر بعد صدق الرسول ـ ﷺ ـ ظهرت فائدة ذكره . والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته .

وقال تعالى : **﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾**[٥] فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغى ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى . والغى مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين . فقال : **﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾**[٦] ووصف رسوله ـ ﷺ ـ خلفاءه بضدها فقال : **﴿ عليكم**

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٢
(٢) سورة الاحزاب الآية : ٦٠
(٣) سورة المدثر الآية : ٣١
(٤) سورة يونس الآية ٥٧
(٥) سورة النجم الآيتان : ١ ، ٢

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ﴾[1] وجعل كلامه سبحانه كموعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاما لما فى الصدور ، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بل من داء به ظن انه ... نجا وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾[2]، والأظهر أن (من) ههنا لبيان الجنس ، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين .

فصل فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى ، لفساد يعرض له ، يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية ، فإما ان يذهب ادراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، واما أن ينقص إدراكه ، لضعف فى آلات الادراك مع استقامة إدراكه واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه ، كما يدرك الحلو مرا ، والخبيث طيبا ، والطيب خبيثا .

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الادراك والحركة .

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال : إما فساد فى الكمية وإما فى الكيفية .

فالأول : إما لنقص فى المادة ، فيحتاج إلى زيادتها ، وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصها .

والثانى : إما بزيادة الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة ، أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك ، ومدار الصحة على حفظ القوة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة : فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض ان يفطر فى رمضان . ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برىء ، حفظا لقوتها عليها ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، والصوم يضعفها .

وأما الحمية عن المؤذى : فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل ، إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه .

وأما استفراغ المادة الفاسدة : فإنه سبحانه اباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ،

---

(١) اخرجه ابو داود ـ كتاب السنة ـ باب لزوم السنة ٥ / ١٣ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ١ / ١٦ رقم ٤٢ والبيهقى ١٠ / ١١٤ وابن حبان ١ / ١٠٤ رقم ٥

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا ، أو كما قال :

وإذا عرف هذا ، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان و أوراد الطاعات ، وإلى حمية عن المؤذى الضار ، وذلك بإجتنباب الآثام والمعاصى ، وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له ، وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غافر الخطيئات ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، ويفسد به تصوره للحق وارادته له ، فلا يرى الحق حقا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به ارادته له ، فيبغض الحق النافع ، تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى :

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾[1] أى شك ، وتارة بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ **فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾[2] ، فالأول مرض الشبهة ، والثانى مرض الشهوة .

والصحة تحفظ بالمثل والشبه ، والمرض يدفع بالضد والخلاف وهو يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده .

ولما كان البدن المريض يؤذيه مالا يؤذى الصحيح : من يسير الحر ، والبرد ، والحركة ، ونحو ذلك ، فكذلك القلب . إذا كان فيه مرض أذاه أدنى شيء : من الشبهة أو الشهوة ، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته .

وبالجملة فإذا حدث للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ، مالم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه .

فى اقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية ، وشرعية

مرض القلب نوعان : نوع لا يتألم به صاحبه فى الحال ، وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات ، وهذا النوع أعظم النوعين ألما ، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم ، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له ، وهو منوار عنه باشتغاله بضده ، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما .

وعلاجه إلى الرسل واتباعهم . فهم أطباء هذا المرض .

والنوع الثانى : مرض مؤلم له فى الحال كالهم والغم والحزن والغيظ وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب . وما يدفع موجبها مع قيامها وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٠

(٢) سورة الاحزاب الآية : ٣١

فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت وأما أمراضه التى لا تزول إلا بالادوية الايمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء ، ولهذا يقال : (شفى غيظ) فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك فإذا انتصف منه اشتفى قلبه . قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ﴾[1] فأمر بقتال عدوهم وأعلمهم ان فيه ست فوائد :

فالغيظ يؤلم القلب ، ودواؤه فى شفاء غيظ ، فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخرى أصعب من مرض العشق ، وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور ، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه ، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل وأعقب أمراضا هى أصعب وأخطر .

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب ، فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهى فى الحقيقة انما تزيده مرضا إلى مرضه ، لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه ، بسبب جهله بالعلوم النافعة التى هى شرط فى صحته وبرئه ، قال النبى - ﷺ -: فى الذين افتوا بالجهل ، فهلك المستفتى بفتواهم (قتلوه ، قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال)[2] فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم .

وكذلك الشاك فى الشيء المرتاب منه ، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره : وحصل له برد اليقين ، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده ، وينشرح بالهدى والعلم . قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾[3] .

والمقصود : ان من أمراض القلب ما يزول بالادوية الطبيعية ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية والايمانية ، والقلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن .

انتهى المجلد الثانى والخمسون من كتابنا : فى رحاب التفسير ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الثالث والخمسون مبدوءا بتلك العبارة :

(فى ان حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شرفيه)

---

(١)سورة التوبة الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) اخرجه أبو داود - كتاب الطهارة - باب المجروح يتيمم ١ / ٢٤٠ رقم ٣٣٧ وابن ماجه - كتاب الطهارة - باب المجروح تصيبه الجنابة ١ / ١٨٩ رقم ٥٧٢ والحاكم ١ / ١٧٨ وابن حبان رقم ٢٢٠١ واحمد ١ / ٣٣٠

(٣) سورة الانعام الآية : ١٢٥

فصل

فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .

أصل كل خير ، وسعادة للعبد ، بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره ، فالحياة والنور مادة الخير كله .

قال الله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ ؟[1] .

فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ، ومحبته للحسن ، وبغضه للقبيح ، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه ، فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت ، فإنه لايفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) .

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، وكذلك إذا قوى نوره ، واشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه ، فاستبان حسن الحسن بنوره ، واثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه فقال تعالى :

﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾[2] .

فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة ، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله ـ ﷺ ـ متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضىء وتشرق به .

كما قال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[3] .

أى أو من كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ، ووفقناه للايمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته ، فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه ، وترك الأخير بنصيبه من رضاه ، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذى لاينفع نفسه بنافعة ، ولايدفع عنها من مكروه ، فهديناه للاسلام ، وأنعشناه به ، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ، ويعمل فى خلاصها من سخط الله ـ تعالى ـ وعقابه ، فابصر الحق

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢

بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد اعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضىء به ، فيمشى بنوره بين الناس وهم فى سدف الظلام .

كما قيل :

ليلى بوجهك مشرق	وظلامه فى الناس سارى
الناس فى سدف الظلا	م ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين المائي والنارى لوحيه ولعباده .

أما الأول : فكما قال فى سورة الرعد : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾[1] .

فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والاشراق .

وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فواد كبير يسع ماء كثيرا ، وواد صغير . يسع ماء قليلا .

كذلك القلوب مشبهة بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، وقلب صغير يسع بقدره ، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحى لها ، وإمازته لما فيها من ذلك بما يحتمله السيل من الزبد .

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد ، والقاء الوادى له ، وإنما يستقر فيه الماء الذى به النفع ، وكذلك فى المثل الذى بعده : يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر ويستقر صفوه . .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال فى سورة البقرة ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون** ﴾[2] .

فهذا المثل النارى .

ثم قال : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت** ﴾[3] .

فهذا لمثل المائى والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وخلاصه موقو على هذين الأصلين .

قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا** ﴾[4] .

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والانذار به إنما يحصل لمن هو حى القلب ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[5] .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٧
(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٧ ، ١٨
(٣) سورة البقرة من الآية : ١٩
(٤) سورة يس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
(٥) سورة ق من الآية : ٣٧

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[١] .

فأخبر سبحانه وتعالى : أن حياتنا إنما هى باستجابتنا لما يدعونا اليه الله والرسول من العلم والايمان ، فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك .

وشبه سبحانه من لايستجيب لرسوله بأصحاب القبور .

وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم وقبرت فى أبدانهم .

فقال الله تعالى : ﴿ **ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾[٢] .

ولقد أحسن القائل

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

ولهذا جعل سبحانه : وحيه الذى يلقيه إلى الأنبياء روحا كما قال تعالى : ﴿ **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾[٣] .

فى موضعين من كتابه :

وقال سبحانه : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾[٤] .

لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه ، وعمل به .

فقال بحانه : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٥] .

فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾[٦] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾[٧] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة** ﴾[٨] .

فبين سبحانه : انه يسعد المحسن باحسانه فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أخبر أنه يشقى المسىء بإساءته فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٢٤
(٢) سورة فاطر آية : ٢٢
(٣) سورة غافر من الآية : ١٥
(٤) سورة الشورى من الآية : ٥٢
(٥) سورة النحل الآية : ٩٧
(٦) سورة هود من الآية : ٣
(٧) سورة النحل من الآية : ٣٠
(٨) سورة الزمر من الآية : ١٠

قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[(١)] .

وقد جمع بين النوعين ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾[(٢)] .

فأهل الهدى والايمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج .

وقال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾[(٣)] .

فأهل الايمان فى النور وإنشراح الصدر ، وأهل الضلال فى الظلمة وضيق الصدر .

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .

* فى أن حياة القلب وصحته لاتحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريدا له ، مؤثرا له على غيره .

لما كان فى القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الارادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، ويعود عليه بصلاحه وسعادته ، فكماله باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ، ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، وباستعمال قوة الارادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته ، وإيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه .

وقد أمرنا الله سبحانه ـ وتعالى ـ : أن نسأله فى صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال ، لأنهم أمة جهل . واليهود أخص بالغضب ، لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هى المنعم عليهم ولهذا قال سفيان بن عيينه : (من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه) .

وفى المسند والترمذى من حديث عدى بن حاتم عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون)[(٤)] .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع من كتابه ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[(٥)] .

فجمع سبحانه بين الاستجابة له والايمان به . ومنها قوله عن رسوله ـ ﷺ ـ : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[(٦)] .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٣) سورة الزمر من الآية : ٢٢

(٤) انظر سنن الترمذى فى (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ج ٥ ص ٢٠٤ رقم ٢٩٥٤

(٥) سورة البقرة الآية : ١٨٦

(٦) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٧

وقال تعالى : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

وقال تعالى فى وسط السورة : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ـ إلى آخر الآية ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[٣] .

فأقسم سبحانه بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة ، على أن كل واحد فى خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته . فهذا كماله فى نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك وهو الصبر . فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه اياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعى ـ رحمه الله ـ : (لو فكر الناس فى سورة العصر لكفتهم) وهذا المعنى فى القرآن فى مواضع كثيرة : يخبر سبحانه أن أهل السعادة : هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأن أهل الشقاوة : هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغى أن تعرف أن هاتين القوتين لاتتعطلان فى القلب ، فهو إما استعمل قوته العلمية فى معرفة الحق وإدراكه ، وإما استعملها فى معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإما استعمل قوته الارادية العملية فى العمل به ، وإلا إستعملها فى ضده ، فالانسان حارس همام بالطبع ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : (أصدق الأسماء : حارث وهمام)[١] فالحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد ، فإن النفس متحركة بالارادة ، وحركتها الارادية لها من لوازم ذاتها ، والارادة تستلزم مرادا يكون مصورا لها ، متميزا عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته ، وأرادته ولابد .

* فى أنه لاسعادة للقلب ، ولا لذة ، ولا نعيم ، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو الهه وفاطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

معلوم أن كل حى ـ سوى الله سبحانه ـ : من ملك أو إنس أو جن أو حيوان ، هو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولايتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار ، والمنفعة من جنس النعيم واللذة ، والمضرة من جنس الألم والعذاب .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ ـ ٥
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٧
(٣) سورة العصر من الآية : ١ ـ ٣

فلابد له من أمرين : أحدهما معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذى ينتفع به ويلتذ بإدراكه ، والثانى : معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . وبإزاء ذلك أمران آخران ، أحدها : مكروه بغيض ضار ، والثانى : معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء : أحدهما أمر هو محبوب مطلوب الوجود . الثانى : أمر مكروه مطلوب العدم . الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب ، الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان ، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها .

فإذا تقرر ذلك ، فالله ـ تعالى ـ هو الذى يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب . الذى يراد وجهه ، ويبتغى قربه ، ويطلب رضاه ، وهو المعين على حصول ذلك . وعبودية ما سواه والالتفات إليه ، والتعلق به . هو المكروه الضار ، والله هو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه . فهو المعبود المحبوب المراد . وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به : (أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك)[1] .

وقال : (اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)[2] .

فمنه المنجى ، وإليه الملجأ ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذى خلقه بمشيئته . فالأمر كله له ، والحمد كله له ، والملك كله له ، والخير كله فى يديه ، لايحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته فى تحقيق معنى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[3] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب .

فالأول : من معنى ألوهيته ، والثانى من معنى ربوبيته ، فإن الاله هو الذى تألهه القلوب : محبة ، وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما ، وتعظيما ، وذلا ، وخضوعا ، وخوفا ، ورجاء ، وتوكلا ، والرب هو الذى يربى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى مصالحه . فلا إله إلا هو ، ولارب إلا هو . فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك إلهية ما سواه .

وقد جمع الله ـ سبحانه ـ بين هذين الأصلين فى مواضع من كتابه كقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[4] وقوله عن نبيه شعيب : ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[5] .

---

(١) انظر الترمذى والنسائى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت نائمة الى جنبى النبى ﷺ ـ ففقدته من الليل فلمسته فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول : أعوذ برضاك .. الخ .. ورواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) انظر البخارى ومسلم وأبو داود الترمذى

(٣) سورة الفاتحة الآية : ٥

(٤) سورة هود ، من الآية : ١٢٣

(٥) سورة هود ، من الآية : ٨٨

وقوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[١] . وقوله : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[٢] . وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾[٣] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيى التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة .

الوجه الثانى : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ : خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمعرفته والانابة إليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن القلوب ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئا هو أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة ، ولم يعطهم فى الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره .

وقد جمع النبى ـ ﷺ ـ بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والامام أحمد ، وإبن حبان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدعو به : (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسالك كلمة العدل والحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لا يبيد ، وقرة عين لاتنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين)[٤] .

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه سبحانه . ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم مايضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال : (فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة) .

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشدا له ، قال : (واجعلنا هداة مهتدين)[٥]

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لاقبله ، فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء إنفسخ ذلك العزم ، سأل الرضى بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه . فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه ﷺ : (إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله وإن من شقاوة إبن آدم ترك

---

(١) سورة الفرقان من الآية : ٥٨
(٢) سورة المزمل من الآيتين : ٨ ، ٩
(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٠
(٤) سورة الممتحنة من الآية : ٤
(٥) انظر مسند الامام أحمد ـ من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان فى ذكر جواز دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢ رقم ١٩٦٨

استخارة الله وسخطه بما قضى الله تعالى)[١] .

ولما كانت خشية الله عز وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب ، سأله خشيته فى الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق فى رضاه فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضا رضاه فى الباطل ، وسأل الله عز وجل أن يوفقه إلى كلمة الحق فى الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : (لاتكن ممن إذا رضى أدخله رضاه فى الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق) .

ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحنتين يبتلى الله بهما عبده ، ففى الغنى يبسط يده ، وفى الفقر يقبضها . سأل الله ـ عز وجل ـ القصد فى الحالين ، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولاتقتير .

ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن ، ونوعا للقلب ، وهو قرة العين ، وكماله بدوامه وإستمراره ، جمع بينهما فى قوله (أسألك نعيما لاينفد ، وقرة عين لاتنقطع) .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمها قدرا وأجلها خطرا ، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه فى العقبى ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال : (زينا بزينة الإيمان)[٢] .

ولما كان العيش فى هذه الدار لايبرد لأحد كائنا من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا ، وأطيب ما فى الآخرة .

فإن حاجة العباد إلى ربهم فى عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه فى حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الألوهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر ، وقرره أهل الكلام فى كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ قال : (أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، أتدرى ما ق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه الا يعذبهم بالنار)[٣] ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن فى ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس فى الكائنات شىء غير الله عز وجل يسكن القلب إليه ، ويطمئن به ويأنس به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عبد غيره سبحانه وحصل

---

(١) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ومسند أبى اسحاق سعد بن أبى وقاص ح ١ ص ١٦٨

(٢) جزء من حديث رواه الامام أحمد فى مسنده من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وإبن حبان فى جواز دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢

(٣) انظر مسن الامام أحمد من حديث معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦

له به فرع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى **﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾** فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى : فسد فسادا لايرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى : وحده أكرم ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ويخافه ، ويتوكل عليه ، وينيب إليه .

الوجه الثالث : إن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه : وحده لايشرك به شيئا ليس له نظير ، فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه ، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ، لكن بينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذى (لا إله إلا هو) ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولايسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه ، ولابد له من لقائه ولا صلاح له الا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل ، فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى حال ، وبهذا فى حال ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته . وأما إلهه الحق فلابد له منه فى كل وقت ، وفى كل حال ، واينما كان فنفس الايمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الايمان ودلت عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطر والجنان ، لا كما يقوله : من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، ونحس حظه من الاحسان إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل ، كالمعاوضة بالاثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هى مقالات من نقص حظه من معرفة الرحمن ، وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان ، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرته وتوحيده وشكره قرة عين الانسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذاالشأن والله المستعان وعليه التكلان .

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمنا وتبعا فى بعضها ، لأسباب اقتضته لابد منها ، هى من لوازم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه ، وحقه الذى أوجبه على عباده ، وشرائعه التى شرعها لهم ، هى قرة العيون ولذة القلوب ، ونعيم الأرواح وسرورها ، وبها شقاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكمالها فى معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم فى الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى : **﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾**[1] .

قال سعيد الخدرى : (فضل الله : القرآن ورحمته : أن جعلكم من أهله) وقال هلال بن يسان (بالاسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة) .

---

(١) سورة يونس الآية : ٥٧

والتحقيق : أن كلا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الأيمان** ﴾[(١)] والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والايمان . ووضع من وضع بعدمهما .

فإن قيل : فقد وقع نسبة ذلك تكليفا فى القرآن كقوله : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾[(٢)] وقوله : ﴿ **لانكلف نفسا إلا وسعها** ﴾[(٣)] .

قيل : نعم إنما جاء ذلك فى جانب النفس ، ولم يسم سبحانه أوامره وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها روحا ونورا ، وشفاء وهدى ورحمة ، وحياة ، وعهدا ، ووصية ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع : أن أفضل نعيم الآخرة وأعلاها على الاطلاق هو النظر إلى وجه الرب ـ عز وجل ـ وسماع خطابه كما فى صحيح مسلم عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ (اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه)[(٤)] وفى حديث آخر (فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه) فبين عليه ـ الصلاة والسلام ـ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم فى الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه .

من مشاهد القيامة

قوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبوا فيها وهم الغاوون . وجنود إبليس أجمعون ـ قالوا وهم فيها يختصمون بالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[(٥)] .

هذا إخبار منه تبارك وتعالى عن دار الجزاء فى الآخرة ، فالجنة قد أزلفت وقربت وزينت للمتقين الذين خافوا الجليل ، وعملوا بالتنزيل ، ورضوا بالقليل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، إنهم الذين تناديهم الحور العين نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كنا له وكان لنا قال تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[(٦)]

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٦

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢

(٤) الحديث رواه مسلم فى (كتاب الايمان) باب : اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ج ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١ بلفظ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) .

(٥) سورة الشعراء من الآية : ٩٠ ـ ١٠٤

(٦) سورة السجدة الآية : ١٧

لاتركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيس عيش الآخرة

قف خاشعا أمام هذا الجلال ، ومتع السمع والبصر بهذا الجمال ، وأملأ القلب روعة بهذا الكمال ، قف أمام هذا المشهد المشرق البسام ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾[١] .

وينتقل بنا النظم الكريم من نور الوعد إلى نيران الوعيد ، ومن منازل السعداء إلى درك الأشقياء ، فيقول تبارك اسمه ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ أى : سارت الجحيم ظاهرة لمن يرى غير خافية ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون . اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾[٢] إنها منزل لكل من ضل وغوى عن سواء السبيل ، ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا . لايذقون فيها بردا ولاشرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لايرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾[٣] .

القبر باب وكل الناس داخله يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما يرضى الاله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما فانظر بنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفو هفوة فالرب غفار

إن الغاوين الضالين يقال لهم يوم القيامة : ﴿ **أين ما كنتم تعبدون من دون الله** ﴾[٤] ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون** ﴾[٥] هل ينصرونكم ؟ إنهم لايستطيعون ، أو ينتصرون

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ ـ ٢٢
(٢) سورة الطور الآيات : ١٤ ـ ١٦
(٣) سورة النبأ الآيات : ٢١ ـ ٣٠
(٤) سورة الشعراء من الآية : ٩٢ ، ٩٣ .
(٥) سورة الأنبياء الآيات : ٩٨ ـ ١٠٠

لأنفسهم ! إنهم لايقدرون ﴿ فكبكبوا فيها وهم الغاوون ﴾[١] والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾[٢] كذلك ألقى فيها جنود إبليس ﴿ فلم نغادر منهم أحدا ﴾ وفى لفظ الكبكبة ما يفيد التدهور والقاء بعضهم على بعض مما يوحى بالازدراء والاستهانة ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٣]

﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾[٤] هذا حديث عن أهل النار وهم فيها ونحو قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾[٥] ونحو قوله تعالى : ﴿ قال أدخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين . لم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[٦] ثم أقسموا قائلين تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾[٧] .

لقد أقسموا بالله بأنهم كانوا فى ضلال مبين (فإن) هنا مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والتقدير إنه كنا لفى ضلال مبين أى : كان شأننا هكذا فى بعد عن الحق واضح ، ثم بينوا وجه ضلالهم فقالوا : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ثم اعترفوا قائلين ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾[٨] ولكن بعد ما فات الأوان وأدرجوا فى أكفان القدر ودخلت الشمس فى منطقة الكسوف .

وذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانقضت الدنيا ، وانفض السوق ، ربح منه من ربح ، وخسر فيه من خسر ، يقول الامام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : فى قوله تعالى : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ان هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار ، كقوله ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾[٩] .

وأصح القولين : أن المعنى ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلا يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ، ويعظمون أمره .

وقال فى طريق الهجرتين : وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله ـ سبحانه ـ فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٩٤
(٢) سورة الشعراء الآية : ٩٥
(٣) سورة الزخرف الآية : ٧٦
(٤) سورة الشعراء الآيات : ٩٦ ـ ٩٨
(٥) سورة غافر الآيات : ٤٧ ـ ٤٨
(٦) سورة الأعراف الآيات : ٣٨ ـ ٤١
(٧) سورة الشعراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨
(٨) سورة الشعراء الآية : ٩٩
(٩) سورة الأنعام آية : ١

والتعظيم ، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله .

فحقيق لمن نصح نفسه ، وأحب سعادتها ونجاتها : أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا ، وتكون أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله . فإن الشأن كله فيها ، والمدار كله عليها ، والسؤال يوم القيامة عنها .

قال تعالى : ﴿ **فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾[١] قال غير واحد من السلف : هو عن قول « لا إله إلا الله » وهذا حق ، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها ، وواجباتها ولوازمها . فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ، ولوازمها وحقوقها . قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون (ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟) .

فالسؤال عما ذا كانوا يعبدون : هو السؤال عنها نفسها . والسؤال عماذا أجابوا المرسلين : سؤال عن الوسيلة والطرق المؤدية إليها هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها ؟ فعاد الأمر كله إليها . وأمر هذا شأنه حقيق بأن تبنى عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر . ولايؤخذ بأطراف الأنامل ، ولايطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الأعظم ، وما سواه إنما يطلب على الفضلة . أ هـ .

أما قول أهل النار ﴿ **فمالنا من شافعين ولاصديق حميم** ﴾[٢] فهو كقوله تعالى : ﴿ **ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين** ﴾[٣] قال بعض المفسرين : أى من الملائكة وكما يقولون : ﴿ **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾[٤] قال تعالى : ﴿ **ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ **واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ولا هم ينصرون** ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ **ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون** ﴾[٧] وقال : ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه** ﴾ ﴿ **ولايشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾[٨] فلا شفاعة لهؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار . ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب اليم . وما لهم من ناصرين** ﴾[٩] وليس لهم صديق حميم ، أو قريب ، أو ولى أو نصير . قال سبحانه : ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولايسأل حميم حميا يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا** ﴾[١٠].

لقد تمنوا العودة إلى الدنيا فقالوا : ﴿ **لو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين** ﴾[١١] ونحوه قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩٢
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٠ ، ١٠١
(٣) سورة المدثر الآيات : ٤٢ - ٤٨
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٣
(٥) سورة سبأ من الآية : ٢٣
(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٣
(٧) سورة البقرة من الآية : ٤٨ ، ٢٥٥
(٨) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨
(٩) سورة آل عمران آية : ٩١
(١٠) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥
(١١) سورة الشعراء الآية : ١٠٢

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾(١) .

لقد سبق فى علمه القديم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (٢) قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾(٣) أى فيما سبق من قصة الخليل .

وذكر الوعد والوعيد لعبرة وعظة ولكن هل تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ! قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾(٤) ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾(٥) قوله تعالى : ﴿ وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٦) العزيز الذى لايغلب ولايقهر إن يشأ يستأصلهم بعذاب من عنده ﴿ ولايخاف عقباها ﴾(٧) لكنه وسعت رحمته كل شىء ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾(٨) وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾(٩) وقال سبحانه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾(١٠)

نوح وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠

(١) سورة فاطر الآيات : ٣٦ - ٣٨
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٢٩
(٣) سورة الشعراء من الآية : ١٢١
(٤) سورة القمر الآيات : ٢ - ٥
(٥) سورة الشعراء الآية : ١٢٢
(٦) سورة الشمس الآية : ١٥
(٧) سورة الكهف الآية : ٥٨
(٨) سورة النحل الآية : ٦١
(٩) سورة فاطر الآيتان : ٤٤ ، ٤٥
(١٠) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٢٢

بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

تفسير المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكر ويؤنث ، أخوهم : أى : أخوة نسب ، كما يقال : يا أخا العرب ، ويا أخا تيم ، يريدون يا من هو واحد منهم . الأرذلون : واحدهم أرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ، لاتضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ، فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحدا وجمعا ، المشحون : أى المملوء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص على رسوله ـ ﷺ ـ قصص أبيه ابراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات ـ أردف بقصص رسول من أولى العزم وهو نوح ـ عليه السلام ـ ، وفيه مالاقاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته ، وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : ﴿ **وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[1] فأغرقهم الطوفان ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

التفسير

هذه قصة شيخ الأنبياء نوح الذى بعث إلى قوم وصفهم نوح لربه قائلا : ﴿ رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبار . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴾[2] كم ظل على هذه الحال إقرأ قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما** ﴾[3] ماذا كان مصيرهم ﴿ **فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ وماذا كان مصيره والذين آمنوا معه ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة** ﴾[4] وماذا كان الهدف ﴿ **وجعلناها آية للعالمين** ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣
(٢) سورة نوح الآيات : ٥ ـ ٩
(٣) سورة العنكبوت : الآية : ١٤
(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٥

ماذا قال لهم فى دعوته ﴿ ألا تتقون إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾[١] أمر بالتقوى والطاعة فهل فى هذا فظاظة أو غلظة أو خسران أو ضرر ، لقد بين لهم أنه رسول أمين مفوض إليه بشرع من الله ، ومأمور بتبليغه ، وهو أمين على تبليغ هذا الوحى ، أمين عليهم : إنه أخوهم والرائد لايكذب أهله ، اقرأ معى مرة ثانية هذه الآيات التى تسيل رقة وعطفا ورحمة ورفقا ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ ألا تحذرون عقاب الله ، ألا تخافون عذابه ألا تخشون يوما ترجعون فيه إلى الله ، ألا تظنون أنكم مبعثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاتقوا الله الذى خلقكم والذين من قبلكم ، وأطيعونى فيما أمرتكم به ، فأنا لاأسألكم على التبليغ أجرا فإن الرسل أصحاب رسالات بعثوا هادين لاجابين ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر ﴾[٢] والنكرة هنا فى سياق النفى تفيد العموم أى ما اسألكم عليه أى أجر ﴿ إن اجرى إلا على رب العالمين ﴾[٣] فإننا لانلتمس الأجر من أحد غيره ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن اجرى الا على الله ﴾ ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة فقال ﴿ فاتقوا الله واطيعون ﴾[٤] فأنت ترى هنا أن الأمر بالتقوى يملأ الجو عبيرا وأريجا ويتضوع مسكا وطيبا ، لقد قال لهم ﴿ إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾ فالعز كل العز فى وحدانيته ، وطاعته وإفراده بالعبادة ، والذل كل الذل فى معصيته وعبادة غيره .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى ... تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وجميل قول هذا الحكيم :

إلا إنما التقوى هو العز والكرم ... وحبك للدنيا هو الذل والندم

ثم بما أمرهم اسمع معى إلى هذا القلب الكبير الذى يرسل أشعته الكاشفة تبدد غياهب الظلمات فى قلوبهم ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٥] ثم يحرك فيهم هذه النفوس التى نامت على هدهدة الشهوات بين قسوة العاطفة وغفوة الضمير ﴿ ما لكم لاترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾[٦] فبما ردوا عليه ، ردوا بلسان الكبر وسوء الأدب ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾[٧] لقد احتقروا أتباع الأنبياء واستهانوا بهم لفقرهم وقلة مالهم ، وهكذا كان دأب الملأ وسيظل فى كل زمان ومكان ، وقد قال الملأ من قريش لرسول الله ـ ﷺ ـ اطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ونحن نؤمن

(١) سورة الشعراء من الآية : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٩
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٠
(٤) سورة نوح الآيات : ١٠ ـ ١٤
(٥) سورة الشعراء الآية : ١١١
(٦) سورة الأنعام الآية : ٥٢
(٧) سورة الأنعام من الآية : ٥٤

بك ، وكانوا يقصدون بذلك أمثال عمار وبلال وصهيب وخباب وابن مسعود . فقال له ربه : ﴿ **ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[١] بل لقد أوصاه بهم خيرا فقال ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[٢] بل وأمره أن يصبر نفسه معهم ، ونهاه أن يسمع لهؤلاء المستكبرين ، فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[٣] .

فماذا قال نوح لهم ؟ ﴿ **وقال وما علمي بما كانوا يعملون** ﴾[٤] فكل إنسان مسئول عما قدمت يداه أمام الله ، والمسئولية فى الاسلام فردية ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[٥] ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾[٦] ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[٧] ﴿ **فقل لى عملى ولكم عملكم** ﴾[٨] ﴿ **إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون** ﴾[٩] فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وجل - جلال الله - إذ يقول ﴿ **ولاتزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ﴾[١٠] ، وإذ يقول ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

ثم يقول نوح عليه السلام ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾[١١] وكيف يطردهم وقد بعث الأنبياء لتجميع القلوب ، وجاءوا بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم . . إن وظيفة الأنبياء دعوة إلى الله ، وهداية العباد ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار المعاندين وسياسة الدنيا بالدين ، لذا قال نوح : ﴿ **إن انا إلا نذير مبين** ﴾ وقال ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولاأقول لكم عندى خزائن الله ، ولاأعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين** ﴾[١٢] .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٨
(٢) سورة الشعراء الآية : ١١٢
(٣) سورة المدثر الآية : ٣٨
(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥
(٥) سورة النجم الآية : ٣٨
(٦) سورة يونس الآية : ٤١
(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١٣
(٨) سورة فاطر من الآية : ١٨
(٩) سورة الأنبياء الآية : ٤٧
(١٠) سورة الشعراء الآية : ١١٤
(١١) سورة الشعراء الآية : ١١٥
(١٢) سورة هود الآيات : ٢٨ - ٣١

وهكذا تسير القافلة والذئاب تعوى ، فينتقل بهم الحديث من الحجة والبرهان الذى يتكلم الأنبياء بهما إلى الوعيد والتهديد من قبل أهل الباطل ، **﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾**[1] ى : إن لم تنته عما تقوله من الدعوة إلى عبادة إله واحد لنقتلنك رجما **﴿ قال نوح ربى إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولاتزد الظالمين إلا ضلالا ﴾**[2] .

فبما قابل نوح هذا التهديد ، لقد توجه إلى ربه **﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾**[3] وكفى بهذه التهمة ثقلا ، وألما ، ولوعة ، وجوى ، فى نفوس الأنبياء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة ، والتبليغ والفطانة ، والعصمة ، ثم يسأل نوح ربه أن يحكم فهو خير الحاكمين . **﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ﴾**[4] يا سريع الحساب ، يا من إذا حكمت عدلت ، فلا معقب لحكمك ، ولاراد لقضائك ، **﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾**[5] وهنا يقول ربك : **﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾**[6] **﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾** بأهل الايمان **﴿ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾**[7] وهم أهل الكفر والعصيان ، وهكذا حكم الله . وأرخى الستار على تلك المأساة إن فى ذلك الذى حدث لآية وعبرة . وما كان أكثرهم مؤمنين ، لقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون **﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾**[8] الذى لايغلب ولايقهر ومع عزته فهو الرحيم بعباده ، من أقبل ناداه من قريب فأهل ذكره أهل عبادته ، وأهل طاعته أهل محبته ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل معصيته لايقنطهم من رحمته .

هود عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١١٦
(٢) سورة نوح الآيات : ٢١ ـ ٢٤
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٧
(٤) سورة الشعراء الآية : ١١٨
(٥) سورة القمر الآيات : ١٠ ـ ١٤
(٦) سورة الشعراء الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠
(٧) سورة الشعراء الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢
(٨) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ ـ ١٤٠

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

تفسير المفردات

عاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو يا بنى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال : كم ريع أرضك أى : ارتفاعها ، آية : أى قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أى تفعلون العبث ، ومالا فائدة فيه ، مصانع : أى قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه ، أى : كأنكم تخلدون والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رأفة ولاشفقة أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد . خلق الأولين : أى عادتهم التى كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون نموت ونحيا بلا حساب ولابعث .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه ، أردف هذا قصص هود ـ عليه السلام ـ مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى الأعراف ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل قريبة من حضر موت متاخمة ببلاد اليمن ، وكانت لهم أرزاق دارة وأموال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله فيهم نبيا منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويحذرهم نقمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

التفسير

﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنّ عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود** ﴾[١] .

لكى تعلم مدى ما كان عليه القوم من جبروت فعليك أن تقرأ قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٢] وحسبك أن تقف أمام ما قالوه ﴿ **من أشد منا قوة ؟** ﴾ استفهام انكارى يفيد النفى أى لاأحد فى هذا الكون أشد منا قوة ، وجاء الجواب مشعرا بجبروت هؤلاء ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾[٣] لذا كان العقاب ملائما للجرم ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا**

(١) سورة هود الآيات : ٥٩ - ٦٠
(٢) سورة فصلت الآية : ١٥
(٣) سورة فصلت من الآية : ١٥

فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ﴾(١) .

ويوضح هذا الجزاء ما جاء فى قوله تعالى : **﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ ﴾**(٢) .

وكانت شدة العذاب ظاهرة فى قوله جل شأنه : **﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ﴾**(٣) .

قوله تعالى **﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾**(٤) جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور ، وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية لايأبهون بها ، ولايجعلونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الايمان أتبعه الانكار بعض ما هم عليه فقال : **﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ ﴾** أى أتبنون فى كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى **﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾** أى : وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مخلدون فى الدنيا .

روى ابن أبى حاتم أن أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ لما رأى ما أحدث المسلمون فى غوطة دمشق من النبيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟(٥) .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... إن السلامة فيها ترك ما فيها
إلا الذى كان قبل الموت يبنيها ... لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
وإن بناها بشر خاب بانيها ... فإن بناها بخير طاب مسكنه
حتى سقاها بكأس الموت ساقيها ... إن الملوك التى كان مسلطنة

---

(١) سورة فصلت الآية : ١٦
(٢) سورة الحاقة الآيات : ٦ ، ٨
(٣) سورة القمر الآيات : ١٨ ـ ٢١
(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ ـ ١٢٧
(٥) انظر تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير ج ٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣

ودورنا لخراب الدهر نبنيها ... أموالنا لذوى الميراث نجمعها
أمست خرابا وأفنى الموت أهليها ... كم فى المدائن فى الآفاق قد بنيت
من المنية آمال تقويها ... لكل نفس وإن كانت على وجل
والمرء يبسطها والدهر يطويها ... النفس تنشرها والموت يقبضها
الدين أولها والعقل ثانيها ... والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والفضل سادسها ... إن المكارم أخلاق مطهرة
والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها
ولست أرشد إلا حين أعصيها ... والنفس تعلم أنى لاأصادقها
فالموت لاشك يفنينا ويفنيها ... لاتركنن إلى الدنيا وما فيها
والجار أحسن والرحمن ناشيها ... واعمل لدار غد رضوان خازنها
والزعفران حشيش نابت فيها ... قصورها ذهب والمسك طينها

قوله تعالى : ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾[1] وهذا إخبار عن أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، جفاة الطباع ، لو وزعت قسوة قلب أحدهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، ثم يأمرهم بتقوى الله والطاعة له ، فيقول : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[2] أى : اتقوا الله فلا تخالفوا أمره ، وأطيعونى فأنا لكم ناصح أمين ، ثم يعيد الأمر مرة أخرى فيذكرهم بنعم الله عليهم ، فيقول : ﴿ **واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون** ﴾[3] ثم يفصل ما أجمل ويبسط النعم بسطا فيقول ﴿ **أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون** ﴾[4] أبعد هذه النعم تعصون ، وبعد هذا الكرم تخالفون ، وعلى رب العزة تتمردون ، أنعام تضيق بها شعاب الجبال من إبل وبقر وغنم ، وأبناء أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، وجنات من أعناب ونخيل وفواكه كثيرة منها تأكلون وعيون تجرى بالماء عذبا فراتا سلسبيلا ، فماذا قالوا لهذا الناصح الأمين والنبى الكريم : ؟ ﴿ **قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين** ﴾[5] .

قالوا هذا بعد ما حذرهم من عذاب الله وقال لهم : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[6] فتأمل الفرق الشاسع بين الموقفين : يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وهم ينكرون هذا اليوم فأى الفريقين أحق بالأمن الذى يخاف عذاب الله ، أم الذى يأمن مكر الله إنه لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين** ﴾ أى : هون عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدو ، وضرب فى حديد بارد ، فإنا لن نرجع عما نحن عليه ، ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم : ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن**

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٣٠
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٣١
(٣) سورة الشعراء : ١٣٢
(٤) سورة الشعراء الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤
(٥) سورة الشعراء الآيات : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٣٥

بمعذبين ﴾ أى : ما هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولابعث ولامعاد ولاثواب ولاعقاب ، ولاجنة ولانار .

﴿ **فكذبوه فأهلكناهم** ﴾ أى : فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : (ريح عظيمة ذات برد شديد) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وأنه أهلك عادا الأولى** ﴾[2] ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ أى : إن فى إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها ـ لعبرة ﴿ **وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ أى : وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا . ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[3] أى : وان ربك لهو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين .

صالح عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

تفسير المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر . والهضيم : هو النضيج الرخص اللين اللطيف : والنحت : النجر والبرى ، والمنحت : ما ينحت به ، والعزة : النشاط وشدة الفرح . من المسحرين : أى الذين

(١) سورة الفجر الآية : ٦

(٢) سورة النجم الآية : ٥٠

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٤١ ـ ١٥٩

سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : (بالكسر) النصيب والحظ ، فعقروها : أى : رموها بسهم ، ثم قتلوها .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود ـ قص قصة صالح وقومه وقد كانوا عربا مثلهم يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى والشام ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش فى رحلة الصيف ، وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا بعد أن اتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ، ولم تبق منهم ديارا ولانافخ نار .

التفسير

هذا إخبار من الله ـ عز وجل ـ عن عبده ورسوله صالح ـ عليه السلام ـ أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ـ عز وجل ـ أن يعبدوه وحده لاشريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوا وخالفوه ، وأخبرهم أنه لايبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ـ عز وجل ـ ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال سبحانه :

﴿أتتركون فى ما هاهنا آمنين فى جنات وعيون .وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولاتطيعوا أمر المسرفين الذى يفسدون فى الأرض ولايصلحون ﴾(1) .

يقول لهم : واعظا ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات ، وأنبتت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال لهم : **﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾** قال ابن عباس : إذا رطب واسترخى فهو هضيم . وقال مجاهد : هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال عكرمة وقتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم . وقال الحسن البصرى : هو الذى لانوى له .

وقوله تعالى : **﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾** قال ابن عباس وغير واحد : يعنى حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد ، ولامنافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة ، فى الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها . **﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾** أى : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، **﴿ ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ﴾** يعنى : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك

(1) سورة الشعراء الآيات : ١٤٦ ـ ١٥٢

والكفر ومخالفة الحق .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ـ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾(١) .

يقول تعالى : مخبرا عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ حين دعاهم إلى عبادة ربهم ـ عز وجل ـ إنهم ﴿ **قالوا** : **إنما أنت من المسحرين** ﴾ قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿ **من المسحرين** ﴾ يعنى : من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحر

يعنى : الذين لهم سحر ، والسحر هو الرئة ، والأظهر فى هذا قول لمجاهد وقتادة أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لاعقل لك ، ثم قالوا : ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ يعنى : فكيف أوحى اليك دوننا ، كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر** ﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، وأشاروا إلى صخرة عندهم ، من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبى الله صالح ـ عليه السلام ـ فصلى ثم دعا الله ـ عز وجل ـ أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التى وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ **قال** : **هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ، ﴿ **ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم : شربا وريا ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالأوا على قتلها وعقرها . ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب** ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين . ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

*** لوط وقومه ***

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٥٣ ـ ١٥٩

﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

تفسير المفردات :

أخرهم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخرى ابراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحدهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون : أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أى : ممن تخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعلهم ، والقلى : البغض الشديد ، كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقلية قلى وقلاء ، الغابرين : أى الباقين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

المناسبة وإجمال المعنى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر بن أخى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سدوم وما حولها من المدائن من بلاد الغور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وإرتكاب ما كانوا قد ابتدعوه من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فأحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ .

﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[1] . تقدم تفسير هذا فى سالف القصص وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخسهم على قبيح ما ابتدعوه ، بقوله :

﴿ **أتاتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ أى : أأنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلا لكم تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم . ﴿ **بل أنتم قوم عادون** ﴾ أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٦٠ - ١٧٥

بالعدوان وتجاوز الحدود التى تسيغها العقول وتبيحها الشرائع بارتكابكم هذا الجرم الذى لم يخطر ببال أحد ممن قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق ، وانقطعت حجتهم لجأوا إلى التهديد واستعمال القوة :

﴿ **قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين** ﴾ أى : لئن لم تنته عما أنت فيه من إنكارك ما تنكره من أمرنا لننفينك من قريتنا ، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعنف والعسف ، واحتباس الأموال : ﴿ **كما هو شأن الظلمة ، إذا أجلوا بعض من يبغضونهم ، صادروا أملاكهم** ﴾ . حينئذ أجابهم بأن إبعاده لايقف به عن الانكار عليهم .

﴿ **قال إنى لعملكم من القالين** ﴾ أى : إنى برىء مما تعملون ، فبغض له ، لاأحبه ولاأرضاه ، ولايضيرنى تهديدكم ولاوعيدكم ، وإنى لراغب فى الخلاص من سوء جواركم .

وقال ﴿ **من القالين** ﴾ دون (قالٍ) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه ، كما يقال : فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم ، إذ الأولى تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال :

﴿ **رب نجنى وأهلى مما يعملون** ﴾ أى رب نجنى من شؤم أعمالهم ، وأبعدنى من عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه واغاثه بعد أن استغاثه قال : ﴿ **فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ أى فنجيناه وأهله جميعا مما حل بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم ما نزل ، إلا عجوزا قد بقيت ولم تخرج معه وهى إمرأته كما جاء فى سورة هود :

﴿ **إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطا فى الدين ولم تخرج معه .

والخلاصة ـ فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول العذاب بهم ، إلا عجوزا قدر الله بقاءها ، لسوء أفعالها ، وقبح طويتها ، ولما لها من ضلع فى استحسان أفعالهم .

﴿ **ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين** ﴾ أى : ثم أهلكنا المؤخرين عن لوط ، فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار . وبئس المطر هذا وما أشد وطأته وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا جعل عاليها سافلها .

﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ سبق تفسيره تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق إن هذا لهو القصص الحق .

كتب الشيخ المراغى : (رحمه الله تعالى) تحت عنوان (إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون) ويقصد بها قصة لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه كتب يقول : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل . وأهل بيته ، ولوط

وإبنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزح إليهما من الشمال طلبا للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحل فى ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية وبعضهم يقول : إنها قصة واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط) وقد قام الدكتور (أولبرابط) بمباحث واسعة فى وادى نهر الأردن ، وعلى سواحل البحر الميت ، حيث يظن أن سدوم وعموره والثلاث مدن الأخرى كانت فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ انحدر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وإبن أخيه لوط وأهله ، ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة فرأى لوط : حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم .

واختار منطقة وادى الأردن التى كانت فيها سدوم وعمورة ، وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التى فى الشمال ، وضرب خيامه هنالك . وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم وبجواره (المذبح) هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين فى ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قرابينهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التى كانت فى منطقة الأردن .

وبعض علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت آهلة بالسكان .

وفى التوراة : إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته فى حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة ، فاستقلبهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة ، واحتفى بهم ، وفى أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم فى شهواتهم البهيمية ، ولاسيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا توا إلى منزل لوط إبن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقدومهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صوعر) فأمطر الرب على سذوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء ، وقلب تلك المدن وجميع ساكنها ، ونظرت إمرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود مسلح : (اختنقت بالغازات الكثيرة التى التهبت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو) .

وفى التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات هيولوجية شبيهة بحادثة (سذوم وعمورية) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المجاورة ، فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هى وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها .

والخلاصة ـ إن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين ، وكانت ذات رياض غناء ، وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتها ، وشمل أهلها الفساد ، ورتعوا فى شهواتهم البهيمية ولم يبق فيها بر إلا لوط

وأهله ، فانتقم الله منهم ، فأمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فألهب البراكين النارية التى فيها ، فعجلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن . فسبحانه الله رب العالمين الذى قال فى محكم آياته : ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين ﴾(١) . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾(٢) .

يا أمة الاسلام هذا كتاب ربكم من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وما من يوم ينشق فجره إلا وتؤكد الحقائق العلمية صدقه المطلق ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**)(٣) .

اقبلوا على هذا القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وأقيموا دولة الاسلام فى بيوتكم تقم على أرضكم .

فى التحذير من عمل قوم لوط

يقول الامام الجليل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه الجامع : (ذم الهوى) .

أخبرنا هبة الله بن محمد الشيبانى قال : أنبأنا الحسن بن على التميمى قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثنى أبى قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحق عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (ملعون ملعون من عمل بعمل قوم لوط)(٤) .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : انبأنا أحمد بن جقال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنى أبى قال : حدثنا عبد الرحمن عن زهير ، عن عمرو يعنى : ابن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط)(٥)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار قال : أنبأنا محمد بن الحسن بن الغراء قال : أنبأنا على بن عمر السكرى قال : حدثنا حامد بن بلال قال : حدثنا محمد بن عبد الله يعنى : البخارى قال : حدثنا يحيى بن النضر قال : حدثنا عمار بن عمر بن الصبح عن مقاتل بن حيان عن أبى الجارود العبسى عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث فى القصاص ـ وكان صاحب الحديث بمصر ـ فاشتريت بعيرا وشددت عليه رحلا ، ثم سرت شهرا ، فذكر الحديث إلى أن قال : فلقيت الرجل فقال : سمعت

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢

(٢) سورة الاسراء من الآية : ٩

(٣) سورة فصلت : الآية : ٥٣

(٤) الحديث انظره فى نصب الراية للزيلعى : فى كتاب الحدود ص ٢٣٨ ج ٣

(٥) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٤٨١ باب لعن الله من ذبح لغير الله وقال : رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، وعند النسائى آخره مكررا وروى مسلم نحوه

رسول الله -ﷺ- يقول : (ان أخوف ما أخاف على أمتى من بعدى عمل قوم لوط ، ألا فليرتقب أمتى العذاب إذا كان الرجال بالرجال والنساء بالنساء)[١] .

أخبرنا عبد الله بن على قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا أبو القاسم بن بشر ان قال : حدثنا الآجرى قال : حدثنا أبو مسلم الكثبى قال : حدثنا سليمان الشاذكونى .

وأخبرنا ابن ناصر قال : انبأنا طراد قال : أنبأنا على بن محمد بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر الجثمى قالا : حدثنا عبد الوارث قال : حدثنا القاسم بن عبد الواحد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : ان رسول الله -ﷺ- قال : (إنه أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط)[٢] .

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندى قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : حدثنا محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر السامرى قال : حدثنا ابراهيم بن الجنيد قال : حدثنا يوسف بن أبى أمية الثقفى قال : حدثنا عبد الله بن سعد الكندى قال : حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله -ﷺ- (لاينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها)[٣] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا محمد بن على بن ميمون قال : أنبأنا على بن المحسن التنوخى قال : أنبأنا عبد الله بن ابراهيم الزينبى قال : أنبأنا محمد بن سفيان الحنائى قال : حدثنا محمد بن عيسى بن حيان قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا أبو زيد محمد بن حسان قال : حدثنا إبراهيم بن يحيى عن ابن أبى ذئب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال النبى -ﷺ- : لم يعل فحل فحلا حتى كان قوم لوط فإذا علا الفحل الفحل ارتج أو اهتز عرش الرحمن - عز وجل - فاضطربت الملائكة تعظيما لفعلها فقالوا : يارب ألا تأمر الأرض أن تعززهما وتأمر السماء أن تحصبهما ؟ فقال : إنى حليم لايفوتنى شىء)[٤] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : أنبأنا أبو محمد الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا الفضل بن دكين قال : حدثنا مسعر عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال : إن الرجل ليأتى الرجل فتصيح الأرض من تحتها ، والسماء من فوقها ، والبيت والسقف كلهم يقولون : أى : رب ائذن لنا أن ينطبق بعضنا على بعض فنجعلهم نكالا ، ومعتبرا فيقول الله عز وجل : إنه وسعهم

---

(١) الحديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى باب فى الترهيب من اللواط ج ٣ ص ٤٧٨ رقم ١ وقال : رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم : وقال صحيح الاسناد

(٢) أخرجه الحاكم فى (كتاب الحدود) وقال : صحيح الاسناد

(٣) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب : لاينظر الله الى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها ج ٣ ص ٤٨٥ رقم ١٢ وقال رواه الترمذى ، والنسائى وابن حبان فى صحيحه ، وصححه ابن حزم .

(٤) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبى : فى الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض ألفاظه وقال المحقق : ذكر السيوطى حديثا نحو هذا الحديث رآه على ظهر نسخة ابن أبى شيبة بخط مغربى .

حلمى ولن يفوتونى .

أخبرنا عبد الله بن على ومحمد بن ابى منصور قالا : انبأنا طراد قال : حدثنا أبو الحسين بن بشران قال : حدثنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خراش قال : حدثنا مسلم ابن قتيبة قال : سمعت سفيان الثورى يقول : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجليه يريد الشهوة لكان لواطا .

فصل

وأعلم أن المرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل .

أخبرنا عبد الله بن على ، ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا على بن محمد بن العلاف قال : أنبأنا عبد الملك بن بشران ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى قال : حدثنا عمار بن نصر الخرسانى قال : أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن الحرانى عن عنبسة بن عبد الرحمن القرشى عن العلاء ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (سحاق النساء زنا بينهن)[1] .

فى عقوبة اللوطى فى الدنيا

اعلم أن الله ـ عز وجل ـ قص علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارهم الفاحشة ، وميلهم إليها ، وشرح عقابه إياهم فى الدنيا ، فأطال فى ذكر ذلك ما لم يطل فى ذكر كفرهم .

ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة ، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال ، وقصة القوم فى القرآن فى مواضع ، وقد عرفنا منها أنه عاقبهم فى الدنيا بالرجم والحجارة .

وقد رويت فى عقوبة اللوطى فى الدنيا أحاديث :

أخبرنا عبد الله بن على وابن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خداش قال : حدثنا عبد العزيز الداوردى قال : حدثنا عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال فيمن عمل عمل قوم لوط : (يقتل الفاعل والمفعول به)[2] .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنى أبى قال : حدثنا أبو القاسم ابن أبى الزناد قال : أخبرنى ابن أبى حبيبة وداود ابن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقتلوا الفاعل والمفعول به فى عمل قوم لوط)[3] .

---

(١) أخرجه ابن حجر فى المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية فى كتاب الحدود ـ باب : السحاق ج ٢ ص ١١٥ رقم ١٨٠٩

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند ابن عباس ج ١ ص ٣٠٠

(٣) أخرجه أبو داود فى الحدود ـ باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ص ٢٥٧ ج ٢ والترمذى باب : ما جاء فى حد اللوطى ص ١٨٨ ـ ج ١ وعند ابن ماجه فى الحدود ـ باب : من عمل عمل قوم لوط ، ص ١٨٧ ح ٢ وعند الحاكم فى الحدود ، ص ٣٥٥ ـ ج ٢ وقال : صحيح الاسناد

أخبرنا عبد الله بن على قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الآجرى قال حدثنا أبو بكر بن أبى داود قال : حدثنا الحسن بن الصباح قال : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، وأخبرنا بن ناصر قال أنبأنا عبد القادر بن محمد قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس قال : حدثنا عيسى بن شعيب كلاهما عن عباد بن منصور ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : (اقتلوا الفاعل والمفعول به)(١) .

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندى قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا محمد بن أحمد بن الوليد قال : حدثنا محمد بن جعفر السامرى قال : حدثنا على بن داود القنطرى قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنا يحيى بن ايوب عن عباد بن كثير أن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل حدثه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (من عمل بعمل قوم لوط فاقتلوه)(٢) .

قال السامرى : وحدثنا أحمد بن ملاعب قال : حدثنا يعقوب بن الزبيرى قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل)(٣) .

ذكر ما روى عن أبى بكر الصديق وغيره من الصحابة فى ذلك :

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا طراد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : انبأنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا عبيد الله بن عمر قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن داود بن بكر ، عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه وجد رجلا فى بعض الأضاحى ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله - ﷺ - منهم على بن أبى طالب فقال ، على : إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة ، ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله - ﷺ - أن يحرق بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك(٤) .

وبالاسناد قال حدثنا القرشى قال : حدثنا سويد قال : حدثنا ابن أبى زائدة عن ابن أبى ليلى ، عن يزيد بن قيس أن عليا - عليه السلام - رجم لوطيا(٥) .

وقد روى عن عمر أنه قال : (من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه) .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا على بن محمد قال : - أنبأنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الآجرى قال : حدثنا ابن مخلد قال : حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى قال :

---

(١) أخرجه أبو داود فى الحدود باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ج ٢ ص ٢٥٧ والحاكم فى الحدود ج ٤ ص ٣٥٥

(٢) انظر نصب الراية للـيلْعى ج ٣/ ٣٤٠

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الحدود - باب : من عمل عمل قوم لوط ج ٤ ص ٣٥٥

(٤) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب والأقوال فى حد اللوطى ج ٣ ص ٤٨٣ رقم ١٠

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى (كتاب الحدود) ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٨٨ فى اللوطى حد كحد الزانى وقال : أخرجه الزيلعى فى قصة الراية ج ٣ ص ٣٤١ وقال : أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨/ ٢٣٢

حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا غسان بن مضر ، عن سعيد بن يزيد قال : سئل ابن عباس ما حد اللوطى ؟ قال : ينظر أعلى بيت فى القرية فيرمى منكسا ثم يتبع بالحجارة)[١] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس بن يزيد قال : حدثنا غسان قال : حدثنا أبو مسلمة عن أبى نضرة قال : سئل ابن عباس عن حد اللوطى قال : ينظر إلى أعلى بناء فى القرية فيرمى به منكوسا ثم يتبع بالحجارة[٢] .

ذكر كلام التابعين ومن بعدهم فى ذلك :

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر الخرائطى قال : حدثنا على بن حرب قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبى قال : اللوطى (يرجم أحصن أو لم يحصن)[٣] .

وبالاسناد قال : حدثنا الخرائطى قال : وحدثنا أحمد بن منصور الرمادى قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا إبراهيم بن سعد قال : حدثنا صالح بن كيسان ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب قال : (على اللوطى الرجم أحصن أو لم يحصن)[٤] .

قال : وحدثنا عباس الدورى قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال حدثنا سفيان عن حماد عن إبراهيم قال : (حد اللوطى حد الزانى)[٥] .

قال سفيان : وحدثنا حماد ، عن قتادة ، عن جابر بن زيد فى اللوطى يرجم .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الحسن بن على الجوهرى قال : حدثنا محمد بن المظفر الحافظ قال : حدثنا الهيثم بن خلف الدورى قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن النضر قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال حدثنا محمد بن بشر عن سفيان عن ابن أبى نجيح ، عن عطاء قال : (حد اللوطى حد الزانى) وعن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال : (اللوطى حده حد الزانى ان أحصن رجم وإلا جلد)[٦] .

ويه قال الهيثم : وحدثنا عبد الرحمن بن منصور قال : قال معاذ بن هشام : وحدثنى أبى عن قتادة ، عن الحسن أنه قال فى الرجل خالط الرجل : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن كان لم يحصن

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (فى كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦ وقال : أخرجه الزيلعى فى نصب الراية ج ٣/ ٣٤٢ وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢ (فى كتاب الحدود) باب ما جاء فى حد اللوطى وأخرجه ابن أبى شيبة فى مصنعه فى (كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦

(٣) أخرجه ابن أبى شعبة فى مصنفه فى (كتاب الحدود) باب : حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩٠ وقال المحقق : أورده ابن حزم فى المحلى ١١/ ٤٦٧ من الشعبى .

(٤) انظر البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٢

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى (كتاب الحدود) باب اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩١ وقال المحقق : أخرجه عبد الرازق فى مصنفه فى باب من عمل عمل قوم لوط رقم ١٣٤٨٧

(٦) انظر السنن الكبرى للبيهقى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٣

جلد ونفى) وقال معاذ : وحدثنى أبى عن قتادة ، عن جابر بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن معمر . أنهما قالا : عليه الرجم إن كان أحصن وإن لم يحصن .

قال قتادة : وقول الحسن أعجب إلى .

وقال قتادة : وكان الحسن يقول فى الرجل يخالط البهيمة : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن لم يحصن جلد ونفى .

وبالاسناد عن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن سعيد الكندى قال : حدثنا حماد بن خالد ، عن مالك بن أنس ، عن الزهرى قال : يرجم إن أحصن أو لم يحصن ، وكذلك قال ربيعة وابن هرمز ومالك : يرجم أحصن أو لم يحصن ، وقال الزهرى سنة ماضية .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا ابن بشران قال : حدثنا الأجرى قال : حدثنا عبد الله بن العباسى الطيالسى قال : حدثنا إسحاق الكوسج قال : قلت لأحمد بن حنبل : أيرجم اللوطى أحصن أو لم يحصن ؟ قال : يرجم أحصن أو لم يحصن) . وقال إسحق بن راهوية : كما قال أحمد .

وقد روى عن أحمد أن حد اللوطى كحد الزانى يختلف بالثيوبة والبكارة وهذا قول أبى يوسف ومحمد .

وعن الشافعى كالروايتين عن أحمد .

وقال الحكم : يضرب اللوطى دون الحد ، وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وقال النخعى : لو كان أحد ينبغى أن يرجم مرتين لكان ينبغى للوطى أن يرجم مرتين .

أخبرتنا شهدة بنت أحمد قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا عبد العزيز بن على قال : أنبأنا على بن جعفر الصوفى قال : سمعت الموازينى يقول : قال لى رجل من الحجاج : مررت بديار قوم لوط فأخذت حجرا مما رجموا به فطرحته فى مخلاة ودخلت مصر فنزلت فى بعض الدور فى الطبقة الوسطى ، وكان فى سفل الدار حدث فأخرجت الحجر من خرجى ووضعته فى روزنة (الكوة) فى البيت فدعا الحدث الذى كان فى السفل صبيا إلى عنده واجتمع معه فسقط الحجر على الحدث من الروزنة فقتله) .

أخبرتنا شهدة قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن محمد ابن عثمان بن مكى قال : أخبرنى جدى أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن حمد قال : أنبأنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء المغزىء قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحليم يقول : سمعنا يونس بن عبد الأعلى يقول : خرجت حاجا إلى مكة ، فلما كان ليلة عرفات رأى الامام الذى حج بنا تلك الليلة مناما فلما صرنا إلى مكة بعد انقضاء الحج سمعنا مناديا ينادى فوق الحجر أنصتوا يا معشر الحجاج ، فأنصت الخلق فقال : يا معشر الحجيج إن إمامكم رأى أن الله ـ عز وجل ـ قد غفر لكل من وافى العام البيت إلا رجلا واحدا فإنه فسق بغلام .

فى ذكر عقوبة اللوطى فى الآخرة

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : : أنبأنا أبو محمد الخلال قال :

حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن أبى عبد الله الشعرانى قال : حدثنا داود بن المحبر ، عن أبى عائشة السعدى ، عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة وابن عباس قالا : (خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال فى خطبته : (من نكح امرأة فى دبرها ، أو غلاما أو رجلا حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة ينادى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ، ولايقبل منه صرفا ولاعدلا ، ويجعل فى تابوت من النار ، ويسمر عليه بمسامير من حديد من نار ، فتستل تلك المسامير فى وجهه وفى جسده)[1] .

قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

أخبرنا عمر بن هدية الصواف قال : أنبأنا على بن أحمد بن بيان قال : أنبأنا أبو الحسن بن مخلد قال : أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار قال : أنبأنا الحسن بن عرفة قال : حدثنى على بن ثابت الجزرى ، عن مسلم بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس ابن مالك عن النبى ـ ﷺ ـ قال : سبعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولايجمعهم مع العاملين ، يدخلون النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن خمر ، والضارب أبويه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)[2] .

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن يونس قال : حدثنا محمد بن حيان قال : أنبأنا روح بن مسافر ، عن حماد عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا)[3] .

أخبرنا أبو منصور بن عبد الرحمن القزاز قال : أنبأنا أحمد بن على بن ثابت قال : أخبرنى أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد القاضى قال : حدثنا مسلم بن عيسى قال : حدثنا أبى قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن سهيل ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (من مات من أمتى يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم)[4] .

أخبرنا عبد الله بن على ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسن بن بشران قال : حدثنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا سويد بن سعيد قال : حدثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال : لو أن الذى عمل ذلك العمل ـ

---

(١) ذكر صدر الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى فى باب ما جاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن ج ٤ ص ٣٣٩ رقم ١١٧٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر كتاب الكبائر للشيخ شمس الدين الذهبى ـ باب الكبيرة الحادية عشرة اللوط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض الفاظه والحديث فى كنز العمال للمفتى الهندى باب : الترهيب السباعى من الاكمال ج ١٦ ص ٩٠ ، ٩١ رقم ٤٤٠٤٠ وقال : رواه البيهقى فى شعب الايمان والحسن بن عرفة فى جزءيه عن أنس .

(٣) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩

(٤) انظر الخطيب البغدادى فى تاريخه ج ١١ ص ١٦٠ رقم ٥٨٥٣ فى ترجمة عيسى بن مسلم الصفار وفى كشف الخفاءج ٢ ص ٣٨٧ رقم ٢٦٢١ وقال : رواه الديلمى بلا سند مرفوعا عن أنس وحكاه ابن وقيع فيما أسنده ابن عساكر عنه

يعنى : عمل قوم لوط ـ لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة فى الأرض لم يزل نجسا)[١] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا محمد بن المظفر قال : أنبأنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباد بن الوليد الغنوى قال : سمعت إبراهيم ابن شماس يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : لو ان لوطيا اغتسل بكل قطرة من السماء لقى الله غير طاهر)[٢] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا أبو أيوب ابن سليمان ، عن طلحة بن زيد ، عن برد بن سنان ، عن أبى المنيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : (يحشر اللوطيون يوم القيامة فى صورة القردة والخنازير)[٣] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس الهاشمى قال : حدثنا محمد بن يحيى الأزدى قال : حدثنا أحمد بن نصير قال : حدثنا سعدان بن عمرو المعافرى عن أبى الصهباء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من خرج من الدنيا على حال خرج من قبره على تلك الحال حتى إن اللوطى يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رءوس الخلائق يوم القيامة) .

قصة شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(١) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٩ وقال : أخرجه البيهقى فى شعب الايمان انظره فى التعليق على الحديث السابق

(٢) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبى فى الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض ألفاظه قال المحقق : ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات مرفوعا .

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ ـ ١٩١

تفسير المفردات

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا .

من المسحرين: أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لهم .

والقسطاس : الميزان .

والمستقيم : أى العدل . ولاتعثوا : أى لاتفسدوا .

والجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وبضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة .

كسفا : واحدها كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) .

والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

المناسبة واجمال المعنى

قص الله تعالى : علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان ، وألا يعثوا فى الأرض فسادا ، فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد ، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من غيرها ، فيخرجون ، ثم أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحتقروا جميعا .

التفسير

سبحانك ربى ما أعدلك لاتعجل كعجلة أحدنا وإنما تملى للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنها لبإمام مبين** ﴾ .

هذا خطيب الأنبياء شعيب على نبينا وعليه ـ الصلاة والسلام ـ يرسله ربه إلى أصحاب الأيكة ، وكانوا قوما يعبدون المال ويخسرون الميزان والمكيال ، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان .

قوله تعالى ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[1] .

هذا ديدن أهل الباطل تكذيب يقابله من الأنبياء منطق العدالة والحق ، والانبياء الذين ارسلوا إلى أقوامهم كان منطقهم ألا تتقون ؟ ويقول كل منهم إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . . أمين على وحى السماء ، أمين على هدايتكم ، وإرشادكم ، فاتقوا الله واحذروا عقابه ، واطيعون فيما أبلغكم عن الله ، فأنا صاحب رسالة لاأسألكم على التبليغ أجرا ، وأصحاب الرسالات يتجردون عن طلب الأجر لأنهم يبتغون ما عند الله ، والله خير وابقى ، هذا منطق المرسلين ، ولقد قال شعيب : مثلما قال اخوانه الأنبياء ، ثم توجه إلى القوم آمرا وناهيا .

﴿ **أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين** ﴾ أى : إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ، ولاتبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم ، فخذوا كما لو كان البيع لكم .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ ـ ١٨٠

وخلاصة ذلك ـ خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون .

﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم** ﴾ أى : وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء فى سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال ﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثهم ليوم عظيم** ﴾ .

ثم عمم النهى عن البخس فى كل حق فقال : ﴿ **ولاتبسخوا الناس أشياءهم** ﴾ أى : : ولاتنقصوا الناس حقهم فى كيل أو وزن أو غيرهما ، كالمذروعات والمعدودات ، كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير ، وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد فى الأرض بجميع ضروبه وأشكاله فقال : ﴿ **ولاتعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ أى : ولاتكثروا فيها الفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق ، والسلب والنهب ، ونحوها وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال : ﴿ **واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين** ﴾ أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للاصلاح فى الأرض ، وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا ، كقوم هود الذين قالوا : من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا .

(١) ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾ أى : ما أنت ألا ممن سحر عقله مرة بعد أخرى فصار كلامه جزافا لايعبر عن حقيقة ولايصيب هدف الحق .

﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا إيضا .

ثم أكدوا هذا الانكار بقولهم :

﴿ **وإن نظنك لمن الكاذبين** ﴾ أى : وإنا لنعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول : ولم يرسلك الله نبيا إلينا .

(٢) ٢﴿ **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ أى فإن كنت صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ـ إلى أن قالوا ـ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[2] .

فأجابهم شعيب :

﴿ **قال ربى أعلم بما تعملون** ﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى

---

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ ـ ٩٢

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء نفسى ، ولاأدعى القدرة على عذابكم .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ أى : وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء فجعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولاماء ولاشراب ، فاضطروا إلى أن يخرجوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا كلهم تحتها فأمطرتهم شواظا من نار فاحترقوا .

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : إن فى ذلك الانجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور لدلالة واضحة على صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين ، مع أنك قد أتيتهم بما لايكون معه شك لما يصحبه من الدليل والبرهان .

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أى : وإن ربك لهو العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبيه) :

جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فان النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم هى مثل النتائج التى حصل عليها النبى ـ ﷺ ـ ولم يكن حين نزولها ذا شوكة ولا ذا قوة ، وإن ما أصيب به من التكذيب والأذى ، وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين ، نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .

منطق الحق والعدل

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩ ـ ٢٢٧.

ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

تفسير المفردات

الروح الأمين : هو جبريل - عليه السلام - ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين .

وحيه تعالى : وموصله إلى من شاء من عباده .

على قلبك : أى على روحك ، لأنه المدرك والمكلف دون الجسد .

الزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة .

الآية : الدليل والبرهان .

الأعجمين : واحدهم أعجمى ، وهو من لايقدر على التكلم بالعربية .

سلكناه : أى أدخلناه .

المجرمين : مشركى قريش .

بغتة : فجأة .

منظرون : أى مؤخرون .

ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم وما ينبغى لهم أى : ما يتيسر ولايتسنى لهم ، وما يستطيعون : أى ما يقدرون على ذلك لمعزولون : أى لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .

أنبئكم : أى أخبركم . والأفاك : كثير الافك والكذب .

الأثيم : كثير الذنوب والفجور .

يلقون السمع : أى يصغون أشد الاصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب .

الغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

الوادى : الشعب ، يهيمون : أى يسيرون سير البهائم حائرين لايهتدون إلى شىء .
المنقلب : المرجع .

*** المناسبة وإجمال المعنى***

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص ، وبين مادار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر فى العاقبة لرسله المتقين ، فإن سنته فى كل صراع بين الحق والباطل أن تزول دولة الباطل ، وينتصر الحق وإن طال الزمن ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه** ﴾[1] .

وفى ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له ، بأنه مهما أوذى من قومه ولقى منهم من الشدائد ، فإن النصر والفوز له ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[2] .

أردف هذا ببيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل - عليه السلام - بلسان عربى مبين ، لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين ، وأن ذكره فى الكتب المتقدمة المأثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه يبشر به كما قال : ﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾[3] وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره فى كتبهم كما قال : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل** ﴾[4] .

وكما أن الأعجمين إذا قرىء عليهم لم يدروا منه شيئا ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لايؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لايشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذٌ ؟

﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا** ﴾[5] .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

ثم رد على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد - ﷺ - تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة - بأن الشياطين من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة فى السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله - ﷺ - فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾[6] .

وبعد أن بالغ سبحانه فى تسلية رسوله - ﷺ - وأقام الحجة على نبوته ، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك أمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ، ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨
(٢) سورة الأحزاب الآية : ٦٢
(٣) سورة الصف آية : ٦
(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٧
(٥) سورة غافر : آية : ٨٥
(٦) سورة الجن الآيتان : ٨ ، ٩

ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أنزل الله : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أتى النبى ـ ﷺ ـ الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهد ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟) وأنزل الله تعالى : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾[1] .

وبعد أن أبان سبحانه امتناع الشياطين بالقرآن ، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين ـ أعقب هذا ببيان استحالة تنزلهم على رسول الله ـ ﷺ ـ ، فإنها لاتنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيهم وهو تخيلات لاتطابق الحق والواقع .

وبعدئذ ذكر أن محمدا ـ ﷺ ـ ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون فى كل واد من أودية القول من مدح وهجو وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لاتترجم عن حقيقة ، وليس بينهما وبين الصدق نسب ، ومحمد ـ ﷺ ـ لايقول إلا الصدق فأنى له أن يكون شاعرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين** ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن القرآن العظيم ، فهو تنزيل من حكيم حميد ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين** ﴾[2] وقوله جل شأنه : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾[3] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾[4] وقوله جل وعز : ﴿ **تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾[5] وقوله تبارك وتعالى :

﴿ **وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[6]

﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ ونحوه قوله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا**

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند ابن عباس : ١/ ٣٠٧ ورواه البخارى ، تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب وتب) : ٦/ ٢٢١ ، ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ٦/ ١٤٠ . . ومسلم ، كتاب الايمان ، باب فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/ ١٣٤ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (تبت) الحديث ٢ ، ٣٤ : ٩/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨ وقال الترمذى : (هذا حديث حسن صحيح) .

(٢) سورة السجدة آية : ٢

(٣) سورة الأحقاف آية : ٢

(٤) سورة غافر آية : ٢

(٥) سورة فصلت آية : ٢

(٦) سورة فصلت من الآية ٤١ ، ٤٣

لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾[١] .

ونحوه أيضا : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾[٢] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولابقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾[٤] .

وسمى جبريل الروح ، لأنه يروح ويغدو بين الله ورسله ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين على الوحى لايزيد ولاينقص ، وما هو على الغيب بضنين : وهكذا كان جبريل من بين ملاكة الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء .

﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أى على قلب رسول الله ـ ﷺ ـ لانذار البغاة المعاندين .

﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[٥]

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[٦] . ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[٧] .

﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾[٨] .

﴿ بلسان عربى مبين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[٩] وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[١٠] وقوله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾[١١] وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾[١٢].

* نزول القرآن الكريم *

نزل القرآن مفرقا ، وفى أوقات متباعدة وتاريخه هو تاريخ الرسالة المحمدية ، ومدته هى مدتها ، أو قريبا من ذلك .

وقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى :

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾[١٣].

وقال ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾[١٤] .

وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾[١٥].

---

(١) سورة البقرة آية : ٩٧
(٢) سورة التكوير الآية : ٢٠
(٣) سورة الحاقة الآيات : ٤١ ـ ٤٢
(٤) سورة النجم آية : ٥
(٥) سورة «يس» الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
(٦) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢
(٧) سورة الأعراف آية : ٢
(٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥
(٩) سورة يوسف آية : ٢
(١٠) سورة الزخرف آية : ٣
(١١) سورة فصلت آية : ٣
(١٢) سورة النحل آية : ١٠٣
(١٣) سورة البقرة من الآية : ١٨٥
(١٤) سورة القدر الآية : ١
(١٥) سورة الدخان الآية : ٣

ورمضان مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة ، فقد جاء فى مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : (أنزلت صحف ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[١] .

ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت : أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة . فيكون إنزاله فى ليلة خمس وعشرين .

وهذه الكتب المنزلة ماعدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذى نزل عليه جملة واحدة .

وأما القرآن المجيد : فمعلوم أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا من حين رسالته إلى قرب وفاته ، بيد أن ظاهر هذه الآيات يدل على أنه نزل كله جملة واحدة فى ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهو أيضا ظاهر حديث واثلة السابق . وهذا يثير فى النفس تساؤلا . كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقينا من أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا فى اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريبا ، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم فى سورة الفرقان : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾[٢] .

وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول : إن الذى أنزل فى ليلة القدر إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الأنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الأنسان ما لم يعلم** ﴾[٣] فيكون قوله تعالى :

﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ معناه شهر رمضان الذى ابتدىء فيه إنزال القرآن .

وقوله : ﴿ **إنا أنزلناه** ﴾ معناه إنا ابتدأنا إنزاله .

وهذا الجواب ليس بسديد ، لأن فيه حمل الآيات على غير ظاهرها .

والجواب السديد هو ما أجاب به ابن عباس فى آثار صحيحة مروية عنه نكتفى منها بما يلى :

أولا : أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ - ومعنى قوله : (فصل القرآن من الذكر) أن الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلا من اللوح المحفوظ ، ثم أنزلوا ما كتبوه إلى مكان فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة .

ثانيا : أخرج النسائى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : (أنزل

---

(١) مسند الامام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع ج ٤ ص ١٠٧ وفى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ١ ص ٤٥١ فى الجزء الثانى أخرجه أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان والأصبهانى فى الترغيب عن واثلة بن الأسقع .
(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٢
(٣) سورة العلق الآيات : ١ - ٥
(٤) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٣ وقال الحاكم : صحيح الاسناد

القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا لليلة القدر ثم أنزل بعد فى عشرين سنة)[1] . وقوله (فى عشرين سنة) فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو سنتان وخمسة أشهر تقريبا .

ثالثا : ـ أخرج ابن مردويه والبيهقى وابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سأله عطية بن الأسود ، فقال : (وقع فى قلبى الشك)[2] قول الله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ وقوله : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ وقوله :

﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ وقد أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر ، وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام وقوله : (وقع فى قلبى الشك) .

لايقصد به حقيقة الشك فإن القرآن لايشك فيه مسلم ، وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذى يبدو لأول وهلة يثير فى النفس حيرة عن الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لاريب فيه .

وقوله : (أنزل على مواقع النجوم) معناه أنه أنزل مفرقا على مثل مساقط النجوم فإن النجوم تسقط أمام الأنظار فى أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضا .

وقوله : (رسلا) بكسر الراء ـ معناه (تؤده) أى فى زمن طويل . ولاشك أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى موضع مخصوص فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة ـ لايقوله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ اجتهادا ، ولاتخمينا ، فإنه من علم الغيب الذى لايطلع الله عليه إلا رسوله ـ ﷺ ـ .

وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيتات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فإنه لايعارض نزوله الحسبى فى التاريخ المذكور ، أى : ابتداء نزوله على الرسول ـ ﷺ ـ مفرقا ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان ، غيبى وحسبى وتاريخهما واحد .

ويتساءل العلامة الزركشى عن السر فى هذا النزول ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : (فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لأمره ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لتنزله عليهم) .

وقد بين الله تعالى : حكمة نزول القرآن مفرقا لاجملة واحدة فى موضعين فى الكتاب العزيز .

الموضع الأول : قوله تعالى فى سورة الاسراء : ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك (فى كتاب التفسير) باب : أنزل القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر الى السماء الدنيا ج ٢ ص ٢٢ وقال الحاكم : حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرجه الامام النسائى والبيهقى عن ابن عباس .

(٢) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى فى الجزء الأول ص ٤٥٦ قال : وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى وابن مردوية والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن مقسم قال : سأل عطية ابن الأسود ، ابن عباس فقال : وذكر الحديث .

الموضع الثانى : قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ .

وصدر آية سورة الاسراء ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة وهى أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدريج وتحليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدريج أيضا وآخرها ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ .

يرشدك إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة ، وهى الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى : وليس من قول البشر ، فإنه مع نزوله مفرقا حسب الحوادث ، وإعجازه بهذا الترتيب الزمنى كان الرسول ـ ﷺ ـ يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى : بعد آية كذا ، من سورة كذا ، فكان ترتبه فى التلاوة غير ترتيبه فى النزول وكان مع ذلك متناسبا أعظم التناسب ، بل معجزا للخلق جميعا أن يأتوا بمثله ، فهذا إعجاز متكرر مرتين .

أولاهما : بترتيبه فى التلاوة آيات وسورا طوالا وقصارا وأوساطا والآية الأولى من آيتى (الفرقان) : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** ﴾ .

ترشد إلى حكمة ثالثة ، وهى تثبيت قلب الرسول ـ ﷺ ـ بتجدد الوحى ، ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانشراح الصدر مع ما فى ذلك من تيسر الحفظ ، وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الاتيان بمثله كلما تحداهم .

والآية الكريمة الثانية من آيتى الفرقان : ﴿ **ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ ترشد إلى حكمة رابعة ، وهى مسايرة الحوادث بإجابة السائلين ، وبيان حكم الله تعالى : فى الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأول ، وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للاسلام والمسلمين .

وكان أول ما نزل هو وقوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ كما تفيده السنة الصحيحة ، ففى البخارى عن عائشة قالت : (أول ما بدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الأنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم** ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . . . الحديث[1] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ـ سورة العلق ج ٢٠ ص ١٠٨ وفى مسلم الرؤيا الصادقة كما جاء فى نهاية الحديث . وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) ٣ـ باب ج ١ ص ٢٣

لكن جاء فى صحيح مسلم عن جابر : (أول ما نزل من القرآن سورة المدثر)[١] وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحى التى تلت النزول الأول .

والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها وهى عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهرى عن أبى سلمة ، عن جابر أن النبى ـ ﷺ ـ قال : وهو يحدث عن فترة الوحى :

(بينما أنا أمشى ، إذا سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، زاد مسلم فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : **﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله : والرجز فاهجر ﴾**[٢] فحمى الوحى وتتابع فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التى فى حديث عائشة ، وأن التى فى حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحى لايكون إلا بعد وحى سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا أيها المدثر .

وإذا كانت أول ما نزل هو قوله تعالى : **﴿ اقرأ باسم ربك ﴾** كما ثبت لدينا بالدليل القاطع ، فإن آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : **﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾**[٣] .

أخرجه النسائى وابن مردويه والطبرى عن ابن عباس .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم فى الاسلام ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ، ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه ، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .

وقد نزل القرآن بأرقى صور الوحى . إذ ورد فى القرآن أن الله تعالى يكلم الناس فى صور ثلاث قال تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾[٤] .

فأول صورة لكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ للانسان ، هى الايحاء ، ومعناه الاشارة السريعة تلقى فى روع الانسان ، وفى هذه الحالة يتكلم الأنبياء وغيرهم من المتقين بنفث من روح القدس ، فيلقى فى نفس الموحى إليه فكرة تشع فى روعه بنور خاطف كأنه البرق ، ولايكون الايحاء فى هذه الصورة مصاغا بكلام ، بل يكون خطرة تخطر بالبال لايسبقها تفكير وتجلى بها شكوك .

---

(١) انظر الحديث فى تفسير القرطبى ـ تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٠

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) ٣ ـ باب ج ١ ص ٢٧ رقم ٤

(٣) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٢ ص ١١٦ قال : وأخرج أبو عبيد وعبيد بن حميد وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت من القرآن على النبى ـ ﷺ ـ **﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾** .

(٤) سورة الشورى من الآية : ٥١

وثانى صورة لكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ للانسان : هى الكلام من وراء حجاب . وثالث صورة لكلام الله للانسان : الحالة التى يرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها كلاما منه يحمله ملك رسول إلى الموحى إليه .

وهذه الصورة هى أعلى مراتب التنزيل حيث اختص الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها أنبياءه ورسله دون سواهم لتبليغ رسالاته إلى الناس ، وأما الصورتان الأوليان : الايحاء والكلام من وراء حجاب ، فتقل مرتبتهما عن الصورة الثالثة ويشترك فيهما الأنبياء ومن عداهم ممن سلكوا نهجهم من عباد الله المتقين . وأما الرسل فقد أمرهم الله بأن يبلغوا رسالاته إلى الناس وينذروهم بها ، وذلك لتجنيبهم مواطن الضلال ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم المفضى إلى نجاتهم وإسعادهم ، ورسالة هذه غايتها تكون أشد شأنا مما عداها ، ويكلم الله فيها رسوله بأعلى صور الكلام مرتبة ، فلا تكون فكرة عابرة ، ولا كلاما يسمعه الرسول وينطق به بنفث من روح القدس ، بل يرسل الله تعالى : كلاما يحمله روح القدس إلى الرسول ، ويسمى كلام الله هذا الوحى المتلو ، وبه نزل القرآن كله بدون استثناء .

فالقرآن وحى متلو على النبى نزل به الروح الأمين على قلب النبى بكلام عربى مبين وبأرقى صور الوحى .

وهناك صور أخرى للوحى فقد ورد أن النبى كان يرى قبل نزول القرآن الرؤيا الصادقة (إن أول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصادقة فكان رسول الله لايرى رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح) .

ويتبع هذه الصورة من الوحى ما ورد من أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسمع أصواتا خفية ، وهذه الصورة يعبر عنها بالوحى الخفى يوحى بها الله إلى الرسول .

وتختلف حالة الانسان أثناء تلقى الوحى باختلاف صوره . ففى القسمين الأولين تعترى الانسان حالة غير عادية ، سواء أتاه الايحاء فى وقت النوم أو اليقظة ، ولايحدث تغيير بين فى الموحى إليه ، وأما فى الصورة الثالثة : وهى التى اختص الله بها أنبياءه ورسله فتتغير حالة الموحى إليه تغييرا كبيرا ، فينتقل معها من عالم إلى آخر ، ولايزال الموحى إليه يقظا تمام اليقظة غير مصروع ولاغائب عن وعيه ، شاعرا بوطأة الوحى ويستطيع من حوله من الناس أن يشاهدوا هذا التغير المحسوس أثناء الوحى ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال الرسول : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وبهاتين الحالتين : نزل القرآن على الرسول ـ ﷺ ـ ، ففى كلتيهما كان الرسول يرى جبريل ، وفى كلتيهما كان جبريل ينقل كلام الله إليه فيفصم عنه فيعى ما يقول ، ولافرق بين الحالتين سوى أنه فى إحداهما كان جبريل يظهر على صورة رجل ينقل كلام الله بصوت هادىء لين ، وأما فى الحالة الثانية

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب بدء الوحى) باب : كيف كان بدء الوحى ج ١ ص ٢

فكان الوحى يأتى كصلصلة الجرس - أى : أن جبريل كان ينقل كلام الله بصوت قوى شديد .

وكان الوحى على هذا أشد وطأة على الرسول - ﷺ - من الحالة السابقة ، وكان الحامل لكلام الله تعالى : فى كلتا الحالتين جبريل - عليه السلام - وكان الرسول الكريم وقت نزول الوحى ينتقل - كما ذكرنا من عالم إلى آخر ، وكان يبلغ منه الجهد مبلغا كبيرا حتى كان جبينه يتصبب عرقا فى أشد أيام البرد .

وسواء أظهر جبريل - عليه السلام - فى صورة رجل أم لا ، وسواء أبلغت الرسالة فى صوت هادىء لين أم فى صوت قوى شديد ، فإنه لاريب فى أن الموحى به كان كلاما من الله يحمله جبريل إلى الرسول - ﷺ - ونزل القرآن جميعه بهذه الصيغة منجما على الرسول بواسطة جبريل .

وقد كان الرسول يتلقى التنزيل بصورتيه وهو جالس مع أصحابه أحيانا ، ويستخلص من ذلك أن الرسول كان يرى جبريل ويسمع منه التنزيل .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الافك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنون جملة ، وصح نزول جملة ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ وحدها وهى بعض آية .

والحكمة فى نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن النبى - ﷺ - من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونوها .

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة : وهى كل القرآن تقريبا . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب ، وكان هو سببا فى نزوله ، فقد روى عنه أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : - ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ .

وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** ﴾ فنزلت كذلك .[1]

وفى رواية أخرى : أنه لما نزلت الآية : ﴿ **ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين** ﴾ قال عمر بن الخطاب قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت الآية كما نطق عمر : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .

وفى طبقات ابن سعد عن الواقدى : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : (وما محمد إلا رسول) ثم قتل فسقط اللواء .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٥

قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول) يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : ﴿ **لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله** ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ وكذلك قوله تعالى :[١] .

﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾[٢] .

كانت الآيات التشريعية وهى آيات الأحكام تنزل على الرسول ـ ﷺ ـ فى الغالب جوابا لحوادث فى المجتمع الاسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتبا وجعلوها أساسا لفهم القرآن ، وأحيانا كانت تنزل الآيات جوابا عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة .

ولنضرب أمثلة لكل من هذين القسمين :

١ ـ أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ مرثدا الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوما مسلمين مستضعفين ، فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه ، وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفا من الله ، ثم أقبلت عليه تريد زواجه ، فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ـ ﷺ ـ فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله ـ ﷺ ـ وطلب إجازة ذلك النكاح فنزل قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ **ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[٣] .

٢ ـ ورد فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم من ذلك قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم** ﴾[٤] ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[٥] .

﴿ **يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد**

---

(١) انظر الحديث فى القرطبى فى تفسير سورة النساء آية : ٩٥ ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٨

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٢١

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١٩ ، ٢٢٠

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٢٢

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾[٤] .
وفى سورة النساء : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾[٥] .
إلى غير ذلك من الآيات .
أما الأحكام التى أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة ، وقلما نرى حكما لم يذكر له المفسرون حادثا أنزل الحكم مرتبا عليه ولسعة زمن نزول القرآن واختلاف أماكنه نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها (مكية) أو (مدنية) : نسبة إلى مكة وهى المهد الأول للدعوة الاسلامية ، وإلى المدينة وهى مستقر هذه الدعوة . كما قد ينسب منه شىء إلى غير هاتين المدينتين هى أشهر نسبة وإليها وجهت العناية ببيان المكى والمدنى من آى القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك .
وقد ذكر السيوطى اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين المكى والمدنى ، قال : اعلم أن للناس فى المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة أشهرها :
١ ـ أن المكى ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار .
أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى بن سدم قال :
ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ـ ﷺ ـ المدينة فهو مكى ، وما نزل على النبى ـ ﷺ ـ فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدنى وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحا .
٢ ـ أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة . فما نزل بالأسفار لايطلق عليه مكى ولا مدنى ، وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام : (وقيل فى تفسير الشام : إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح) .
قال السيوطى : ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .
٣ ـ أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبى ـ ﷺ ـ فى ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .
وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت[٣] .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٧
(٢) سورة النساء من الآية : ١٧٦
(٣) انظر تفسير ابن كثير فى مقدمته ج ١ ص ١٢ فقد ذكر الحديث وقال المحقق : رواه ابن جرير الطبرى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود .

وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ، فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع .

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكى من المدنى ، وهذه الضوابط هى من قبيل الاحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء فى مصحف عثمان بن عفان .

أولا : إن آيات المكى على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية وشاهد ذلك أن السور تزيد قليلا على ١١/ ٣٠ من القرآن وعدد آياتها ١٤٥٦ أى : أنها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته . ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء قد سمع كله مدنى وعدد آياته ١٣٧ وجزء تبارك مكى وعدد آياته ٤٣١ ، وجزء عم مكى وعدد آياته ٥٧٠ .

ومن ذلك الأنفال والشعراء كلتاهما نصف جزء من القرآن ، لكن الأولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية المكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبى ، فقد يوجد فى بعض الآيات المكية طول وأكثره فى السور الطوال .

ثانيا : ـ خطاب الجمهور فى الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقلما يرد بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ وأما خطابه فى الآيات المكية فبالعكس ، ولم نر فى السور المكية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

أما فى السور المدنية فورد يا أيها الناس سبع مرات .

١ ـ يا أيها الناس اعبدوا ربكم .

٢ ـ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا . كلتاهما (بالبقرة) .

٣ ـ يا أيها الناس اتقوا ربكم .

٤ ـ إن يشأ يذهبكم أيها الناس .

٥ ـ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم .

٦ ـ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم (بالنساء) .

٧ ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (بالحجرات) .

ثالثا : آيات المكى ليس فيها شىء من التشريع التفصيلى ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى : وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ، ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه ، والحث على مكارم الأخلاق التى بعث رسول الله ـ ﷺ ـ ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها .

أما التشريع التفصيلى فمعظمه وارد فى الآيات المدنية .

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التى عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الأذهان . وقد بدأت عناية الأقدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعا من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها (علوم القرآن) واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها .

كما وضعت الكتب المفردة فى تلك الأسباب ، مثل كتاب (الباب المنقول ، فى أسباب النزول) للسيوطى وغير ذلك من كتب فى أسباب النزول .

وقالوا : (لايحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها .

كما قدروا ما قد يقع من وهم الراوى للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم ، (كأن تتلى الآية عند الحادثة فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا) وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهما للقرآن المجيد .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾[1] .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد **﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾**[2] والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود ، وقال الله تعالى :

﴿ وكل شىء فعلوه فى الزبر ﴾[3] .

أى مكتوب عليهم فى صحف الملائكة ثم قال تعالى : **﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾**[4] أى أو ليس مكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول فهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ـ ﷺ ـ ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن . منهم ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى عمن أدركه منهم ، ومن شاكلهم .

قال الله تعالى : **﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾**[5] ثم قال تعالى : مخبرا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لايدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لايؤمنون به ، ولهذا قال : **﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾**[6] كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى **﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾**[7] وقال تعالى : **﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ﴾**[8] وقال تعالى : **﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ﴾**[9] .

انتهى بمشيئة الله تعالى : المجلد الثالث والخمسون من كتابنا فى رحاب التفسير ويليه إن شاء الله المجلد الرابع والخمسون مبدوءا بقوله تعالى : **﴿ كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ﴾** .

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٩٦
(٢) سورة الصف آية : ٦
(٣) سورة القمر آية : ٥٢
(٤) سورة الشعراء آية : ١٩٧
(٥) سورة الاعراف آية : ١٥٧
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٩٨
(٧) سورة الحجر آية : ١٤
(٨) سورة الأنعام آية : ١١١
(٩) سورة يونس آية : ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم . فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون . أفبعذابنا يستعجلون . أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - انه أدخل التكذيب والكفر والعناد فى قلوب هؤلاء الجاحدين جزاء ما وقفوا من الحق موقف الانكار . والمجرمون فى كل زمان ومكان يقفون للحق بالمرصاد ، قال - تعالى - ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1]

وقال - جلت قدرته - ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[2]

وقال - تبارك اسمه - : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[3]

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾

أى : لا يصدقون بالحق ولا يوقنون به ، وستظل حالهم هكذا إلى أن يروا العذاب الأليم ، حيث ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ﴾[4]

قال - تعالى - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[5]

وقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ الآية ﴿ وقد عصيت قبل وكنت من الكافرين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[6]

إن هؤلاء الناس لا تقبل منهم معذرة ، قال - تعالى - : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[7]

يقول - تعالى - عن العذاب النازل بهم ﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وكفى ببغتة العذاب من عذاب ! ! وكفى بنعمة الأمن للمؤمنين من نعمة ، كيف حال هؤلاء عند نزول العذاب بهم بغتة ؟

قال - تعالى - : ﴿ فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أى : أخر هذا العذاب عنا ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين

---

(١) الأيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٢) الأيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٣) الأيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٤) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .
(٥) الأيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٦) الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ من سورة يونس .
(٧) من الآية ٥١ ، والآية ٥٢ من سورة غافر .

لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾[١]

قوله ـ تعالى ـ : **﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾**

هذا تهديد ووعيد تنخلع من هوله القلوب وتنفطر من شدته الأفئدة ، لقد كانوا يستعجلون العذاب استهزاء ويقولون : **﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾**[٢] **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾**[٣]

وقال ـ سبحانه ـ **﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ﴾**[٤] وقال ـ تبارك اسمه ـ : **﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾**[٥]

وقال ـ تبارك وتعالى ـ : **﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾**[٦]

وقال أصدق القائلين : **﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول : ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾**[٧]

وقال أصدق القائلين : **﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ﴾**[٨]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أفرأيت ان متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحينا من الزمان ـ وإن طال ـ ثم جاءهم أمر الله اى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ **﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾**[٩] وقال ـ تعالى ـ : **﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾**[١٠] وقال تعالى : **﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾**[١١] ولهذا قال ـ تعالى ـ : **﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾**

وفى الحديث الصحيح : (يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا والله يارب : ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا فيصبغ فى

---

(١) الآية ٤٤ من سورة ابراهيم

(٢) من الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الملك

(٤) الآية ١١ من سورة الاسراء

(٥) من الآية ٦ من سورة الرعد .

(٦) الآية ١١ من سورة يونس .

(٧) الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٨) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة المعارج .

(٩) الآية ٤٦ من سورة النازعات

(١٠) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(١١) الآية رقم ١١ من سورة الليل .

الجنة صبغة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا والله يارب ›[١] أى : ما كأن شيئا كان ، ولهذا كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يتمثل بهذا البيت .

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى أنت تطلب

قال ـ سبحانه ـ ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية : ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾ [٢]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ونحوه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون ﴾[٣]

وقال ـ سبحانه ـ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٤]

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٥]

وقال : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ [٦]

قوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾

هذا إخبار منه ـ تبارك وتعالى ـ عن حفظ القرآن من كل شيء خلافه ، كما أن فى ذلك إخبارا عن سلامة القرآن وعصمته من كل خطأ ، وفى ذلك تحقيق لوعد الله فى قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٧] وفى قوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وذلك لثلاثة وجوه

أولها : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لانه معجز ولأنهم أهل فساد ، والقرآن نور ، وهدى ، والشياطين ظلمات وضلال .

والوجه الثانى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما يستطيعون ﴾ ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٨]

والوجه الثالث : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وهذا الوجه قد بينه ـ عز وجل ـ فى قوله حكاية عن الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[٩] وقال ـ سبحانه ـ ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[١٠] وقال ـ تبارك

---

(١) انظر مسند أحمد (مسند انس) ج ٣ ص ٢٥٣ مع تقديم وتأخير ، واختلاف فى بعض الالفاظ .
(٢) الايات من ٢٥ ـ ٢٩ من سورة الحاقة
(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآية ١٥ من سورة الاسراء .
(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٦) الآية ١٣١ من سورة الانعام .
(٧) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٨) الآية ٨٨ من سورة الاسراء .
(٩) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الجن .
(١٠) الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من سورة الحجر .

اسمه - : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾[١]

فسبحان من حفظ كتابه ووحيه فقال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾[٢]

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ﴾

هذا نهى عن الشرك بكل معانيه ، والنهى عن الشيء
أمر بضده ، فهو أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك ، قال تعالى : - ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٣]

وقال - سبحانه - : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[٤] وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٥] وقال - صلوات ربى وسلامه عليه - : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله)[٦]

أما عاقبة المشركين فكما قال - تعالى - بعد فاء السببية الواقعة بعد النهى ﴿ فتكون من المعذبين ﴾ والعذاب هنا خالد دائم ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[٧]

وقال - سبحانه - ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾[٨]

وقال - عز من قائل - : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٩]

---

(١) الآية ٥ من سورة الملك .
(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الجن .
(٣) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية ١ ، والآية ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٦) انظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (كتاب الحج) باب : جامع الحج ج ١ ص ٣٦٩ فقد رواه عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ان رسول الله ﷺ قال : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
(٧) الآية ١١٦ من سورة النساء .
(٨) الآية ٦ من سورة البينة .
(٩) من الآية ٣١ من سورة الحج .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه ـ عز وجل ـ وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لاتنافى العامة ، بل هى جزء من أجزائها ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾[1] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾[2] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾[3]

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾[4]

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾[5]

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)[6] وفى صحيح مسلم : (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يؤمن بى إلا دخل النار)[7]

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها : ـ قال الامام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : (ياصباحاه) فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : ـ (يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى لؤى : أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟) قالوا : نعم . قال : (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾[8]

قال الامام أحمد بسنده عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : (يافاطمة ابنة محمد ، ياصفية ابنة عبد المطلب ، يابنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم)[9]

قال الامام احمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وإنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ـ ﷺ ـ قريشا فعم وخص ، فقال : (يامعشر قريش : أنقذوا

---

(١) الآية ٦ من سورة يس .
(٢) الآية ٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٥١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٩٧ من سورة مريم .
(٥) الآية ١٩ من سورة الانعام .
(٦) الآية ١٧ من سورة هود .
(٧) الحديث رواه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة النبى ﷺ ج ٢ ص ١٨٦ بشرح النووى : عن أبى هريرة ، ولفظه : « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى احد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به إلا كان من أصحاب النار .
(٨) الآية ١ من سورة المسد .
وانظر الحديث فى مسند الامام احمد (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما) ج ١ ص ٢٨١
(٩) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عائشة ـ رضى الله عنها ـ) ج ٦ ص ١٨٧

أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلى ببلالها ﴾(١)

قال الامام أحمد بسنده عن زهير بن عمرو قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد رسول الله : رضمة من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : (يابنى عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : ياصباحاه)(٢)

قال الامام أحمد بسنده عن على - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا ، قال : قال لهم : (من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى ؟) فقال رجل - لم يسمه شريك - يارسول الله أنت كنت بحرى من يقوم بهذا ، قال : ثم قال الآخر - ثلاثا - قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال على : أنا)(٣)

قال الامام أحمد بسنده عن على - رضى الله عنه - قال : جمع رسول الله : أودعا رسول الله : بنى عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقى الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب ، وقال : (يابنى عبد المطلب : انى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعنى على ان يكون أخى وصاحبى ؟) قال : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقمت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال : (اجلس) ثم قال - ثلاث مرات - كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : (اجلس) حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى)(٤)

(طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخرى) :

روى الحافظ البيهقى بسنده عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) قال رسول الله ﷺ : (عرفت أنى إن بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره ، فصمت ، فجاءنى جبريل - عليه السلام - فقال : يامحمد إنك إن لم تفعل ما آمرت به عذبك ربك) .

قال على - رضى الله عنه - فدعانى فقال : (ياعلى إن الله - تعالى - قد أمرنى انذر عشيرتك الأقربين ، فعرفت انى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما اكره ، فصمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل

---

(١) اورد الامام احمد هذا الحديث فى مسنده (مسند أبى هريرة) ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) انظر مسند احمد (قبيصة بن مخارق - رضى الله عنه) ج ٥ ص ٦٠ من رواية قبيصة بن مخارق ، وزهير بن عمرو : قالا : لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين .. الحديث

(٣) انظر كنز العمال ج ١٣ ص ١٢٨ ، ١٢٩ رقم ٣٦٤٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن على من رواية الامام احمد . وانظر مسند الامام احمد (مسند على بن ابى طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١١١

(٤) انظر مسند الامام احمد (مسند على بن ابى طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١٥٩

فقال : يامحمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك)[1] فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب) ففعلت ، فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه ابو طالب وحمزة والعباس وابو لهب الكافر الخبيث ، فقدمت إليهم تلك الجفنة فاخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : (كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله - ﷺ - (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ ان يكلمهم بدره ابو لهب إلى الكلام فقال : لشدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ (ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم . . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ

أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله : فلما كان الغد قال رسول الله : : - (ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم) ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله : كما صنع بالأمس فاكلوا حتى نهلوا ، ثم سقيتهم من ذلك العقب حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله : : (يابنى عبد المطلب : إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة)

وقد رواه ابن جرير بسنده عن على بن أبى طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله : (إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة) : ﴿ وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟) قال : فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت وإنى لأحدثهم سنا ، وأدمعهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا : أنا يانبى الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتى ثم قال : (إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا) ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم :

عن على رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال لى رسول الله ﷺ : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا) قال : ففعلت ، ثم قال لى : (ادع بنى هاشم)

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى (كتاب السير) باب مبتدأ الفرض على النبى ﷺ . . . الخ ج ٩ ص ٧ فقد ذكر الحديث الى قوله : « عذبك ربك » ثم قال البيهقى : ثم ذكر قصة فى جمعهم وانذاره إياهم .
وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ فى تفسير سورة الشعراء ، فقد ذكر الحديث وقصته .

قال فدعوتهم إنهم يومئذ اربعون غير رجل أو أربعون ورجل ، قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال : فلما اتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : (كلوا) فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يزدردوا منها إلا اليسير ، قال : ثم أتيتهم بالأناء فشربوا حتى رووا ، قال : وفضل فضل . فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فدعاهم فلما أكلوا وشربوا قال : فبدروه ، فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ فقال : (أيكم يقضى عنى دينى ويكون خليفتى فى أهلى ؟) قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت انا لسن العباس ، ثم قال مرة اخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يارسول الله ، قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ضخم البطن حمش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه فى أهله : يعنى ان قتل فى سبيل الله . كأنه خشى إذا قام بأعباء الانذار أن يقتل ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[1] فعند ذلك أمن ، وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس) ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على رضى الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ :

دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش

عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله : يقول : (أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون)[2]

وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾

قوله ـ تعالى ـ ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أى : فى جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلمتك .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٢) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة رضى الله عنها

وقوله - تعالى - ﴿ الذى يراك حين تقوم ﴾ أى : هو معتن بك كما قال - تعالى - (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[١] قال ابن عباس : (الذى يراك حين تقوم) وقال الحسن : (الذى يراك حين تقوم) يعنى الى الصلاة وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده إذا صليت وحدك

وقال الضحاك : (الذى يراك حين تقوم) أى : من فراشك أو مجلسك وقال قتادة : (الذى يراك) قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله - تعالى - (وتقلبك فى الساجدين) قال قتادة : (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) قال : فى الصلاة يراك وحدك ، ويراك فى الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراسانى والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : (سووا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى)[٢]

وروى البزار وابن ابى حاتم من طريقين عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية : نعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى حتى أخرجه نبيا وقوله - تعالى - : ﴿ إنه هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ﴾[٣]

قوله - تعالى - ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)

يقول - تعالى - مخاطبا لمن زعم من المشركين ان ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شىء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئى من الجان ، فنزه الله - سبحانه وتعالى - جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وانه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم .

وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ، ولهذا قال الله - تعالى - ﴿ هل أنبئكم ﴾ أى : أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك ﴿أثيم ﴾ وهو الفاجر فى أفعاله ، فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة ﴿ يلقون السمع ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من

(١) انظر صحيح البخاري ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣) من الآية ٦١ من سورة يونس

الانس فيحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث كما رواه البخارى عن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان فقال : ﴿ إنهم ليسوا بشىء ﴾ قالوا : يارسول الله فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا . فقال النبى ﷺ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)[١]

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : إن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ـ وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء)[٢] تفرد به البخارى .

وروى مسلم من حديث الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الانصار قريبا من هذا .

وقال البخارى بسنده عن عائشة عن النبى ﷺ انه قال : فى الأرض ، إن الملائكة تحدث فى العنان والعنان (الغمام) بالأمر فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة ﴾[٣] .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾[٣] قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الكفار يتبعهم ضلال الانس والجن .

وكذا قال مجاهد ـ رحمه الله ـ

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فننتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبى ﷺ (خذوا الشيطان ـ أو امسكوا الشيطان ـ لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا ﴾[٤]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : فى

---

(١) انظر صيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ٩ ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ

(٢) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير ـ تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ) ج ٣ ص ٨ و ص ٤١ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٤ .

كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال الحسن البصرى : قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها ، مرة فى شتيمة فلان ، ومرة فى مديحة فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوما بباطل ، ويذم قوما بباطل . قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله : احدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذى قاله ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ هو الواقع فى نفس الأمر ، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد فى (الطبقات) والزبير بن بكار فى كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى فضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر ، فقال :

الاهل أتى الحسناء ان خليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

إذا شـ ... ورقاصة تحنو على كل مبسم

ت غنتنى دهاقين قرية ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

ـ رضى الله عنه ـ قال : أى ـ والله ـ إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) أما بعد : فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوؤنى ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكتّه بهذا الشعر ، فقال : والله ياأمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شىء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن ـ والله ـ لا تعمل لى عملا ابدا وقد قلت ما قلت . فلم يذكر انه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر ـ رضى الله عنه ـ ولامه على ذلك وعزله به ، ولهذا جاء فى الحديث : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من ان يمتلىء شعرا) والمراد من هذا أن الرسول ـ ﷺ ـ الذى أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لان حاله مناف لحالهم من وجوه

ظاهرة ، كما قال - تعالى - ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾[١] وقال - تعالى - : ﴿ إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾[٢]

وهكذا قال ههنا : ﴿ إنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ إلى أن قال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ إلى أن قال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾

وقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن سالم البراد بن عبد الله - مولى تميم الدارى . قال : لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله - ﷺ - وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبى ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ رواه ابن ابى حاتم وابن جرير .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن أبى كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن - مولى بنى نوفل - أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ يبكيان ، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ حتى بلغ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ وقال أيضا : عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله : قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن اسلم وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم ، ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الانصار ؟ وفى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله اعلم .

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الانصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية ، بذم الاسلام

وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الاسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه .

كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

---

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .
(٢) الآيات : ٤٠ - ٤٣ من سورة الحاقة .

يارسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذا أجارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه .

وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ان أبا سفيان ضمر بن حرب لما أسلم قال : يارسول الله : ثلاث اعطينهن قال : (نعم) قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : (نعم) قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : (نعم) وذكر الثالثة ، وهكذا قال - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ﴾

قيل معناه : ذكروا الله كثيرا فى كلامهم ، وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق .

وقوله - تعالى - : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد . وهذا لما ثبت فى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال لحسان : (اهجهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك)

وقال الامام أحمد بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ ان الله - عز وجل - قد أنزل فى الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل ﴾[1]

وقوله - تعالى - : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

كقوله - تعالى - : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾[2]

وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ﴿ إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ﴾[3]
قال قتادة بن دعامة فى قوله - تعالى - ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ يعنى من الشعراء وغيرهم . وقال ابو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة قال : حضرت الحسن ومر عليه بجنازة نصرانى فقال : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان ابن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا

---

(١) انظر صحيح مسلم .. كتاب الفضائل .. باب من فضائل ابى سفيان بن حرب فقد ذكر الحديث من رواية ابن عباس ج ٤ ص ١٩٤٥ رقم ١٦٨ / ٢٥٠١ وذكر الثالثة التى لم تذكر فى روايتنا وقال : عندى احسن العرب وأجمله : أم حبيبة بنت ابى سفيان أزوجكها ..

(٢) الآية ٥٢ من سورة غافر .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ من رواية جابر ابن عبد الله ، بلفظ : « اتقو الظلم .. الحديث » ورقم ٥٧ / ٢٥٧٩ من رواية ابن عمر ، بلفظ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »

وانظر مسند الامام احمد (مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما -) ج ٢ ص ١٠٦ فقد اورده بلفظ : « ياأيها الناس اياكم والظلم .. الحديث » وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٧ .

أى منقلب ينقلبون ﴾

وقال ابن وهب : أخبرنى ابن سريج الاسكندرانى عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتون عليها أو يصطلون إذا بركبان قد اقبلوا ، فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم ـ قال ـ وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ـ كما قال ابن أبى حاتم : ـ ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطى حدثنى الهيثم بن محفوظ ابو سعد النهدى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كتب ابى فى وصية سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾

سورة النمل

مقدمة

● قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها خمس وتسعون فى عد الحجاز ، وأربع فى عد الشام ، والبصرة ، وثلاث فى عد الكوفة ، كلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون . وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعون . والآيات المختلف فيها ﴿ **أولوا بأس شديد** ﴾ ، ﴿ **من قوارير** ﴾ مجموع فواصل آياتها (من ؟) وسميت سورة النمل ، لاشتمالها على مناظرة النمل سليمان فى قوله : ﴿ **قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا** ﴾

* مقصود السورة ومعظم ما تضمنته : بيان شرف القرآن ، وما منه نصيب أهل الايمان ، والشكاية من أهل الشرك والعصيان ، وإشارة إلى ذكر الوادى المقدس ، وموسى بن عمران ، وذكر خبر داود وسليمان ، وفضل الله ـ تعالى ـ عليهما بتعليمهما منطق الطير وسائر الحيوان ، وقصة النمل ، وذكر الهدهد ، خبر بلقيس ، ورسالة الهدهد إليها من سليمان ، ومشاورتها أركان الدولة ، وبيان أثر الملوك إذا نزلوا فى مكان ، وإهداء بلقيس إلى سليمان ، وتهديده لها ، ودعوة آصف لاحضار تخت بلقيس فى أسرع زمان ، وتغيير حال العرش لتجربتها ، وإسلامها على يد سليمان ، وحديث صالح ومكر قومه فى حقه ، وطرف من حديث قوم لوط أولى الطغيان ، والبرهان فى الحدائق ، والأشجار ، والبحار والأنهار ، وإجابة الحق دعاء أهل التضرع ، والابتهال إلى الرحمن ، وهداية الله الخلق فى ظلمات أكبر ، والبحر ، واطلاع الحق ـ تعالى ـ على أسرار الغيب ، وتسلية الرسول ﷺ فى إعراض المنكرين عن قبول القرآن ، وقبول الايمان ، وخروج الدابة ، وظهور علامة القيامة ، والإخبار عن حال الجبال فى ذلك اليوم ، وبيان جزاء المجرمين ، واعراض الرسول عن المشركين ، وإقباله على القرآن الكريم ،

وأمر الله له بالحمد على إظهار الحجة ، أعنى القرآن فى قوله : ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته** ﴾

المتشابهات

قوله : ﴿ **فلما جاءها نودى** ﴾ ، وفى القصص وطه ﴿ **فلما أتاها** ﴾ .. قال فى هذه السورة : ﴿ **سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس** ﴾ فكرر ﴿ **آتيكم** ﴾ فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿ **فلما أتاها** ﴾ فعدل إلى قوله : ﴿ **فلما جاءها** ﴾ بعد أن كانا بمعنى واحد . وأما فى السورتين فلم يكن إلا ﴿ **سآتيكم** ﴾ ﴿ **فلما آتاها** ﴾ .

قوله : ﴿ **وألق عصاك** ﴾ وفى القصص : ﴿ **وأن ألق عصاك** ﴾ ، لأن فى هذه السورة ﴿ **نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك** ﴾ فحيل بينهما بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة (أن) وفى القصص : ﴿ **أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك** ﴾ فلما يكن بينهما جملة أخرى عطف بها على الأول ، فحسن إدخال (أن)

قوله : ﴿ **لا تخف** ﴾ ، وفى القصص : ﴿ **أقبل ولا تخف** ﴾ خصت هذه السورة بقوله : ﴿ **لا تخف** ﴾ لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به ، وهو قوله : ﴿ **إنى لا يخاف لدى المرسلون** ﴾ ، وفى القصص اقتصر على قوله : ﴿ **لا تخف** ﴾ ولم يبن عليه كلام ، فزيد قبله ﴿ **أقبل** ﴾ ليكون فى مقابلة ﴿ **مدبرا** ﴾ أى : أقبل آمنا غير مدبر ، ولا تخف فخصت هذه السورة به .

قوله : ﴿ **وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء** ﴾ وفى القصص : ﴿ **اسلك يدك فى جيبك** ﴾ خصت هذه السورة بـ ﴿ **ادخل** ﴾ لانه أبلغ من قوله : ﴿ **اسلك يدك** ﴾ لأن ﴿ **اسلك** ﴾ يأتى لازما ، ومتعديا ، و ﴿ **ادخل** ﴾ متعد لا غير ، وكان فى هذه السورة (فى تسع آيات) أى : مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون وخصت القصص بقوله : ﴿ **اسلك** ﴾ موافقة لقوله : ﴿ **اضمم** ﴾ ثم قال : ﴿ **فذانك برهانان من ربك** ﴾ [وكان] دون الأول فخص بالأدون من اللفظين .

قوله : ﴿ **إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ ، وفى القصص : ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ لأن الملأ أشراف القوم ، وكانوا فى هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله : ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها** ﴾ .. الآية ، فلم يسمهم ملأ بل سماهم قوما .

وفى القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات ، فسماهم ملأ ، وعقبه : ﴿ **وقال فرعون يأأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ . وما يتعلق بقصة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق ..

قوله : ﴿ **وأنجينا الذين آمنوا** ﴾ وفى حم ﴿ **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ و ﴿ **نجينا** ﴾ و ﴿ **انجينا** ﴾ بمعنى واحد . وخصت هذه السورة بـ ﴿ **أنجينا** ﴾ موافقة لما بعده وهو : ﴿ **فأنجيناه وأهله** ﴾ وبعده : ﴿ **وأمطرنا** ﴾ ، ﴿ **وأنزلنا** ﴾ كله على لفظ أفعل . وخص حم بـ ﴿ **نجينا** ﴾ موافقة لما قبله : ﴿ **وزينا** ﴾ وبعده ﴿ **وقيضنا لهم** ﴾ وكله على لفظ فعل

قوله : ﴿ وأنزل لكم ﴾ سبق

قوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ فى خمس آيات ، وختم الأولى بقوله : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ثم قال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ ثم قال : ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾

ثم ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ أى : عدلوا ، وأول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا لما عدلوا ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فأشركوا من غير حجة وبرهان . قل لهم يامحمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

قوله : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ﴾

وفى الزمر ﴿ فصعق ﴾ : خصت هذه السورة بقوله : ﴿ فزع ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ ، وخصت الزمر بقوله : ﴿ فصعق ﴾ ، موافقة لقوله : ﴿ إنهم ميتون ﴾ لان معناه : مات .

مناسبتها ما قبلها من وجوه !

(١) إنها كالتتمة لها ، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمان .

(٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى ـ عليهما السلام ـ .

(٣) إن كليتهما قد اشتملتا على نعت القرآن وأنه منزل من عند الله .

(٤) تسلية رسوله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم ، وإصرارهم على الكفر به والاعراض عنه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

تفسير المفردات

﴿ طس ﴾ : بعض حروف الهجاء ، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم الذى أنزله الله بتلك الحروف العربية .

﴿ يعمهون ﴾ : يترددون متحيرين
﴿ من لدن ﴾ : أى : من عند .
﴿ حكيم ﴾ : منزه عن العبث

التفسير

قوله ـ تعالى ـ ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ القرآن المجيد معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا ، والقرآن دستور دولة ، وقانون حكم ، وإصلاح مجتمع . . . اخرج به محمد رسول ـ الهدى ـ الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى البر والتقوى ، اخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن البغى إلى الرشد ، ومن الجهل إلى المعرفة . . .

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(١)

قال العلامة (فينى) : إن القرآن ليس بكتاب دينى فقط ، بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام السياسية التى إن لم توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

لم يستطع الذين صاولوا الدعوة الاسلامية أول عهد الاسلام ان يجحدوا إعجازه أو ينكروا بلاغته مع استمرار العناد فى نفوسهم ، واستفحال المكابرة فى صدورهم وذلك لان القرآن المجيد فى طريقة عرضه للهداية والاعجاز على الخلق قد حكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما فى الكون من سماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن ، وكان فى طريقة عرضه معجزا ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين ان هذا الذى جاء بالقرآن رجل أمى ، نشأ فى أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم تنشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمى كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك العلوم والمعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكى عليم ؟ .

قال الله تعالى ـ مقررا لهذا الاعجاز : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(٢)

وقد توفر المسلمون على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا

---

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة
(٢) الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت

بمواهبهم الفطرية ، وملكاتهم السليمة من ناحية ، وبما يشرحه الرسول الكريم ويبينه لهم بأقواله وأعماله ،

كما قال الله ـ تعالى ـ ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾(١)

كان همهم الأول هو القرآن المجيد يحفظونه ويفهمونه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه . وبهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الانسانى هو أقوى شيء فى هذا الوجود ، فمتى صفا وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجاب .

وقد أتت الأمة العربية بالعجب فى الهداية والارشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر العزيز ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والعدل فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب ، ثم دانت لهم الدنيا ففتحوا بعض دول أوروبا ، وأقاموا فيها دولة عربية ، كانت النواة الناجحة فى نهضة أوروبا المعاصرة . .

تلك هى دولة الأندلس .

قال السير ريتشارد وود فى تقرير رسمى طبع ونشر عام ١٨٧٨ .

(إن القرآن يتضمن أحكام الدين وفى نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية) .

وإن كثيرا من مؤلفى الافرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ماداموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون : إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل ارسطو وإقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم .

ةقال الفيلسوف الألمانى (جوته) : إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .

إن القرآن فى الاسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو فى الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير .

وذكر الشيخ محمد الخضرى : (الكتاب هو القرآن ، وهو أجل من ان يعرف)

وقال محمد فريد وجدى : القرآن علم للكتاب الذى يقدسه المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ويتبركون به ، ويتبعون سننه وفرائضه ، ويعتقدون اعتقادا راسخا انه أنزل على النبى العربى محمد بن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا .

وقال الراغب الأصبهانى فى المفردات : القرآن فى الأصل مصدر ـ على وزن فعلان ـ بالضم ـ مثل : رجحان وكفران ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فأتبع قرآنه ﴾(٢)

قال إبن عباس : إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك فاعمل به .

وأورد السيوطى خمسة أقوال فى لفظ القرآن هى :

---

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل

(٢) الأيتان ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة .

أولا : ما ذهب إليه الشافعى أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا ، بل وضع علما على الكلام المنزل على محمد ﷺ .

ثانيا : ما نقل عن الأشعرى وأقوام انه مشتق من : قرنت الشىء بالشىء : إذا ضممته إليه . ثم جعل علما على اللفظ المنزل ، وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثا : ذهب الفراء إلى انه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك ، وهو على هذين غير مهموز أيضا ، كالذى قبلهما ونونه أصلية .

رابعا : قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان ـ مهموز ـ مشتق من (القرء) بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء فى الحوض : إذا جمعته .

وسمى الكلام المنزل على النبى المرسل به قرآنا ؛ لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامسا : ما ذهب إليه الحيانى وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، سمى به المقروء ، من تسمية المفعول بالمصدر .

وينقل كتاب الاتقان عن الجاحظ أن الله سمى كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم . . سمى جملته قرآنا ، كما سمى العرب جملة كلامهم ديوانا ، وسمى بعضه سورة ، كقصيدة ، وسمى بعض السورة آية ، كالبيت ، وسمى آخر السورة فاصلة ، كقافية .

ويذكر الاتقان أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما : سماه كتابا ، ومبينا ، فى قوله ﴿ **حم ، والكتاب المبين** ﴾[١]

وقرآنا ، وكريما ، فى قوله : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾[٢]

وكلاما : ﴿ **حتى يسمع كلام الله** ﴾[٣]

ونورا : ﴿ **وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾[٤]

وهدى ، ورحمة : ﴿ **هدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[٥]

وفرقانا : ﴿ **نزل الفرقان على عبده** ﴾[٦]

وشفاء : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء** ﴾[٧]

وموعظة : ﴿ **قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور** ﴾[٨]

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف والدخان .
(٢) الآية ٧٧ من سورة الواقعة .
(٣) الآية ٦ من سورة التوبة
(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء .
(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس
(٦) الآية ١ من سورة الفرقان
(٧) الآية ٨٢ من سورة الاسراء
(٨) الآية ٥٧ من سورة يونس .

وذكرا ، ومباركا : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾(١)
وعليا : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى ﴾(٢)
وحكمة : ﴿ حكمة بالغة ﴾(٣)
وحكيما : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾(٤)
ومهيمنا : ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾(٥) .
وحبلا : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾(٦)
وصراطا مستقيما : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما ﴾(٧)
وقيما : ﴿ قيما لينذر ﴾(٨)
وقولا ، وفصلا : ﴿ إنه لقول فصل ﴾(٩)
ونبأ عظيما : ﴿ عما يتساءلون . عن النبأ العظيم ﴾(١٠) .
وأحسن الحديث ومثانى ومتشابها : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ﴾(١١)
وتنزيلا : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾(١٢)
وروحا : ﴿ أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾(١٣)
ووحيا : ﴿ إنما انذركم بالوحى ﴾(١٤) .
وعربيا : ﴿ قرآنا عربيا ﴾(١٥) .
وبصائر : ﴿ هذا بصائر ﴾(١٦) .
وبيانا : ﴿ هذا بيان للناس)(١٧) .
وعلما : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾(١٨) .
وحقا : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾(١٩) .
وهاديا : ﴿ إن هذا القرآن يهدى ﴾(٢٠)
وعجبا : ﴿ قرآنا عجبا ﴾(٢١) .
وتذكرة : ﴿ وإنه لتذكرة ﴾(٢٢) .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤ من سورة الزخرف
(٣) الآية ٥ من سورة القمر .
(٤) الآية ١ من سورة يونس . .
(٥) الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٢ من سورة الكهف .
(٩) الآية ١٣ من سورة الطارق .
(١٠) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النبأ .
(١١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .
(١٢) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء .
(١٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(١٤) الاية ٤٥ من سورة الأنبياء
(١٥) الآيات ٢ من سورة يوسف ، ١١٣ من سورة طه ، ٢٨ من سورة الزمر ، ٣ من سورة فصلت ، ٧ من سورة الشورى ، ٣ من سورة الزخرف .
(١٦) الآية ٢٠ من سورة الجاثية .
(١٧) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(١٨) الآيتان ١٤٥ من سورة البقرة ، ٦١ من سورة آل عمران .
(١٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران .
(٢٠) الآية ٩ من سورة الاسراء .
(٢١) الآية ١ من سورة الجن .
(٢٢) الآية ٤٨ من سورة الحاقة .

والعروة الوثقى : ﴿ استمسك بالعروة الوثقى ﴾[(١)] .
وصدقا : ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾[(٢)] .
وعدلا : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾[(٣)] .
وأمرا : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾[(٤)] .
ومناديا : سمعنا مناديا ينادى للايمان ﴾[(٥)] .
وبشرى : ﴿ هدى وبشرى ﴾[(٦)] .
ومجيدا : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾[(٧)] .
وزبورا : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾[(٨)] .
وبشيرا ونذيرا : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ﴾[(٩)] .
وعزيزا : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾[(١٠)] .
وبلاغا : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾[(١١)] .
وقصصا : ﴿ أحسن القصص ﴾[(١٢)] .
وسماه أربعة أسماء فى آيتين : ﴿ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة)[(١٣)] .
وقد سمى القرآن ﴿ النور ﴾ لانه يدرك به غوامض الحلال والحرام ، ﴿ وأما الهدى ﴾ فلأن فيه الدلالة على الحق . وأما ﴿ الفرقان ﴾ فلأنه فرق بين الحق والباطل .
﴿ وأما الشفاء ﴾ فلأنه يشفى من الأمراض القلبية : كالكفر ، والجهل ، والغل ، والبدنية أيضا .
﴿ وأما الذكر ﴾ فلما فيه من المواعظ ، وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضا : المشرف ، قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أى شرف لانه بلغتهم .
﴿ وأما الحكمة ﴾ فلأنه نزل على القانون المتبر من وضع كل شىء فى محله ، أو لأنه مشتمل على الحكمة .

---

(١) الأيتان ٢٥٦ من سورة البقرة ، ٢٢ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٣٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥ من سورة الطلاق .
(٥) الآية ١٩٣ من سورة آل عمران .
(٦) الآيات ٩٧ من سورة البقرة ، ١٠٢ من سورة النحل ، ٢ من سورة النمل .
(٧) الآية ٢١ من سورة البروج .
(٨) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٩) الآية ٣ ، وجزء من الآية ٤ من سورة فصلت .
(١٠) الآية ٤١ من سورة فصلت .
(١١) الآية ٥٢ من سورة ابراهيم .
(١٢) الآية ٣ من سورة يوسف .
(١٣) الأيتان ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

وأما ﴿ الحكيم ﴾ فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعانى ، وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين .

وأما ﴿ المهيمن ﴾ فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة .

﴿ وأما الحبل ﴾ فلأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى ، والحبل : السبب .

﴿ وأما الصراط المستقيم ﴾ فلأنه طريق إلى الجنة قويم لاعوج فيه .

وأما ﴿ المثانى ﴾ فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه .

وأما ﴿ المتشابه ﴾ فلأنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن والصدق .

وأما ﴿ الروح ﴾ فلانه تحيا به القلوب والأنفس .

وأما ﴿ المجيد ﴾ فلشرفه .

وأما ﴿ العزيز ﴾ فلأنه يعز على من يروم معارضته وأما ﴿ البلاغ ﴾ فلأنه أبلغ منه الناس ما أمروا به ونهوا عنه ، ولأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[1] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾[2] ولهذا قال ـ تعالى ـ ههنا ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾أى : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم ، فكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾[3] .

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل الحشر .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أى : ﴿ وإنك ﴾ يامحمد ﴿ لتلقى ﴾ أى : لتأخذ ﴿ القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾[4]

مع موسى كليم الله

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .
(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .
(٣) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

تفسير المفردات

﴿ **آنست** ﴾ أى : أبصرت إبصارا حصل لى به أنس . ﴿ **بخبر** ﴾ أى : عن الطريق وحاله . ﴿ **بشهاب** ﴾ أى : بشعلة نار . ﴿ **قبس** ﴾ أى : قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها . ﴿ **تصطلون** ﴾ أى : قد تستدفئون بها . ﴿ **جان** ﴾ أى : حية صغيرة سريعة الحركة . ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ أى : التفت هاربا . ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أى : لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما وراءه ، من قولهم : عقب المقاتل : اذا كر بعد الفر . ﴿ **من غير سوء** ﴾ أى : من غير برص ولا نحوه من الآفات . **آيات** ﴾ أى : معجزات دالة على صدقك . ﴿ **مبصرة** ﴾ أى : بينة واضحة ﴿ **فجحدوا بها** ﴾ أى : كذبوا . ﴿ **واستيقنتها أنفسهم** ﴾ أى : علمت علما يقينيا انها من عند الله ﴿ **وعلوا** ﴾ أى : ترفعا واستكبارا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن وصف ـ عز اسمه ـ القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من اعرض عنه كان من الخاسرين . . أردفه بذكر قصص النبيين تسلية لرسوله ﷺ وأنه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات ، وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس**

لعلكم تصطلون ﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فضل الطريق فى ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إنى أبصرت نارا سآتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعله ، من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا ، فاشتبه عليهما الطريق ، والبرد شديد ، وفى مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بعد ، لما يرجى فيها من زوال الحيرة ، وأمن الطريق ، ومن الانتفاع بها للاصطلاء ومن ثم قال لها هذه المقالة .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين** ﴾ .

أى : فلما وصل إلى النار نودى بأن بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هو البقعة المباركة المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ من سورة القصص : ﴿ **نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** ﴾(١) ﴿ **ومن حولها** ﴾ من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا .

وقوله : ﴿ **سبحان الله** ﴾ : تنزيه لنفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ، وإيذان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ **إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجا به النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شىء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيده (أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين)** .

وفى التوراة : (جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران) فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمدا ﷺ (وفاران : مكة) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقيق ما يراد بالتصريح قال ـ تعالى ـ : تمهيدا لما اراد اظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة : ﴿ **ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ أى : ياموسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عز كل شىء وقهره ، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ، ليعلم ذلك علم شهود فقال : ﴿ **وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب** ﴾ أى : وألق عصاك ، فلما ألقاها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رآها كذلك ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ ولى هاربا خوفا منها ولم يلتفت وراءه من شدة فرقه .

وحينئذ تاقت النفس إلى معرفة ما قيل إذ ذاك فقال : ﴿ **ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى**

---

(١) اية ٣٠ من سورة القصص .

المرسلون ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى لا يخاف عندى رسلى وانبيائى الذين أختصهم واصطفيهم بالنبوة .

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ﴾ أى : ولكن من ظلم من سائر العباد ، فإنه يخاف ، إلا إذا تاب ، فبدل بتوبته حسنا بعد سوء ، فإنى أغفر له وأمحو ذنوبه وجميع آثارها ، كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفى هذا بشارة عظيمة لسائر البشر : فإن من عمل ذنبا ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[٢] ثم أراه ـ جلت قدرته ـ آية أخرى ذكرها بقوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى : وأدخل يدك فى جيبك « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » قميصك تخرج بيضاء بياضا عظيما ، ولها شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما فى يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

فهاتان آيتان من خوارق العادات ، وفى ذلك كله تأييد لك .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فى تسع آيات ﴾ وهى : اليد ، والعصا ، والطمس على الأموال ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[١]

ورابعة الآيات الأخذ بالسنين العجاف والقحط ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[٢] والآيات الباقية جاءت فى قوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾[٣] .

ولقد ذكر الله ـ عز وجل ـ فى كتابه العزيز أن القوم راوغوا وظنوا أنهم يخادعون الله ، وجهلوا أنهم إنما يخادعون أنفسهم وما يشعرون قال ـ تعالى ـ : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٤] وهذا جزاء كل أمة تكذب بآيات ربها ، وتعصى رسله ، وتضرب بأحكامه عرض الحائط ، وتغفل عن آياته ، إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : « ياأمعاء اسمعى ، يابركة

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية أبى موسى الاشعرى ، وانظر الحديث ٢٩٥ عن أبى موسى . وانظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ رقمى ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

(١) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

(٢) آية : ١٣٠ من سورة الأعراف .

(٣) آية : ١٣٣ من سورة الأعراف .

(٤) آيات : ١٣٤ ـ ١٣٦ من سورة الأعراف .

ارتفعى ، ياعين لا تشبعى » ان ظلم الشعوب جرم كبير ، لا يرضاه الله ، بل إنه ـ تعالى ـ لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليمكن للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

لقد أيد الله موسى بتسع آيات بينات ، وأرسله إلى قوم فاسقين خارجين عن حدود الله قال كبيرهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٢] وقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[٣] فماذا كان موقف القوم من تلك الآيات المبصرة الواضحة الدلالة البينة البرهان ؟

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ فتأمل معى كيف حكموا على الحقائق بأنها سحر ، وعلى المعجزات بأنها تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ؟ وشتان شتان بين المعجزة والسحر ، فالمعجزة امر خارق للعادة يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقا لهم فى دعواهم ، مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثل هذه الآيات ، فأى سحر فى انقلاب العصاحية ؟ ! وأى تخييلات فى انشقاق القمر بعد ما رأوه بأعينهم ؟ ! إن أهل الباطل يحاولون قلب الحقائق والحكم على الأشياء بغير واقع الأمر ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[٤] مع إنك لو اطلعت على ما فى قلوبهم علمت أنهم فى قرارة انفسهم يوقنون بصدق الآيات ، ولكنهم يكذبونها ظلما وعلوا واستكبارا وإباءً حتى لا يظهروا امام قومهم بأنهم قد خضعوا للحق ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فلابد من وقوع العاقبة ، ولابد من الجزاء العادل ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وقد بين الله تلك العاقبة الوخيمة فى قوله : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[٥]

وفى قوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[٦]

مع داود وسلميان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة القمر .
(٥) الآية ١٣٧ من سورة الاعراف
(٦) الآية ٤٠ ـ ٤٢ من سورة القصص .

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ
هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ
﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا
مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ
لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ
مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

تفسير المفردات

﴿ **ورث سليمان داود** ﴾ أى : قام مقامه فى النبوة والملك . ﴿ **منطق الطير** ﴾ أى : منهم ما يريده كل طائر إذا صوت : ﴿ **حشر** ﴾ أى : جمع ﴿ **يوزعون** ﴾ أى : يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد . ﴿ **وادى النمل** ﴾ : واد بأرض الشام . ﴿ **لا يحطمنكم** ﴾ أى : لا يهشمنكم . ﴿ **أوزعنى** ﴾ أى : يسر لى . ﴿ **التفقد** ﴾ : طلب ما فقد . ﴿ **بسلطان مبين** ﴾ أى : بحجة واضحة ، والاحاطة بالشىء علمه من جميع جهاته . وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان أبو قبيلة باليمن ، و ﴿ **نبأ** ﴾ أى : خبر عظيم والعرش : سرير الملك . ﴿ **عن السبيل** ﴾ عن سبيل الحق والصواب و ﴿ **الخبء** ﴾ : هو المخبوء من كل شىء كالمطر وغيره من شئون الغيب ﴿ **تول عنهم** ﴾ أى : تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك . ﴿ **فانظر** ﴾ أى : تأمل وفكر ﴿ **يرجعون** ﴾ أى : يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه . و ﴿ **الملأ** ﴾ : أشراف القوم وخاصة الملك . ﴿ **ألا تعلوا على** ﴾ أى : ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى . ﴿ **مسلمين** ﴾ : أى : منقادين خاضعين . ﴿ **أفتونى** ﴾ أى : أشيروا على بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث . ﴿ **قاطعة أمرا** ﴾ أى : باتة فيه منفذته ﴿ **تشهدون** ﴾ أى : تحضرون ،

والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب . العفريت من البشر : الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين ، المارد . ﴿ **مقامك** ﴾ أى : مجلسك الذى تجلس فيه للحكم . ﴿ **قوى** ﴾ أى : قادر على حمله لا أعجز عنه . ﴿ **أمين** ﴾ أى : على ما فيه من لآلىء وجواهر وغيرها . و﴿ **الكتاب** ﴾ هو علم الوحى والشرائع ، والذى عنده علم هو سليمان ـ عليه السلام ـ كما اختاره الرازى وقال : إنه أقرب الآراء ، ﴿ **يرتد** ﴾ أى : يرجع ، والطرف ، تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة . ﴿ **مستقرا** ﴾ أى : ساكنا قارا على حاله التى كان عليها . الفضل : التفضل والاحسان ﴿ **ليبلونى** ﴾ أى : ليعاملنى معاملة المختبر . ﴿ **أم أكفر** ﴾ أى : أقصر فى أداء واجب الشكر . كفر : أى : لم يشكر . ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ **أى : غيروا هيئته وشكله بحيث لا تعرفه بسهولة** ، ﴿ **مسلمين** ﴾ أى : خاضعين منقادين . ﴿ **صدها** ﴾ أى : منعها . و ﴿ **الصرح** ﴾ : أى : القصر ، وكل بناء عال . **واللجة** : الماء الكثير . ﴿ **ممرد** ﴾ أى : ذو سطح أملس . **القوارير** : الزجاج . واحدها : قارورة . ﴿ **أسلمت** ﴾ أى خضعت .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ قصة موسى ـ عليه السلام ـ أردفه قصص داود وسليان ، وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق الطير ثم بين أن سليمان طلب من ربه ان يوفقه الى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكن من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم وسخر الله لسليمان الجن والأنس والطير وجعلهم جنودا له وذكر أنه احتاج جنديا من جنوده وهو الهدهد ، فبحث عنه فلم يجده ، فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل ، وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ، ووصف له ما لها من جلال الملك وابهته وانها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس العليم بكل شيء فى السموات والأرض ، والعليم بما نخفى وما نعلن ، والعليم بالسر والنجوى ، وهو رب العرش العظيم . ثم امره سليمان بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ ، والتنحى جانبا ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه ، وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإنا قوم أولوا بأس ونجدة ، والأمر مفوض إليك فافعلى ما بدا لك وهنا قالت : إنى أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإنى أرى ان نهادنه ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، عله يقبل ذلك منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحربنا ، ولما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان قال له : أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ثم قال له : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . فتجهزت بلقيس للسفر مقبلة إلى سليمان ، وكان سليمان قد احضر عرشها فى لمح البصر وأمر بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سألها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدقه فى دعواه النبوة وتتظاهر لديها الأدلة على قدرة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ فحينما

رأت ملكه العظيم أيقنت بأن دين سليمان هو الحق ، وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض ، وصاحت تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرنى ابى عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ؟

وفى الآية إخبار منه ـ تعالى ـ عن أنه ـ بفضله وكرمه ـ قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحى المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفى هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداه على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد فى حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك فى حاجة إلى شكر ؟ !

يقول الامام ابن القيم فى [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه ـ تعالى ـ هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله فى أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ (١)

﴿ التفسير ﴾

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾ قال ابن أبى حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرنى ابى عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ،

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله ـ تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ـ عليهما السلام ؟

وفى الآية إخبار منه ـ تعالى ـ عن أنه ـ بفضله وكرمه ـ قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحى المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفى هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداه على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد فى حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك فى حاجة إلى شكر ؟!

يقول الامام ابن القيم فى [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه ـ تعالى ـ هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله فى أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[1] .

وكان فى قول النبى ﷺ عند الاعتدال من الركوع « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد فله ـ سبحانه ـ الحمد حمدا يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السموات والأرض ، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده ، وذاك يحمل أمرين :

أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض ، والمعنى : أن الحمد ملء ما خلقته ، وملء ما تخلقه بعد ذلك .

الثانى أن يكون المعنى : ملء ما شئت من شىء بعد يملأه حمدك ، أى : يقدر مملوءا بحمدك ، وإن لم يكن موجودا . ولكن يقال : المعنى الأول أقوى ، لأن قوله : ﴿ ما شئت من شىء بعد ﴾ يقتضى أنه شىء يشاؤه ، وما شاء كان ، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له . . فتأمله . لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه . فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد . فلابد ان يكون شيئا موجودا يملأه حمده .

وأيضا قوله : ﴿ من شىء بعد ﴾ يقتضى أنه شىء يشاؤه ـ سبحانه ـ بعد هذه المخلوقات ، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ، ولو أريد تقدير خلقه لقيل : وملء ما شئت من شىء ، ومع ذلك لان المقدر يكون مع المحقق . وأيضا فإنه لم يقل : ملء ما شئت أن يملأه الحمد ، بل قال : ما شئت ، والعبد قد حمد حمدا اخبر به ، وإن ثناءه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب

---

١ ـ الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

ـ سبحانه ـ وما يشاء بعد ذلك وأيضا فقوله : ﴿ وملء ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر ، وقد لا تتعلق ، وأيضا فإذا قيل : ﴿ ما شئت من شيء بعد ذلك ﴾ كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ، ولا ريب ان له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما إذا قدر ما يملأه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها ، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الاعداد : ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة ، بل قيل : ﴿ ملء ما لا يتناهى ﴾ فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرا ، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها ، فهذا كله مما يشاؤه بعد .

وأيضا الحمد : هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود ـ تعالى ـ إما قائمة بذاته ، وإما ظاهرة فى مخلوقاته ، فأما المعدوم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها ، فلا محامد فيه البتة ، فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد فيها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته ، والمحاسبة الظاهرة فى مخلوقاته ، وأما مالا وجود له فلا محامد ولا مذام ، فجعل الحمد مالئا له لما لا حقيقة له .

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما ، فقالت طائفة : على جهة التمثيل ، أى : لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما . قالوا: فإن الحمد من قبيل المعانى والأعراض التى لا تملأ بها الأجسام ، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام . والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد ، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء . فإذا قيل : امتلأ الاناء ماء ، وامتلأت الجفنة طعاما ، فهذا الامتلاء نوع . وإذا قيل : امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر ، كما فى أثر معروف . (أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه . وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له) وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود : كنيف ملىء علما ، ويقال : فلان علمه قد ملأ الدنيا . وكان يقال : ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما ، ويقال : خبث فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق ، وحبه قد ملأ القلوب ، وبغض فلان قد ملأ القلوب ، وامتلأ قلبه رعبا . وهذا اكثر من ان تستوعب شواهده ، وهو حقيقة فى بابه ، وجعل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة ، والأصل الحقيقة الواحدة ، والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال ، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك . . .

﴿ والحمد كله لله ﴾ فهذا له معنيان : (احدهما) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام ؛ وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا ـ كما يحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم ـ فذلك من حمده ـ تبارك وتعالى ـ بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وهذا كما أنه بكل شيء عليم . وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه . وفى الدعاء المأثور : (اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله)

وهو ـ سبحانه ـ له الملك وقد أتى من ملكه بعض خلقه ، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء . وكما أن ملك المخلوق داخل فى ملكه فحمده أيضا داخل فى حمده . فما من محمود يحمده على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية ايضا . وإذا قال : ﴿ **اللهم لك الحمد** ﴾ فالمراد به : أنت المستحق لكل حمد ، ليس المراد به الحمد الخارجى فقط .

﴿ **والمعنى الثانى** ﴾ أن يقال : ﴿ **لك الحمد كله** ﴾ أى : الحمد التام الكامل . فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شريك .

والتحقيق ان له الحمد بالمعنيين جميعا ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه ـ سبحانه ـ فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو ، وليس الملك التام الكامل الاله .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وورث سليمان داود ، وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾

أى : ورث سليمان داود فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة** ﴾[1] وقال : ﴿ **ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء** ﴾ أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الانس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان ابن داود ـ كما قد يتفوه به كثير من الناس ـ فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ـ سبحانه ـ كان قد أفهم سليمان ما تتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال ـ تعالى ـ : ﴿ **علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء** ﴾ أى : مما يحتاج إليه المملك ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون** ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الانس وكانوا هم الذين يلونه ، والجن هم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له ، قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على اخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل** ﴾ أي : حتى إذا مر سليمان ـ عليه السلام ـ بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ﴿ **قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ اى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول الى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان ـ عليه السلام ـ منها ﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن اكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه**) أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالاسلام لك ، والايمان بك ، ﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ﴿ **وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك والرفيق الأعلى من أوليائك .

قد دل بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتتخذ القرى فى باطن الأرض ، وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتخفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق حذرا من ماء المطر .

وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لايقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لهم تحت أمرها وجمعها لرقم ليشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتدبيرها لأمورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك ، وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكره الكتاب . الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ؛ فيفهمون حال هذه الكائنات وكيف ان النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن امة لا تصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان .

﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾[1] فسبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[2]

أسمعت إلى قصة النملة مع أخواتها وكان لها إمرة على هذا النمل فوقفت موقف الناصح الأمين كمسئولة عن رعيتها ؟ ثم أسمعت قبلها إلى قصة موسى ؟ ثم أسمعت إلى قصة سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ؟ إن فى قصص القرآن عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا يدل .

---

(١) الاية ٣٥ من سورة النور .
(٢) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

سليمان - عليه السلام - على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض كما يرى الانسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مسافة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان - عليه السلام - يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ **فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفى القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق - وكان كثير الاعتراض على ابن عباس - فال له : قف يابن عباس ، غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ فيصيده الصبى . قال ابن عباس ، لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما اجبته ، ثم قال : ويحك ؛ إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شىء من القرآن ابدا . وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق ، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ، فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه ، فألح عليه شهورا فأخبره ان رجلين من أهل خراسان نزلا عند جمعة فى قرية برزة وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شىء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار ، فاستبشرا بها عظيما ، وقالا : الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، ووعدتهما بالدولة ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت الى الارض تحتى مثل المرآة انظر ما تحتها ثم قالا لى : سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى اذا بعدت عن القرية اخذانى فكتفانى وادخل احدهما يده فى عينى ففقأها ورمى بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بى نفر ففك وثاقى ، فهذا ما كان من خبر عينى . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان - عليه السلام - عنبر وقال محمد بن إسحق : كان سليمان - عليه السلام - إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ **فقال ما لى لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين** ﴾ أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله : ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى ينتف ريشه ، وقال عبد الله ابن شداد : نتف ريشه وتشميسه ، وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ **أو لأذبحنه** ﴾ يعنى : قتله . ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير : ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ؟ فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم ، قال :

﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ قال : نجوت إذا . قال مجاهد إنما دفع الله عنه ببره بأمه .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أي : غاب زمانا يسيرا ثم فاجأ سليمان بقوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي : علمت بأشياء لم تعلمها أنت ، وإنما فاجأه بهذا القول ليثير فيه عامل الاصغاء واستمالة قلبه إلى قبول عذره ، ولبيان خطر ما شغله .

قال صاحب الكشاف : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيها على ان في ادنى خلقه وأضعفه من احاط بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة . وإنما قال : ﴿ بنبأ يقين ﴾ حتى يعلم سليمان أنه خبر جدير بالمعرفة والبحث ، إذ التخمين لا تبنى عليه أحكام ، ولم يدع الهدهد النبأ غامضا إنما فصله قائلا : مبينا في قوله ثلاثة أشياء :

(١) إن ملكتهم امرأة وهي بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع اللآئي والجواهر في قصر كبير رفيع الشأن ، وفي هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك .

وبعد أن بين الهدهد لسليمان شئون القوم الدنيوية شرع يبين شئونهم الدينية ، وما هم عليه من مخالفات جسيمة : من الشرك ، وعبادة غير الله ، فقال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ أي : وجدتها وقومها في ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لارب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده . ثم فرع على ذلك القول : ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ وإنما

فعل بهم ذلك حتى لا يعرفوا الطريق القويم ، وحتى لا يسلكوا الصراط المستقيم ، ولئلا يسجدوا لله رب العالمين ، الذى يخرج كل شيء مخبوء فى السموات والأرض ، فهو الذى ينزل المطر وينبت النبات ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ هو كقوله ـ تعالى ـ : **﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾**[1] .

وقوله ـ جل شأنه ـ : **﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾**[2] ثم اسند الأمر المتعلق بالألوهية الحقة لله وحده لا شريك له فهو المستغنى عما سواه ، والمفتقر إليه جميع من عداه ، فوجب إفراده بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وافعالا ، فلا سجود الا له ، ولا خضوع الا له ، ولا تعظيم إلا له ، فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح باسم ربك الاعلى .

ما فى الوجود سواك رب يعبد ⠀⠀ كلا ، ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها ⠀⠀ رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى ⠀⠀ كل القلوب له تقر وتشهد

الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم

قوله ـ تعالى ـ : **﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين ﴾** .

﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ ﴾أى : قال : سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول أم أنت من الكاذبين ؟ وهذا شأن الحاكم العادل إذا وصله نبأ عن قوم لابد ان يتثبت ، ومن الخطأ الشنيع أن يصدر الأحكام دون ان يتبين ، عندئذ سيخطىء الحساب ويأتى بأوخم العواقب ، وإنما قال له **﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾** ولم يقل : **﴿ أصدقت أم كذبت ﴾** إيذانا بأن تلفيق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها ـ من غير ان يكون لها حقيقة تعبر عنها ـ لا يصدر إلا ممن مرن على الكذب وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد انه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .
(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ثم شرع يفعل ما يختبره به ، فكتب له كتابا موجزا ، وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال : ﴿ **إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أى : اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم ، واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونقاشهم فيه .

ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال : ﴿ **قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ أى : وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب القاه إلى الملكة ، ففضت خاتمه وقرأته ، وجمعت أشراف قومها ومستشاريها ، وقالت تلك المقالة المشهورة ، وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيماء إلى أمور :

(١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب اليهم .

(٢) إنه اوتى قوة المعرفة فاستطاع ان يفهم بالسمع كلامهم .

(٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فورا بواسطة تراجمتها .

(٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلا عن المرسل إليهم بعد اداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى فى مملكتها فقالت : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ .

ونص هذا الكتاب على وجازته يدل على امور :

(١) إنه مشتمل على إثبات الاله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيما .

(٢) نهيهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .

(٣) أمرهم بالمجىء إليه منقادين خاضعين . وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ .

﴿ **قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ . أى : قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا على فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلى ، فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه . وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم

قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وتعمية فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ **نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ على ما لها من عقل راجح وأدب جم فى التخاطب وعلى هذا النهج سار الاسلام ، فقد قال ـ سبحانه ـ لنبيه : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾[١] وقد مدح ـ سبحانه ـ صحابة رسوله بقوله : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ .[٢]

فأجابوا عن مقالها :

﴿ **قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظر ماذا تأمرين** ﴾ أى : قال الملأ من قومها حين شاورتهم فى أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة فى القتال ، إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن امر القتال والسلم مفوض إليك ، فأنظرى وقلبى الرأى على وجوهه ثم مرينا نأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم فى غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾ أى : قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرها وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والاجلاء عن موطنهم ، أو قتلوهم تقتيلا ، ليتم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم فى النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا ، وفى هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما فى الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها : ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة . بم يرجع المرسلون** ﴾ أى : وإنى سأرسل إليهم هدية من نفائس الأموال لأتعرف حاله ، واختبر امره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا ان نتبعه على دينه . وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفى الحديث : ﴿ **تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء** ﴾[١] ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تـولـد فى قلوبهم الـوصـالا
وتزرع فى الضمير هوى وودا ... وتكسبهم إذا حضروا جمالا

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ .

لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولآلىء وغيرها مما يقدمه الملوك

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين : شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣٤٦ من حديث عائشة رضى الله عنها فيما رواه الطبرانى ولكن بزيادة « وهاجروا تورثوا ابناءكم مجدا .

العظام . قال سليمان للرسول : أتصانعوننى بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ابدا إن الذى أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء ، والمال الوفير ، خير مما أنتم فيه ، فلا حاجة لى بهديتكم ، وليس رأيى فى المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دونى ، فارجع بما جئت به إلى من ارسلك ولنأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتونى مستسلمين منقادين .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قال ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ .

وهكذا أبى سليمان ، ان يقبل المال ؛ لأنه لا مساومة على دين الله ووحدانيته ، وأصحاب الرسالات لا يرضون الدنية فى دينهم ، فهم القمم العوالى والجبال الراسيات التى لا تستطيع الدنيا ان تقتحم عليهم تلك الأسوار العالية ، ليس فى العقيدة أنصاف حلول . إن المال الذى قدمته بلقيس ـ ملكة سبأ ـ كانت قد ظنت بتقديمه أنه سيخضع سليمان ويلين من قلبه ويجعله فى حالة انعدام وزن من أمره وتنتقل القضية بهذا المال من مجال العقيدة الى المناورة والمساومة على المزيد لكن أنبياء الله كما وصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ ـ وصفوا كذلك بالفطنة ، والفطنة : حضور البديهة وسرعة الادراك وقوة الحجة . كذلك وصفوا بالعصمة ، فقد حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ، لذا فإن سليمان أصدر إنذارا حاسما لا تردد فيه ولا رجوع عنه : ﴿ **أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ هذه عزة النفس وكرامة الدين وعظمة الرسالة . ثم أضاف : ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ ثم يعقد سليمان جلسة طارئة يلقى فيها هذا السؤال على الملأ : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ .

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد ـ والله ـ عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئا . وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد والؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل

يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال : ﴿ **يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ . ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذى لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا عمل خارق عظيم ان يأتوا بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة .

لقد قال لها رجالها وعظماء قومها : ﴿ **نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ فأراد سليمان أن يثبت لها أن قوة الله فوق كل قوة ، وإرادته فوق كل إرادة ، وما كان الله ليعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا . سبحانه كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز** ﴾[1] لقد قال لها الملأ من قومها : ﴿ **والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ وكانوا فى هذا القول من الغافلين عن الحقيقة العليا : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾[2] ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾[3] فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته . وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالاحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من علة . كيف يفوضون إليها الأمر ؟ لقد نسوا أو تناسوا أن للكون إلها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء .

فيابن آدم لا تخف سلطان أحد مادام سلطان الله باقيا ، وسلطان الله دائم لا يزول أبدا . . لقد أراد نبى الله سليمان أن يلقنها دروسا فى العقيدة تتمركز فى سويداء قلبها ؛ ليعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

قال عفريت من الجن (أى : مارد) : ﴿ **أنا آتيك به** ﴾ (أى : بعرشها) ﴿ **قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ وقد فصل الأئمة هذا المقام : فقال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدى وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . قوله : ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ أى : قوى على حمله والاتيان به ، أمين لن تمتد يدى إليه بسوء ، بل سآتى به كاملا غير منقوص ، إذ الأمانة ضد الخيانة . ومعلوم أن العفريت مارد . قد يتجاوز الحدود ، لذلك فقد ذكر هاتين الصفتين : القوة والأمانة حتى لا يتطرق الشك إلى قلوب السامعين ، لكن سليمان قال : أريد أعجل من ذلك . ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ وللمفسرين فى الذى عنده علم من الكتاب أقوال : قال ابن عباس : هو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء . وكان صديقا يعلم

(١) الآيات ١٥ ـ ١٧ من سورة فاطر .
(٢) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود .

الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنا من الانس واسمه آصف .

ويرى الشيخ المراغى ـ رحمه الله تعالى ـ ان الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ؛ قال الشيخ فى تفسيره لهذه الآية : أى : قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا احضره قبل ارتداد طرفك إليك . وقد كان كما قال .

ويقول العلامة ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ فى قوله : ، **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، فذكروا أنه امره ان ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله ـ تعالى ـ قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والاكرام . وقال الزهرى : قال : ياإلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قال : فمثل بين يديه .

وهكذا طويت المسافات الشاسعة ، وقطعت مئات الأميال من اليمن إلى القدس بقدرة من لا يغفل ولا ينام ، وبعظمة من يقول للشيء : كن فيكون ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾[١] نعم لقد اتى بالعرش ما بين طرفة عين وانتباهتها ، وسبحان من يقول : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[٢] ومن يقول : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير** ﴾[٣] ومن يقول : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم** ﴾[٤] ومن يقول : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾[٥] .

سبحانك ربى :

لا الأمر أمرى ولا التقدير تقديرى ولا الشئون التى تجرى تدبيرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى احاط بى علمه من قبل تصويرى

فيابن آدم : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت باستعن بالله .

سهرت أعين ونامت عيون فى شئون تكون أو لا تكون
إن ربا كفاك بالأمس ما كان سيكفيك فى غد ما يكون

فاجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

إذا أصابتك ضراء فقل : يارب ، وإذا تنكر لك الأصدقاء فقل : يارب ، وإذا عزَّ الدواء فقل :

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .
(٣) الآية ٧٧ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٨ من سورة الأنعام .

يارب ، وإذا قل ناصرك وكثروا واترك فقل : يارب ، وإذا نمت على فراش المرض فقل : يارب ، وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل : يارب .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب

فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

ماذا قال سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده ؟ هل استطاع الغرور أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ؟ فقال بلسان الفخر الكاذب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟

هل دخل الكبر نفسه العظيمة فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى ؟

هل هاجت ثعابين الغرور فى قلبه فقال :

إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ؟

هل قال للرعية : والله لاحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ؟ لا . ثم لا . ثم لا . . لقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . وبقلب ذاكر . وفؤاد شاكر : ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ إنه منطق الأنبياء ، إنها صفة الصفوة ولغة المصطفين الأخيار .

قوله - تعالى - : ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ هذا من قبيل قوله - تعالى - : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾[١] . وكقوله - جل شأنه - : ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾[٢] . . فالله هو الغنى عن العباد وعبادتهم ، كريم فى نفسه وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ **وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾[٣] وفى صحيح مسلم : (يقول الله - تعالى - : ياعبادى ؛ لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . ياعبادى ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، ياعبادى ؛ إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[٤] .

قال - تعالى - : ﴿ **قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال**

---

(١) الآية ١٥ من سورة الجاثية .
(٢) الآية ٤٤ من سورة الروم .
(٣) الآية ٨ من سورة إبراهيم .
(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ من حديث أبى ذر : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » . . فهذا جزء حديث .

إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾

أراد سليمان ـ عليه السلام ـ أن يختبر ذكاء بلقيس وحصافة عقلها ورجاحة رأيها ، فلما جىء له بالعرش قبل أن تأتى إليه قال : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ أى : غيروا فيه بعض معالمه . قال المفسرون فى هذا التنكير أقوالا :

قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل احمر ، غير كل شىء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا .

ولقد بين سليمان الحكمة من هذا فقال : ﴿ **ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟** ﴾ لقد ألقت بلقيس نظرة فاحصة على العرش . فلم تعرفه ، وفى نفس الوقت لم تنكره ، فلم تقدم على أن هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت : ﴿ **كأن هو** ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا دليل على أنها كانت صائبة الرأى ثاقبة الفكر متوقدة الذكاء . وقيل : إنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها . فلما كان السؤال بـ : أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو . ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت : إنه هو . أما قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ فقد قال مجاهد : إن هذه العبارة من كلام سليمان ، أى : الله آتانا العلم بأنها ستسلم ، وعلمنا ذلك قبل أن تعلنه علينا ، وكنا مسلمين لله رب العالمين .

وقال غيره : إن هذه العبارة من كلام بلقيس ، كأنها تقول لسليمان لما نكر لها عرشها : لست فى حاجة إلى كثير من المعجزات ، فقد أوتينا العلم بنبوتك وصدق رسالتك ، فقد قامت الأدلة على ذلك ـ فقد كان الهدهد آية من آيات الله دلت على صدق رسالتك . وما سمعناه عنك من معجزات اخرى كتسخير الريح والشياطين والطير ، وكنا مسلمين . وما صدنا عن الاسلام إلا أننا نشأنا فى بيئة تعبد الشمس فتكيفنا بتلك البيئة وتقليد الآباء الأقدمين .

قال تعالى ـ : ﴿ **وصدها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾ أى : ومنعها من الاسلام ما كانت تعبده من دون الله ، ولو أنها فتحت أمامها نوافذ المعرفة ـ وأزيل عنها التقليد الأعمى لأسلمت من قبل أن يأتى الهدهد بخبرها ، لكنها كانت من قوم كافرين جاحدين مقلدين . والتقليد شر ما يبتلى به الانسان .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[1]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قيل لها إدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ :

روى ان سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء ، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس فى

---

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .

صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل أذيالها ـ كما هى عادة من يخوض الماء ـ فقال لها سليمان : إن ما تظنينه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج ، فسترت ساقيها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله ، وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسى بالثبات على ما كنت عليه من الكفر ، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء ، وأخلصت له العبادة .

الاسلام دين الأنبياء

قالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فقولها : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين دليل ساطع وبرهان قاطع وحجة بالغة على أن دين الأنبياء هو الاسلام . فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : « لا إله إلا الله » ، ونظرة فى كتاب الله الكريم تعطيك هذا المعنى ، فكل الأنبياء آمنوا بالله ربا وبالاسلام دينا . قال نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[١] وقال إبراهيم : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾[٢]

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٣] وقال ـ جل شأن ـ : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أؤتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴾[٤] .

وقال يوسف : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٥] .

وقال موسى : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٦] وقال الله ـ تعالى

---

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١٣٦ ـ ١٤١ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٨٤ من سورة يونس .

للمسيح بن مريم ـ : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[١] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[٢] .

وقال ـ تعالى ـ : لأمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٣] .

وقال لأهل السموات والأرض : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾[٤] وحذر من مخالفة ذلك الحكم مبينا عاقبة ذلك فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٥]

تعقيب

بعد ما مضى من القصص فى هذه السورة المباركة يحسن بنا أن نذكر شيئا عن القصة فى القرآن من كتاب (**تذكرة الدعاة**) للشيخ البهى الخولى ، قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

تمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وإتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبعية والزمنية ، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعا بذوى النفوس المظلمة ، والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها . فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وإنتباهه بنسق القصصى البارع استشرافا لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لابلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ؛ فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية تحرك الوجدان ، وترفع نبض المشاعر .. وهى بالميزة الثانية : ـ ميزة التنبه والتقبل ـ تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك ـ ياأخى ـ فإنه من سنة الله والله ـ عز شأنه ـ قد سنه فى القرآن الكريم ، فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتا له ولأمته على الحق : ﴿ وكلا نقص

---

(١) الآية ١١١ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1]

وخير القصص كله : قصص القرآن الكريم شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما فيه ، لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الاسلامية ، فكانت أوفى وأكمل الحضارات . .

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلا قصة سليمان وملكة سبأ ، ولا تؤاخذنى إن قصر بى العجز عن الاحاطة بمراميها القيمة البعيدة .

إن هدهدا كشف لسليمان ـ عليه السلام ـ ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم سليمان أن يسلموا لرب العالمين ، فحاولوا إسترضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئا ، فقد رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنودا لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه مسلمين .

وفى هذه القصة يقرر الله ـ تبارك وتعالى ـ القواعد الأصيلة : المادية والروحية ، التى لابد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتى : ـ

(١) قوة وعلم :

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم .

فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الاسلحة والآلات .

والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة لتسخير ما يمكن تسخيره منها فى منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله ـ عز وجل ـ .

هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله ـ عز وجل ـ فى مواضع كثيرة من كتابه : **﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ ! قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾**[2] ولكن الله ـ عز وجل ـ لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظرى لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكا عمليا ، ودولة نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق مائلة للعيان ، فى معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال ـ ولن نبلغه ـ فلنحقق منه ما تتسع به الطاقة .

القوة فى قصة سليمان :

إن الله ـ عز وجل ـ يريد لنا ملكا عمليا ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ، ثم أوردها محققة فى ملك سليمان ؛ لنكون عمليين فى بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين ، فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟ اقرأ معى قول الله ـ عز وجل ـ : **﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم ﴾** من كثرتهم وتزاحمهم **﴿ يوزعون ﴾ : يدفعون حفظا لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم**

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، وهذه الجنود الكثيفة التى لم يعرف لها مثيل فى تعدد اجناسها تبعث الرعب فى جميع الآفاق ، حتى ليدخل الوجل فى قلوب النمل فضلا عن غيره ، فإذا ﴿ أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، وأنها لا يقف لها شىء فى الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : **﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾** .

أرأيت ـ يأخى ـ الجند مصورا هذا التصوير الرائع فى مثل هذا الكلام اليسير الموجز ؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحى الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إلقاؤه الرعب فى قلوب المخلوقات ، حتى اليسير منها والتى لا قصد للجنود إليها ، وكونه جندا غالبا مظفرا على اعدائه فى كل المواطن ، فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

العلم فى قصة سليمان :

ثم أين العلم فى هذه القصص ؟ واين رسالته التى أداها للدولة ؟ اقرأ معى قول الله ـ عز وجل ـ **﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان ﴾** ميراث نبوة وعلم **﴿ داود ﴾** وهذا العلم الذى اشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات ، وسائر أنواع العلم فى قوله : **﴿ يأيها الناس علمنا منطق الطير . وأوتينا من كل شىء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** .

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه فى حواره المعروف مع الهدهد ، وتراه كذلك فى فهمه ما قالت النملة التى أنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم .

وأما ما عدا اللغات من اى أنواع العلم فهو قوله : **﴿ وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** .

ونرجو ان نتأمل قول الله ـ عز وجل ـ : **﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** وهذا الفضل هو العلم معترفا به على لسان سليمان الشاكر الذاكر ـ عليه السلام ـ .

وأما ثمرة هذا العلم العملية فى الدولة ﴿ فهى السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة ، ليسخرها أهله فى منافع الدولة ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يلى :

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان ـ عليه السلام ـ ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لابد آخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة فى وفد كبير ذاهبة إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد ـ عليه السلام ـ ان يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للايمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : **﴿ يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ﴾** أرأيت الذى عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والامام الفاضل والنبى الصالح ؟ .. وهذا الذى عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على

سليمان ليكونوا فى خدمة ملكه ، فلما تحقق فضل الله ـ بتسخير هذا العلم عمليا ـ اعترف به فقال : ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ .

وفضل الله كما نراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ فى هذه السورة : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما** ﴾ وتقرأ فى سورة أخرى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد** ﴾[١] فسبحان الله العظيم ، فسخر الاسرار للعاملين فى الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾[٢] وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهدا لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهى وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة ، لملك سليمان فى آيات اخرى : ﴿ **ولسليمان الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور** ﴾[٣]

هذا شأن العلم والقوة فى هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله ورسالة .

(٢) ورسالة :

ولابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها فما هذه الرسالة ؟ هل هى اتساع الملك ، وكثرة المستعمرات والاستيلاء على أراضى الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك ان تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة ؟ ان علم الله أرفع من ان يسخر لمثل هذه المخازى والمآسى ، وإن الله ـ عز وجل ـ أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة ، إن الغاية الفاضلة التى يجب ان تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة إلى شىء سواها ، هى : توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الايمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية ، والعملية ، التى تكفل استقرار الناس فى ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتى هى أحس فبها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضا ، وليس أحسن فى هذه الحالة من القوة المسلحة فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا ، وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله حتى نطهر الأرض من رجسهم : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾[٤] ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾[٥]

إنتهى المجلد الرابع والخمسون ويليه المجلد الخامس والخمسون مبدوءا بعبارة ﴿ تلك هى الغاية التى يجب ان تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة) .

---

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ .

(٤) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

بسم الله الرحمن الرحيم

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنه عاشوا لها : لتطهير الأرض من الرجس .

ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه :

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله** ﴾[١] .

وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف ، الذى آتاه من كل شىء سببا ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم ﴿ **قلنا ياذا القرنين ، إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا** ﴾[٢] . فوضع لقوته دستورا صالحا ، يعذب عليه أو يثيب . ﴿ **أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا** ﴾[٣] .

وهذا حسن فى موضعه بالغ درجة الحسن ، لأنه الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ، أما حين أراد تصويره عمليا ، فقد أقامه لنا فى قصتنا الخالدة ، فى منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم - وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون** ﴾

وهذا ضلال فى العقيدة ، وضلال فى العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها إلى شر المصير . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . . وبعد أن تبين الهدهد فساد هذه الدولة وعقيدتها وأعمالها ، استمر فى بيان العقيدة الصالحة التى يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفرادا وجماعات : ﴿ **ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لاإله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ ونرى سليمان عليه السلام ، وهو رئيس الدولة الأعلى ، يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق مايحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز

الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : ﴿ **إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين** ﴾ ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام ، فيهدد مايهدد بالقوى المسلحة الجبارة . حتى تقول ملكتهم فى النهاية :

﴿ **رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ .

---

(١) آل عمران آية رقم ١١٠
(٢) الكهف آية رقم ٨٦
(٣) الكهف الآيتان ٨٧ ، ٨٨

ألا ترى ياأخى أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقا عاملة لهذه الغاية الكريمة ، أولا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة فى النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه .

(٣) إيمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شيء :

والحقيقة الثالثة فى هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة ، أن يكون رئيسها الأعلى عالما بغايتها ، مؤمنا بها ، عاملا جهده لها .

هذه واحدة والأخرى أن يكون يقظا ومنتبها ، متعهدا لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازما فى محاسبة المسئولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق فى قوى الدولة وانفرط عقدها . وهذا كلام لاغبار عليه ولاتردد فى قبوله ، فلا نطيل فى الإستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتمسه مصورا فى قصتنا أبدع تصوير . ﴿ **وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟** ﴾ . . . ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذى يعنى بتفقد الطير ، لايفوته أن يتفقد ماهو أهم منه ، وذلك إستقصاء كامل فى رعاية نواحى الدولة ، والعناية بأمرها . . . ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته الحساسة إذ يفطن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له ، فيقف متسائلا ﴿ **مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ؟ وهذا مثل أعلى فى يقظة الحس ، من العسير إن لم يكن من المستحيل على بشر عادى أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبى من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى فى اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا ، وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرنى بربك ، ماقيمة هدهد فى هذه الجيوش الجرارة ؟

ما غناء هذا الهدهد إذا حضر وما مضرته إذا غاب ؟ . . هو القائد الحكيم ياأخى يرى أن لكل شيء رسالة صغر أو كبر . ولكل جندى عملا لايؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق فى العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ، ومن هنا يعظم فى صدر القائد الحساس مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما فى مؤاخذة أصحابها مؤاخذة تحمل العذاب الشديد ، وتمتد إلى عقوبة الإعدام ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ وفى المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان ، هذا المقال ، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافها ، لايمكن أن يفرط فى المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال ﴿ **سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾ .

وأما ايمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ، فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شىء لله . وحسبك منه انصرافا عن كل ماعدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأهله أصدق تصوير ، فلما جاء سليمان قال متهكما : ﴿ **أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف مايشبه ذلك : ﴿ **قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ـ فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال : مامكنى فيه ربى خير ـ من المال ـ فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما** ﴾[1] .

(٤) إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة :

ورابعة ننقلها من هذه القصة ، ولابد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية ـ يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ، وكل مامضى مما قررناه يصبح عديم الجدوى .

- إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ، وأنت ترى الهدهد ، يعتز بواجبه ، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطبا سليمان ، وهو حاكم الجن والإنس :

﴿ **أحطت بما لم تحط به ! وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم و . . الخ** ﴾ ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة ، أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه فهو لايعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن .

ياأيها الناس ، ياأيها الشباب ، اعرفوا واجبكم . واسعوا فى صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لايساوى رجالها هدهدا لهى أمة من الغثاء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال لهى أمة مقعدها فى السماء فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا فى هذه القصة ياأخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه فى دولة سبأ ، لا يخلق إلا رجالا لاعقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس ، لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : ﴿ **الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ وماجمعتهم لهذا ، وإنما جمعتهم لتقول لهم . ﴿ **ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ فلم يسعفوها برأى تستأنس به ، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة . ولا تبنيه إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان .

نحن فى هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لاتقوم دولة عظيمة إلا بها .

---

(١) الكهف الآيتان ٩٤ ، ٩٥

١) قوة وعلم ٢) رسالة مجيدة ٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقده - فى انتباه - كل شىء ٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة إخلاصهم لواجبهم .. فخبرنى ياأخى ، لو أن قصصيا من الأفذاذ النوابغ ، أراد تصوير هذه المعانى الجليلة ، أكان يعرضها عليك فى مثل هذه القوة ، وفى مثل هذا الوضوح ، الذى يفوق ضوء الشمس فى شدة جلائه ، أو كان يعرضه عليك فى مثل هذا القدر الوفير من البيان الرائع المعجز !! .

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن أحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مراعى الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعانى والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع من أسرار الإعجاز ، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر .. لايحيط به إلا الله الذى خلق كل شىء وأحاط بكل شىء علما ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] وصدق الله العظيم : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[2] .

أقول : لسنا بصدد شىء من إثبات هذا الإعجاز القرآنى وإنما بصدد طبيعة القصة ، فى عرضها للمعانى الدقيقة عرضا مصورا فى حوادث عملية . ونحسب أن قد قمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى بالإقناع لما قصدنا إليه .

والآن نسوق إليك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه فى سورة النمل :

﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ . لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لاإله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك**

---

(١) الملك آية / ١٤
(٢) الاسراء آية / ٨٨

فأنظرى ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ! فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال : ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى آمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ماكانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها أدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال : إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار وسوء عاقبته على الذين يحل بهم فى قوله تعالى :
﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ وإن هذا ديدنهم فى كل زمان ومكان ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ فلا ينفكون عنه .. وترى فطنة بلقيس ، وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها ، واختبار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال وإلا كانت غبية . وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج ، وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه ـ فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ، فإذا تبين لها ذلك كان حقا عليها ـ وهى العاقلة الذكية ـ ألا تترد فى مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة ..

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة .. ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس : ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ فقولها : ﴿ **فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ يضع يديك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه .. وتلمح هذا الذكاء أيضا حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروه ، فغيروا معالمه بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها فى بلادها والمسافة بعيدة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل ليس عرشى ، لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته .. ولم تقل لاأدرى لأنه غباوة وبلادة ذهن ، فخرجت من هذا السؤال المحرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التى ماكان يصلح للموقف غيرها .. فقالت : ﴿ **كأنه هو** ﴾

وتر فى القصة غير هذا من اللفتات اللبقة الدقيقة ، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال .

فعليك بقصص القرآن ياأخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك ، فإنه يسعفك بما لايسعفك به قصص آخر .

* صالح مع قومه ثمود *

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

معانى المفردات : (يختصمون) يتنازعون (اطيرنا) تطيرنا أى تشاءمنا والطيرة تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يمينا أو شمالا (تفتنون) تمتحنون (رهط) الرهط اسم للجماعة (لوليه) من له ولاية دمه (مهلك) هلاك .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴾**

هذا أمر بتوحيد الألوهية ، وهو إفراد المعبود بالعبادة ، دون أن يشرك به ، كما قال سبحانه : **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾**[1] وتلك رسالة الأنبياء جميعا ، اشتملت على هذا المبدأ الوطيد ، قال تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾**[2] .

وقال : **﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾**[3] .

وقال : **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من**

---

(١) سورة الكهف آية رقم آ ١١٠
(٢) سورة هود الأيتان ٢٥ / ٢٦
(٣) سورة هود الآية آ ٥٠

الأرض واستعمركم منها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾(٣) وقال عز من قائل : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أى لم تستعجلون العذاب ، وكان الواجب عليكم بمقتضى عقولكم أن تطلبوا الهداية والرحمة ، قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا ﴾(٦) .

لقد قالوا ـ وهم كفار مكة ـ ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٧) .

وكان المنطق السليم يقتضى أن يقولوا : فاهدنا إليه ، لكنهم لما ملئت قلوبهم ظلما وعلوا لم يهتدوا صراطا مستقيما ، ولذا قال صالح لقومه : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ أى كان عليكم أن تطلبوا المغفرة من الله تعالى ، ليرحمكم بدلا من أن تطلبوا العذاب ، فإن الله هو التواب الرحيم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾

أى مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لايصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارا عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾(٨) .

وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله ﴾(٩) . أى بقضائه وقدره ثم قال تعالى بعد ذلك) فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ﴾ وقال سبحانه فى سورة يس ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها

(١) سورة هود الآية آ ٦١
(٢) سوره هود ايه رقم ا ٨٤
(٣) سورة الأنبياء آية رقم آ ٢٥
(٤) سورة الزخرف آية رقم آ ٤٥
(٥) سورة الأعراف آية رقم آ ٧٥
(٦) سورة الأسراء آية رقم آ ١١
(٧) سورة الأنفال آية رقم آ ٣٢
(٨) سورة الأعراف آية رقم آ ١٣١
(٩) من النساء آية رقم آ ٧٨

المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ماأنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وماعلينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾[١] .

وقال هؤلاء لنبيهم صالح عليه السلام ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أى الله يجازيكم على ذلك .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

قال تعالى : ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[٢] كما قال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وكان فى المدينة ﴾ أى مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط) أى تسعة نفر ﴿ يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . وهؤلاء هم طغاة البلاد وجبابرتهم ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون ﴾[٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وماأرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[٥] .

قال العوفى عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم ، قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك ـ وكان من هؤلاء التسعة ـ قدار بن سالف عاقر الناقة ، أى الذى باشر ذلك بيده .

قال تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾[٦] وقال سبحانه :

﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولايخاف عقباها ﴾[٧] .

ووجوه الإفساد فى الأرض كثيرة لاتحصى فقول الله تعالى : ﴿ يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ يفيد أن إفسادهم اكثر من أن يستقصى ، فكل المعاصى إفساد ، سواء أكانت فى العرض ،

(١) سورة يس الآيات رقم آ ١٣ إلى آ ١٩
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم آ ٣٥
(٣) سورة الفرقان الآية رقم آ ٢٠
(٤) سورة الأنعام الآية رقم آ ١٢٣
(٥) سورة سبأ الآية رقم آ ٣٤
(٦) سورة القمران الآية رقم آ ٢٩
(٧) سورة الشمس الآيات من ١١ ـ ١٥

أم المال ، أم النفس ، أم العقل ، فإن وجوه الفساد لاتكاد تقف عند حد ، قال تعالى فى صفة أهل الفساد : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾[(١)] وقال عز من قائل : ﴿ **وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين** ﴾[(٣)] .

وقال عز من قائل : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . ولاتبغ الفساد فى الأرض . إن الله لايحب المفسدين** ﴾[(٤)] .

وقال جل جلاله : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾[(٥)] وقال جل جلاله : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** ﴾[(٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** ﴾ أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة . فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم .

ولأئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوال :

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : تواثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

قال العوفى عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا : حين عقروها لنبيتن صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ماشهدنا من هذا شيئا ومالنا به من علم فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ماعقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا ، فان كان

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ ـ ١٦
(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٠٥ ـ ٢٠٦
(٣) سورة القصص آية رقم آ ٤
(٤) سورة القصص الآيتان آ ٧٦ ، ٧٧
(٥) سورة القصص آية رقم آ ٨٣
(٦) سورة الأنفال آية رقم آ ٧٣

صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ، كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا ليبتوه فى أهله ، فدفعتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لاتقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم .

قال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾[١] .

قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث ، وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا ، فقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم ، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلايدرى قومهم أين هم ولايدرون مافعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ، ثم قرأ ﴿ **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية** ﴾ أى فارغة ليس فيها أحد ﴿ **بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾

المكر من العبد حيلة سيئة وخداع ، والمكر من الله تعالى بطش انتقام ، قال سبحانه : ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم** ﴾ أى خداعهم ﴿ **أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **وهم لايشعرون** ﴾ دليل على أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل ، بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال سبحانه : ﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[٢]

وقال عز من قائل : ﴿ **ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾[٣] .

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها إقرأ قوله جل شأنه : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون** ﴾[٤] .

---

(١) سورة هود آية رقم آ ٦٥
(٢) سورة القلم الآيتان رقم ٤٤/ ٤٥
(٣) سورة ابراهيم الآيتان رقم ٤٢/ ٤٣
(٤) سورة يوسف الآية رقم آ ١٥